

شبهات التصوف

أبو حفص
عمر بن عبد العزيز قريشي
مدرس بكلية الدعوة الإسلامية - جامعة الأزهر



فيصل - الهرم - مصر



سلسلة العقائد
"٣"

شبهات التصوف

أبو حفص
عمر بن عبد العزيز قريشي
مدرس بكلية الدعوة الإسلامية - جامعة الأزهر



فيصل - الهرم - مصر

دار الهدى
نشر . توزيع
٢٣٢ شارع الملك فيصل - التعاون - الهرم ت : ٣٨٣٧٧٧٠

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3]

أما بعد

فلقد كلفت بتدريس مادة العقيدة الإسلامية على طلبة معهد الدعوة والدعاة بالجمعية الشرعية فدرست للسنة الأولى « أركان الإيمان » واخترت لها كتاب «عقيدة المؤمن » ليسريته وسهولته، وحسن عرضه، وبليغ عبارته، وحسن استدلاله، وصدق حديثه .

---

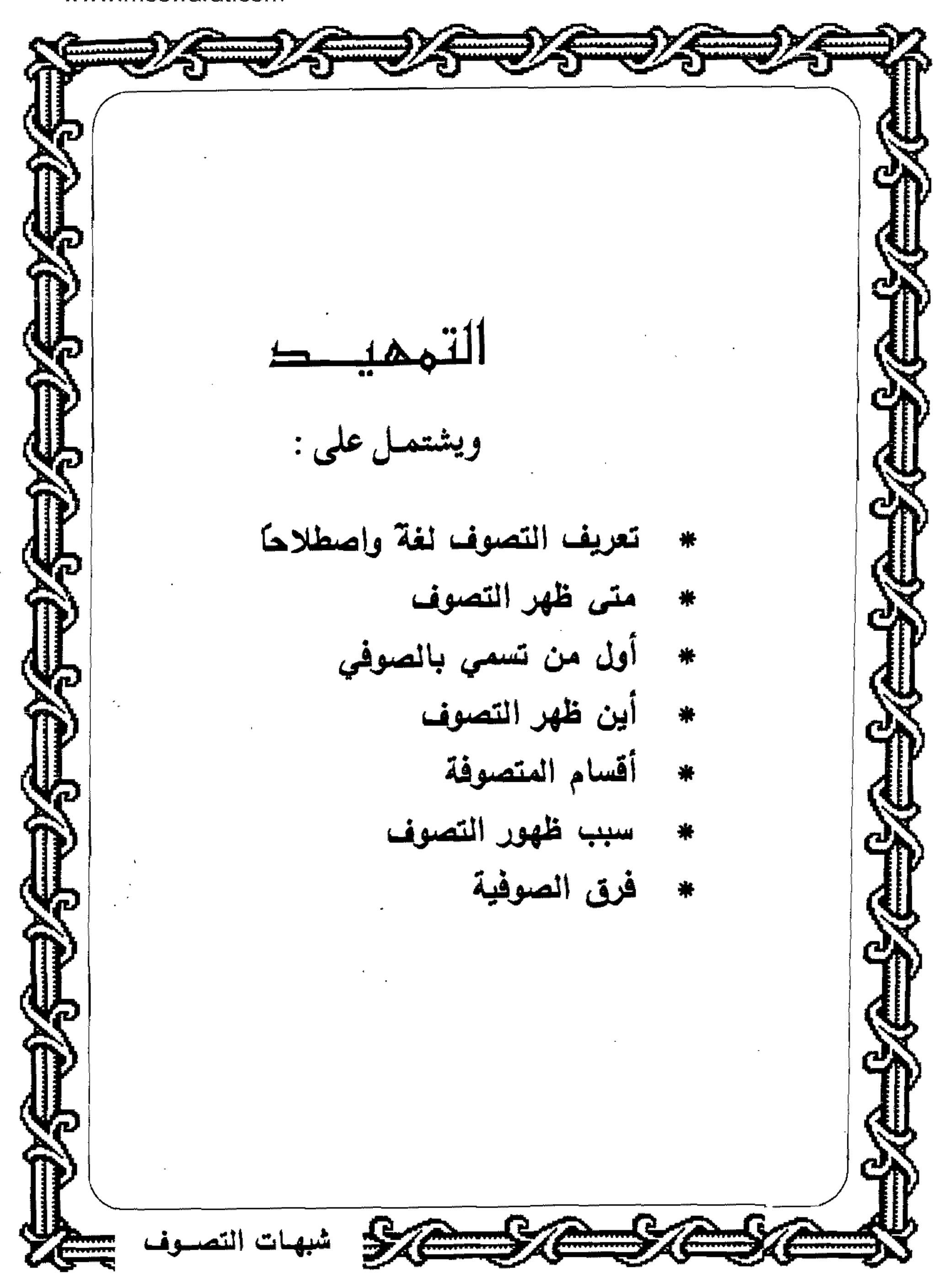
(١) سورة آل عمران: ١٠٢ . (٢) سورة النساء الآية ١. (٣) سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١

فلما أردت أن أدرس للسنة الثانية « علم التصوف» نظرت فى كتاب أقرره على الطلاب فلم أجد إلا كتابًا يمتدح التصوف ويثنى على المتصوفة، ويبالغ فى ذلك دون ما نظرة تقويم، أو كلمة تصحيح، بل معهم فى صوابهم وخطئهم، إن لم يصفهم بأعلى الدرجات وأفضل المنازل. أو كتابا يهجو الصوفية هجاءاً مرّاً، وينكر التصوف برمته، ويحارب ذلك حربًا شعواء إن لم يكن يرميهم بالكفر والخروج عن الإسلام .

والحق أن هذا إفراط أو تفريط يمقته الإسلام ويرفضه، ولذلك احترت فى تقرير كتاب عليهم، ونحن نريد أن نتكلم بوسطية الإسلام وأن ننصف القوم، بأن نقول مالهم وما عليهم، دونما حياء أو خجل، فاضطررت للكتابة فى ذلك، ولو على سبيل الإيجاز – رغم مشغوليتى برسالتى، ولقد مَنَّ الله على، فقرأت كلامًا لشيخ الإسلام ابن تيمية فكان – فى هذه المسألة – ميزان الاعتدال، ووسطًا بين الأقوال، فيثبِتُ لمن وافق السنة حقه من المحبة والتوقير، ويدفع ببرهان الشرع الزائغين والمبتدعين، مع الإقرار بأن حال النبى ﷺ وحال أصحابه رضى الله عنهم هو أكمل الأحوال.

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على السنة، وأن يتوفانا عليها، وأن يرزقنا محبة من والاه، وعداوة وبغض من عاداه. وما توفيقى إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب.

عمر بن عبد العزيز



التمهيد

ويشتمل على :

* تعريف التصوف لغة واصطلاحاً
* متى ظهر التصوف
* أول من تسمي بالصوفي
* أين ظهر التصوف
* أقسام المتصوفة
* سبب ظهور التصوف
* فرق الصوفية

بسم الله الرحمن الرحيم



تمهيد

أولا : - مقدمة حول : « معنى التصوف وظهوره، وفرق المتصوفة وأقسامهم »

أ - معنى كلمة صوفى

* لغة : إن الذين كتبوا عن هذا الموضوع اختلفوا فى هذه الكلمة « صوفى» هل هى مشتقة من الصوف أو من الصُفَّة أو من الصفاء أو من الصف. ونحو ذلك، فاختار بعضهم أنها مشتقة من إحدى هذه الكلمات دون غيرها، بينما قال آخرون إنها تصلح أن تكون مشتقة منها جميعا، لأن لها من كل كلمة منها معنى يصح انصرافها إليه، فمن نسبها إلى الصوف لاحظ كثرة لبسهم له، ومن نسبها إلى الصفة لاحظ محاولتهم التشبه بأهل الصفة « رضى الله عنهم » ، ومن نسبها إلى الصفاء لاحظ صفاء سريرتهم، ومن نسبها إلى الصف لاحظ حرصهم على الصف الأول . . . الخ.

هذا ولكن اللغة لاتسعفنا فى تصحيح اشتقاقها من كل هذه الكلمات، فقد بين الإمام « القشيرى»، وكذلك الإمام « ابن تيمية » وغيرهم خطأ من قال باشتقاقها من أكثر هذه الكلمات. ونوضح ذلك فنقول، وبالله التوفيق :

١ - *النسبة إلى الصُفَّة :*

وهى الموضع الذى بنى لايواء جماعة من المسلمين بالمسجد النبوى الشريف لم يكن لهم أهل بالمدينة المنورة ولامنازل لهم بها، وقد كان عامتهم من الفقراء المهاجرين.

فرأى بعض الصوفية أن الكلمة منسوبة فى الأصل إلى هذه « الصفة» ، ولكن الإمام القشيرى يعترض على صحة هذه النسبة بقوله : «فالنسبة إلى الصفة لاتجئ على نحو صوفي» [١] ويقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» من قال إنه نسبة إلى الصفة قيل له كان حقه أن يقال «صُفِّية»[٢]

١- الرسالة للقشيرى صـ ٢١٧ ٢- مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٠ ص ٣٦٩

٢- النسبة إلى الصفاء :

والمقصود به هنا هو صفاء الروح وصفاء السريرة، فالصوفية ينسبون أنفسهم إلى الصفاء لما فيه من معان سامية رفيعة.

ولكن النسبة إلى الصفاء لاتصح من حيث اللغة، يقول الإمام القشيرى : « ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة»(١)

ويقول ابن تيمية : « ومن قال هى نسبة إلى الصفاء قيل له: كان حقه أن يقال صفائية، ولو كان مقصورا لقيل صفوية »(٢).

٣- النسبة إلى الصف:

وقد يقصدون بالصف هنا معانى كثيرة، منها الصف الأول فى الصلاة، ومنها الصف المقدم بين يدى الله عمومًا، ولكن اللغة أيضا لاتسعفنا فى إضافة كلمة«صوفى» إلى هذا الاسم، يقول الإمام القشيرى : «وقول من قال إنه مشتق من الصف، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله تعالى ، فالمعنى صحيح ولكن اللغة لاتقتضى هذه النسبة إلى الصف »(٣).

وقال الشيخ ابن تيمية : ومن قال نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله، قيل له كان حقه أن يقال «صُفِّية»(٤)

٤- النسبة إلى الصفوة :

أى الصفوة من خلق الله وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل : صفوى(٥)

١- الرسالة للقشيرى صـ ٢١٧

٢- مجموع الفتاوى جـ ١ صـ ٣٦٩

٣- الرسالة للقشيرى ص ٢١٧

٤- مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٠صـ ٣٦٩

٥- الصوفية والفقراء لابن تيمية صـ ٦

٥- النسبة إلى صوفة :

وهو صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة، قبيلة من العرب، كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك.

ولقد تكلم شيخ الاسلام عن هذه النسبة إلى «صوفة» المذكور، فأجاز وقوعها من حيث اللغة، ولم يتعرض القشيرى لهذه النسبة، إلا أن الامام ابن تيمية بعد أن صحح هذه النسبة من حيث اللغة بالقياس على كلمة «كوفة، فإن النسبة منها «كوفي» فكذلك «صوفة» النسبة منها «صوفى» وضعف صحة هذه النسبة من حيث علاقة الصوفية بهذه القبيلة من العرب، وذلك لاستبعاد أن ينتسب بعض الزهاد من المسلمين إلى قبيلة من العرب كانت تعبد الله على جهل، بل يجزم الشيخ بأن غالب من تكلم باسم الصوفى لايعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة فى الجاهلية لاوجود لها فى الاسلام (١)

٦- النسبة إلى صوفيا :

و «صوفيا» كلمة يونانية ومعناها الحكمة وهو لم يصح لغة ولا نسبا.

٧ - النسبة إلى الصوف :

وعلى الصحيح أن اشتقاق كلمة «صوفى» من «الصوف» فيقال تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص، وتبرقعت المرأة إذا لبست البرقع، ونحو هذا. فهى نسبة تصح من حيث الواقع، فقد عرف الصوفية بلبسهم الصوف وكان ذلك علامة على الزهد الذى عرفوا به.

* ومع ترجيحنا صحة هذه النسبة الا أنه لم يخل من اعتراضات، منها : -

أ - أن الصوفية ليسوا مختصين بلبس الصوف دون غيرهم. وهو رأى الإمام القشيرى (٢)

١- مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ٦ بتصرف ٢- الرسالة للقشيرى صـ ٢١٧

أى أن كافة الناس قد يلبسون الصوف فى وقت ويتركونه فى وقت، ومنهم الصوفية، فما الداعى لتخصيص الصوفية به حتى ينسبوا إليه دون غيرهم علما بأن النسبة إلى الصوف صحيحة عنده من حيث اللغة.

وقد أجاب « ابن خلدون» على هذا الاعتراض فى مقدمته، من ناحيتين :

الناحية الأولى :إنه لو استعرضنا طوائف الناس كالصناع والزراع والعمال لانجد أن طائفة منهم يغلب على أفرادها لبس الصوف كما غلب فى طائفة الصوفية.

الناحية الثانية : أن هذه الطائفة كانت تلبس الصوف زهدًا وتورعًا عن لبس الفاخر من الثياب، أما سائر الناس من غيرهم - فيلبسونه لا لهذا الغرض الذى ينشده الصوفى، حينئذ يكون تميزهم بلبس الصوف أمرًا واضحًا[1] وهذا تحقيق جيد من العلامة ابن خلدون.

ب - الاعتراض الثاني :أن لبسهم الصوف كان تشبهًا بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وليس بالنبى محمد ﷺ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى الفتاوى[2] عن«محمد بن سيرين» أنه بلغه أن قومًا يفضلون لباس الصوف «فقال : إن قومًا يتخذون الصوف يقولون:- إنهم يتشبهون بالمسيح ابن مريم، وهدى نبينا أحب الينا، وكان النبى ﷺ يلبس القطن وغيره، أو كلامًا نحوًا من هذا[3]

١- المقدمة لابن خلدون صـ ٣٣٤

٢- مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ٧

٣- راجع / موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، د / أحمد بن محمد بنانى صـ٦٧ - ٧٠ بتصرف و / فى ظلال التصوف الإسلامى د / طه دسوقى صـ ٣-٩ بتصرف

معنى كلمة « صوفي » أو« تصوف »

* **اصطلاحًا** : وحول تعريف التصوف اصطلاحًا، نقول : لقد أصبح من المعروف لدى العلماء الذين كتبوا عن التصوف أن تعريف التصوف بعبارة واحدة جامعة مانعة إن لم يكن متعذرًا فهو متعسر جدًا، وهذا سببه كثرة ماورد من التعاريف المختلفة للتصوف على لسان كثير من كبار الصوفية، بل قد يرد عن الشخص الواحد كثير من التعاريف تتراوح بين الاختصار والإسهاب، أو بين الاقتضاب والاطناب، وتتحدث عن الوسيلة أو الغاية، وتختلف عن بعضها فى تصوير معنى التصوف.ولقد فسر الإمام القشيرى هذا الاضطراب والتعدد فى تعريف التصوف حتى عن الشخص الواحد - بأن كل واحد يتكلم بحكم الوقت والحال الذى هو فيه، فإذا تغير الوقت والحال تكلم بحكم وقته وحاله الجديد[1]

* وإليكم نماذج من تعريف الصوفية للتصوف، وقد أردفناها بتعليق عليها وملاحظات فيها :

١- قال سهل بن عبد الله التسترى [*] :« الصوفى من صفا الكدر، وامتلأ من الفِكَر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر»[2].

وهو تعريف اشتمل على عبارات منمقة وعامة، قد لوحظ فيها موضوع الفواصل اللغوية أو السجع أكثر من أى شىء آخر، فما هو الكدر الذى صفا منه الصوفى ؟

هل هو كدر الخلق أو كدر النفس أو غير ذلك، وما هى الفكرة التى امتلأ منها فإن الفكر جمع فكرة، والفكرة قد تكون حسنة وقد تكون غير ذلك، وكيف ينقطع إلى الله من البشر ؟

هل بالانعزال التام عن الناس، أو بمعاملة الناس بما طلبه الله منه، وما يرضى الله

١- الرسالة للقشيرى صـ ٢١٧ بتصرف ٢- التعرف للكلاباذى صـ ٩

* هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التسترى ، توفى عام ٢٣٨هـ ، انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٢٠٦ .

ورسوله، وما هو مدى تأثير هذا الانقطاع على تكوين الأمة الإسلامية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونحو ذلك.

وقوله: «استوى عنده الذهب والمدر» لايكفى لإظهار معنى التصوف، فقد يستوى الذهب وغيره عند كثير من الناس لأسباب مختلفة، منها عدم اشتغال القلب بالدنيا طلبًا فيما عند الله، ومنها أن يكون الشخص سفيهاً لايعرف الفرق بينهما من جهة النفع، ومنها غير ذلك.

٢- وقال أبو الحسن النورى (*) : (التصوف ترك كل حظ للنفس)(١).

وهذا التعريف به اختصار مخل بالمعنى المطلوب، فإن عبارته هذه عامة فى كل مايصلح أن يكون حظًا للنفس من خير أو شر فى الدنيا والآخرة، ولم يحدد المُعَرِفُ نوع الحظوظ التى يتركها الصوفى والتى لايتركها. أما إذا قصد ترك كل الحظوظ على إطلاقها فهذا لايعتبر مبدأً إسلاميًا إطلاقًا ، إذ ليس من الاسلام أن يترفع المرء عن طلب رضى الله ومحبته ونحو هذا، وذلك من حظوظ النفس، إذ فيها غاية السعادة لها.

٣- وقال الجنيد بن محمد (*) : (التصوف هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة).

وقال أيضا : (التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع).

وقال كذلك : (هوتصفية القلب عن مواقف البرية، ومفارقة الأخلاط الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة ،واتباع الرسول فى الشريعة)

---

* هو أحمد بن محمد النورى ، بغدادى المنشأ . توفى عام ٢٩٥هـ ، انظرطبقات الصوفية للسلمى ص١٦٤

١- التعرف للكلاباذى صـ ٩

* هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز، توفى عام ٢٩٧هـ/ انظر طبقات الصوفية للسلمى ١٥٥ .

وأما تعريفات الجنيد هذه فلم تحدد معنى، ولم تصب هدفًا، فضلاً عن غموضها وقصورها.

فالتعريف الأول له عموم وإبهام بل هو تعريف قاصر، فإنه يتحدث عن الغاية الأخيرة للتصوف فيصور التصوف فى غايته الأخيرة.

كما نجد فى التعريف الثانى تصويرا ببعض مظاهره الحسنة التى يريد المُعَرفُ أن ينبه الصوفية إليها، لأن فيهم من لا يتمسك بها .

ولعل المراد بالذكر مع الاجتماع أن لايذكر الله تعالى وفى إدراكه شىء آخر، فهو يذكر الله ناسيًا كل شىء غيره كما يفيده مساجلات بعض الصوفية وعباراتهم.

ويريد بالوجد مع الاستماع أن يكون وجده متمشيًا مع ما جاء فى الشريعة الإسلامية، فلا يخرج فى وجده إلى منكر تنكره الشريعة، كمن يقول «أنا الله» ونحو ذلك.

ويريد بقوله «عمل مع اتباع» أن يكون عمله موافقا للشريعة، وهذه الجملة الأخيرة كالتأكيد للثانية. ومع هذا فلم نخرج من هذا التعريف بصورة متكاملة عن التصوف، يمكن أن تعتبر جدًا جامعًا مانعًا فى تعريف التصوف .

وكذلك فى تعريفه الثالث أسهب إسهابًا مملاً، واهتم بالفواصل ونحو ذلك وأكثر

العبارات الغامضة التى لايخرج القارئ منها بمعنى سهل واضح كما هو المطلوب فى التعريف الجيد(١)

٤- وقال أبو محمد الجريرى (*) : (التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى، والخروج من كل خلق دنى)(٢)

١- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، لأحمد بنانى صـ ٧٥ و ٧٦

* هو أحمد بن محمد بن الحسينى الجريرى ، توفى عام ٣١١هـ، انظر طبقات الصوفية للسلمى ص٢٥٩

٢- اللُمَعْ لأبى نصر السراج صـ ٤٥ .

وقال أيضًا : (التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب)[١]

* وعن هذا نقول بالنسبة للتعريف الأول فيه عدم تمييز للصوفية عن غيرهم، لأن مسألة الدخول فى كل خلق سنى، والخروج من كل خلق دنى، مسألة نطالب بها كل مسلم، وليست خاصة بالصوفية، فكيف تصلح للتعريف بهم دون غيرهم.

وقوله فى التعريف الثانى (مراقبة الأحوال ولزوم الأدب) فهذا فضلا عن أنه لم يبين ما المراد بالأحوال التى يراقبها الشخص ولم يبين نوع الآداب التى يلزمها الصوفى فهو كلام عام لايعطى فكرة واضحة عن التصوف[٢]

٥- وقال محمد بن على القصاب : (التصوف أخلاق كريمة، ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام).[٣]

وهو كسابقه فى العموم أو التعميم لايعطى حدًا، ولا يلتزم بقيد.

٦- وقال معروف الكوفى : (التصوف : الأخذ بالحقائق، واليأس مما فى أيدى الخلائق)[٤]

فهذه التعريفات وأمثالها اشتملت فى صيغتها العامة على الغموض والتعبيرات الاصطلاحية، والتعريف بالغاية أكثر من أى شيء آخر[٥]

٧- ويقول ابن خلدون : (التصوف أصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد فى الخلوة للعبادة) [٦]

ونرى فى هذا التعريف تصويرًا عامًا للتصوف يكاد يتناول كل خطواته مميزًا للتصـوف والمتصـوفين إلى حد كبير عن غيرهم . وإن كـان لم يفرق بينهم وبين الزهاد والذين صدق عليهم نفس هذا الوصف الذى ذكره، وهم أقدم وجودًا من الصوفية.

١- الرسالة للقشيرى صـ ٢١٩. ٢- موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ٧٦

٣- فى ظلال التصوف الإسلامى د. / طه الدسوقى صـ ١٧.

٤- فى ظلال التصوف الإسلامى صـ ١٨ ٥- موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ٧٤

٦ - المقدمة لابن خلدون صـ ٣٣٣.ط دار المصحف بالقاهرة .

كما أن لنا بعض التحفظات الأخرى على التعريف، فقوله «أصله – أى التصوف – العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، هذا يتنافى مع دعوة الإسلام للعمل والسعى للكسب والضرب فى الأرض ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾(١)

وإن الاسلام خفف من عبء العبادة بطول القيام بالليل كاملاً إلى أقل من ذلك بكثير، من أجل السعى على الرزق، والجهاد فى سبيل الله، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ ﴾(٢)

ودعوة الاسلام للعمل المصاحبة للعبادة، فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣)

وقوله فى بقية التعريف، الإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . . الخ .

يتعارض مع قول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

ومع قول الله تعالى ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ (٥)

١– سورة الملك آية ١٥ ٢– سورة المزمل، آية ٢٠ ٣– سورة الجمعة، آية ٩ و ١٠

٤– سورة الأعراف، آية ٣٢ ٥– سورة القصص، آية ٧٧

وأما عن قوله«والانفراد فى الخلوة للعبادة» فهذا أيضًا يتضاد مع معالم الدين وشعائره ؛ فهذا الذى ينفرد فى الخلوة للعبادة، ما حظه من الجمع والجماعات، وما دوره فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وما واجبه فى الجهاد، وما حظه فى معرفة الناس والاختلاط بهم ، وغير ذلك.

* وإن كانت هذه الملاحظات على حال المعرفين وليس على التعريف ذاته.

هذا . . وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية«رحمه الله» إلى المعنى الذى يحاول الصوفية أن يصلوا إليه فقال : (وهم يسيرون بالصوفى إلى معنى الصدّيق)[١]

وحيث إن الصديقين هم أفضل الخلق بعد الأنبياء، كما هو مأخوذ من قوله تعالى:

﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[٢]

فذكر الصديقين بعد النبيين مباشرة.

وشيخ الإسلام «ابن تيمية» لا يسلم للصوفية هذا الذى يريدون اثباته فى كل تعاريفهم للتصوف على إطلاقه، فإن هذه دعوى عريضة يجب التدقيق والتثبيت فيها، فيقول رحمه الله: ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفى، لكن هو فى الحقيقة نوع من الصديقين فهو الصديق الذى اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذى اجتهدوا فيه، فكان الصدّيق من أهل هذا الطريق، كما يقال صديقو العلماء ، وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم [٣]

وخلاصة قول ابن تيمية أن«الصديقية» وهى الدرجة العالية التى تجئ بعد«النبوة» فى الترتيب، هذه الدرجة يطلبها الصوفية كما يطلبها بقية أفراد المجتمع المسلم من علماء أو صناع أو أمراء ونحوهم كل بما اختص به من طريق يطلب به مرضاة الله. ولا

١- مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ٦.
٢- سورة النساء ، آية ٦٩
٣- مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ١٧

يصح أن يعتبر الصوفى هو الصديق مطلقًا، كما لا يصح أن يقتصر الوصول إلى درجة الصديقية على سلوك طريق التصوف وحده، وهذا يعنى أن للتصوف معنى محدداً فى ذهن الشيخ وإن كان لم يشرحه فى عبارة واضحة محددة.

* ونحن مع شيخ الإسلام ابن تيمية فيما ذهب إليه، ونرفض معه تلك التعاريف التى تصل بالصوفى إلى درجة «الصدّيق» أو أنها تمدحه وتثنى عليه وتزكيه، مع أن الله عز وجل يقول : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (١)

ويقول تعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٢) فكيف يجوز للصوفية تزكية أنفسهم ؟ !

ولماذا يرتضى الصوفية هذا الاسم ؟ ينتسبون إليه ويرفضون غيره، ويتركون خير تسمية لهذا الدين﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (٣)

واختيار خليل الرحمن «إبراهيم عليه السلام» ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾ (٤)

إن الانسان العاقل لايرضى بغير هذا الاسم بديلا، فلا ينتسب إلا إليه، ولا يندرج إلا تحته، وكل راية دونه.

كما نقول : لماذا التعصب لاسم التصوف مع أنه لايعدو إلا أن يكون واحدا من اثنين. إما إسلام، أو غير إسلام، فإن كان إسلاما فلماذا نسميه بالتصوف ؟

وإن كان غير الإسلام فلماذا ينسب إلى الإسلام باسم التصوف الإسلامى ؟

وإن كانت الحقيقة تقول : إن الإسلام شىء ، والتصوف شىء آخر، شأنه فى ذلك شأن الإسلام يختلف عن شأن المسلمين، وهذا ما نريد أن نوضحه فى هذا البحث.

١- سورة النجم ، آية ٣٢
٢- سورة النساء، آية ٤٩
٣- سورة فصلت ، آية ٣٣
٤- سورة الحج ، آية ٧٨

كما قال الشيخ أبو بكر الجزائرى : « إن التصوف إما أن يكون هو الإسلام أو يكون غيره ، فإن كان غيره فلا حاجة لنا به،وإن كان هو الإسلام فحسبنا الإسلام، فإنه الذى تعبدنا الله به».

ب - متى ظهر التصوف ؟

* إن الذين كتبوا عن هذا الموضوع اختلفوا فى العصر الذى ظهر فيه هذا الاسم، هل كان فى الجاهلية قبل الإسلام، ثم تجدد ظهوره فى عصر الإسلام ؟ أو أن هذا الاسم لم يظهر فى عهد الإسلام ؟

ويمكن توضيح ذلك فى استعراض موقف فريقين من العلماء

الفريق الأول :

إن الفريق الأول وعلى رأسهم« أبو الفرج بن الجوزى» يؤيد الرواية القائلة بأن رجلاً فى الجاهلية كان يدُعَى« الغوث بن مر» نذرت أمه - حيث لم يكن قد عاش لها ولد - أن تعلق برأسه صوفة، أو تجعله ربيط الكعبة، ففعلت، فقيل له صوفة، ولولده من بعده [١]

وفى رواية أخرى : أن أم هذا الرجل كانت لاتلد الذكور، فقالت : لله على إن ولدت غلاما لأعبدنه البيت، فلما ولدته ربطته عند البيت فأصابه الحر، فمرت عليه وقد سقط واسترخى، فقالت : (ما صار ابنى إلا صوفة) فسمى صوفة. [٢]

ويعتبر الامام ابن الجوزى أن فى هاتين الروايتين دليلاً كافيًا على أن أصل مولد الكلمة كان قبل الاسلام عند عرب الجاهلية، وأن من تعلق بالزهد من المسلمين فيما بعد وانقطع للعبادة، فقد انتسب إلى صوفة هذا.

* ويمكن أن نناقش الإمام ابن الجوزى فى دعواه هذه ونردها من عدة وجوه : -

الوجه الأول :

١- تلبيس إبليس لابن الجوزى صـ ١٨١

٢- نفس المصدر

أن هذه القبيلة من العرب غير مشهورة ولا معروفة عند أكثر النساك، كما قرر ذلك الإمام ابن تيمية وقد نوهنا عنه، بل إن غالب من تكلم باسم التصوف لايرضى أن يكون مضافًا إلى قبيلة فى الجاهلية لاوجود لها فى الإسلام، كما قرر ذلك الشيخ، وهو محق فيه.

الوجه الثاني :

أن كلا الروايتين إنما تثبتان – إن صحتا – أن امرأة علقت فى رقبة طفلها علامة وهى قطعة من الصوف، أو شبهت ابنها بالصوف لما رأته منهوك القوى غير متماسك، ولذلك سمى «صوفة» ولا دخل لهذا فى ظهور فئة فى الاسلام تسمى «بالصوفية» إذ لم تدل على وجود كلمة «صوفية» ولا كلمة «صوفى» بهذه الصيغة ولا بهذا المعنى قبل الإسلام.

الوجه الثالث :

لايعقل أن يكون المسلمون قد استمدوا مبادىء تصوفهم من عرب الجاهلية الذين كانوا يتخبطون فى ظلمات الجهل، ولا أن يكونوا قد اختاروا شعار الجاهلية أو أسماء الجاهلية، وفضلوها على ماسماهم الله به من طيب الأسماء.

الفريق الثاني :

أن هذا الاسم حدث فى عصر الإسلام، ولكن أفراد هذا الفريق اختلفوا فى فترة ظهوره فى الإسلام على قولين :

القول الأول : يزعم أصحاب هذا القول أن هذا الاسم وجد فى القرن الأول من هجرة المصطفى ﷺ وعلى رأس هؤلاء «أبو نصر السراج» صاحب كتاب «اللمع» فى التصوف، وقد حاول أن يستدل على ذلك بمشهدين أوردهما فى كتابه المذكور

المشهد الأول : أن الحسن البصرى « رحمه الله» رأى صوفيًا فى الطواف فعرض عليه شيئًا من المال فلم يأخذه [1].

١ – اللمع للسراج صـ ٤٢

وكأن « السراج» يريد أن يقول إن ورود هذه الرواية عن « الحسن البصرى» رحمه الله، وهو من مواليد عام ٢٠ للهجرة، يدل على وجود التصوف فى عهد مبكر فى الإسلام.

ويرد على هذه الرواية بأن«الحسن البصرى» رحمه الله – وإن كان قد ولد عام٢٠ إلا أنه عاش حتى عام١١٠ هجرية [١] أى أنه عاش عشرة أعوام فى بداية القرن الثانى الهجرى، وليس فى أولها ولا مرجح لأحد الاحتمالين على الآخر.

المشهد الثانى : أن«سفيان الثورى» قال : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء»[٢].

ولم يبين الإمام « أبو نصر السراج» وجه الدلالة فى هذه الرواية على أن التصوف وجد فى عهد مبكر فى الإسلام، بل هى دليل على خلاف مراده، فإن « سفيان الثورى رحمه الله» ولد سنة (٩٧) هجرية[٣]

وهذا يدل على أن التقاءه بأبى هاشم الصوفى لايمكن أن يكون فى القرن الأول، إطلاقًا . علمًا بأن أبا هاشم الصوفى توفى عام (١٥٠) هجرية [٤] فلا بد أن لقاءهما كان فى أثناء المائة الثانية للهجرة إن صحت هذه الرواية أو تلك بذلك.

القول الثاني :

قالوا : بأن اسم التصوف ظهر فى عصر الإسلام فى بداية القرن الثانى الهجرى، وقد ذكر هذا الإمام شيخ الإسلام«ابن تيمية» رحمه الله، وكثير من العلماء، فقال ابن تيمية : «فى أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك – أى عن الزهد بلفظ«الصوفى» لأن لبس الصوف كثر فى الزهاد»[٥]

١– جمهرة الأولياء جـ ٢ صـ ٨١ – ٨٥ ط الحلبى (ترجمة الحسن البصرى).

٢– اللمع صـ ٤٢.

٣ و٤– جمهرة الأولياء جـ ٢ صـ ١١٥– قال : وتوفى أبو سفيان الثورى سنة١٦١هـ بالبصرة.

٥– مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١١ صـ ٢٩.

ولقد عبر كُتَّاب التراجم للصوفية عن تبنيهم لهذا الرأى تعبيراً عمليًا، فقد اعتبروا الطبقة الأولى من طبقات الصوفية هى طبقة«الفضيل بن عياض»، و«ذى النون المصرى» و « إبراهيم بن أدهم» و«شقيق البلخى» ونحو هؤلاء ممن كانت وفاتهم فى أثناء القرن الثانى وما بعده[١]

ومما ظهر يتبين لنا أن أكثر الآراء قوة وأعظمها أنصاراً هو القول الثانى للفريق الثانى، الذين قالوا إن ظهور كلمة«تصوف» فى أثناء المائة الثانية للهجرة.

* أول من تسمى بالصوفي (عند المسلمين) :

عرفنا أن ظهور كلمة (صوفى) كان فى أثناء المائة الثانية للهجرة، ولكن لم نعرف على من ظهرت هذه الكلمة فى البداية.

لقد دار البحث هنا حول ثلاثة أشخاص كلهم عاش فى نفس هذه الفترة الزمنية وهم :«جابر بن حيان، وأبو هاشم الصوفى، وعبدك الصوفى »

١ - جابر بن حيان :

هو أبو موسى جابر بن حيان الكوفى، تلميذ الإمام جعفر الصادق، وقيل إنه مولى له وتتلمذ على يديه، فاشتهر بمعرفة علم الكمياء والطلسمات، وروى أن له كتاب فى البحث فى صنعة الطلسمات. وقد ادعى الشيعة أن جابرا هذا كان شيعيًا لصلته بالإمام جعفر وتتلمذه عليه»[٢]

والغريب فى الأمر أن جابراً هذا لم يرد عنه أنه كان صاحب مجاهدة أو خوف ولانطق بأقوال زهدية ولكن المروى عنه أنه كان مشتغلاً بالكمياء، ولم يكن زاهداً بالمعنى الذى تعورف عليه بمافيه من ترك الدنيا والإعراض عن المادة وعدم الانشغال بها، فقد كان خلافًا لما اشتهر عنه من اشتغال بالمادة بل ونبوغه فى هذا المجال أكثر من أى شيء آخر : ولذلك فتسميته بذلك بعيد ومرفوض.

١- طبقات الصوفية للسلمى وطبقات الأولياء لابن الملقن.

٢- الصلة بين التصوف والتشيع ، كامل الشيبى جـ٢ ص٢٨٨ وص٢٨٦.



٢- أبو هاشم الصوفى :

هو أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفى الصوفى، وكانت وفاته عام ١٥٠ هـ.

والحديث عنه لايقل فى اضطرابه وتناقضه عما ذكر فى شأن«جابر بن حيان» ، ولنتعرض إلى النقاط التى حصل فيها الاضطراب، انهم اختلفوا فى عقيدته، فنسبوه إلى التشيع، وإلى القول بالحلول والاتحاد ، وقالوا عنه إنه كان أمويًا وجبريًا فى الظاهر، وباطنيًا ودهريًا فى الباطن، وأنه طعن كثيرًا فى الأئمة المعصومين، وقالوا إن نسبته للتصوف بسبب أنه بنى خانقاه للصوفية، أو لأنه كان يلبس لباسًا طويلاً من الصوف كفعل الرهبان.[١] ورغم التناقض فى هذه الأقوال إلا أن أبا هاشم أجدر من«جابر بن حيان» بهذا الاسم وأقرب منه إلى التصوف، وأولى بأن يكون هو أول من سمى«صوفيـًا» ولقد ترجم له أبو نعيم فى الحلية[٢]

٣- عبدك الصوفي :

اسمه عبد الكريم، وأصله من الكوفة، وتوفى ببغداد، حوالى عام ٢١٠ هـ، وقيل إنه كان على رأس فرقة صوفية شيعية نشأت بالكوفة، ولكن وجد من قال إنه كان أول من سمى بـ« صوفى » ببغداد وليس بالكوفة [٣] وورد عنه ما يتهم به فى دينه وأنه كان من الزنادقة وغير ذلك. فكل ماورد فى سيرة«عبدك» هذا لايدل على أنه كان رجلاً مرموقًا ومشهورًا بالصلاح ولا بالتقوى أو الزهد المباح، وإنما كان رجلاً متطرفًا يرأس فرقة من المتطرفين الذين لم تقم لهم شوكة ولم يظهر لهم شأن كما هو الحال بالنسبة للصوفية، لهذا الذى جاء فى سيرته يبعده عن أن يكون صوفيـًا فضلاً عن أن يكون هو أول صوفى.

١- التصوف فى مدرسة بغداد ، د / شرف صـ ٨٠ بتصرف

٢- حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ١٠ ص ٢٥٥

٣- الصلة بين التصوف والتشيع للشيبى جـ ٢ صـ ٢٩٢.

ومما سبق اتضح لنا أن (جابر بن حيان) لم يرد ذكره فى كتب التراجم الصوفية على أنه منهم، وأنه لم يرد عنه أنه اشتغل بما يطلق عليه (تصوف) فى الوقت الحاضر، وإنما كان جل اهتمامه بالمادة وخاصة الكيمياء.

وعرفنا أخيراً أن (عبدك) لم تصل سيرته التى شاعت لأن تؤهله لأن يكون هو أول من سمى (صوفياً).

ولم يبق لدينا الا (أبو هاشم) فقد ترجم له بعض الصوفية، وذكروا اتصاله بسفيان الثورى ومدحه على ماسبق استعراضه من الروايات.

ويؤيد ماذهبنا إليه من أن (أبا هاشم) أحق بأن يكون أول من سمى (صوفياً) من المذكورين، ويؤيد ذلك ما قرره (د. كامل الشيبى) من أن الشيعة يسمون (أبا هاشم) «مخترع الصوفية»[1] وهذا بلا شك يدل على أن عندهم ما يستندون عليه فى إطلاق هذا القول على أبى هاشم، وإن كان لم يبلغنا ذلك.

وهذا الذى رجحناه مبنى على افتراض أن اسم«صوفى» ظهر على شخص واحد فى البداية، ثم انتشر وشمل عدداً من الناس ثم تعددت الجماعات التى أطلق عليها هذا الاسم.

ولكن الحق الذى نميل إليه هو أن كلمة«صوفى» و«صوفية» لم تظهر على شخص واحد فى البداية – على ما قدمنا – ولكن ظهرت حين كثر لبس الصوف فى جماعة من الزهاد، فقيل إنهم جماعة تصوفوا – أى لبسوا الصوف – فسموا (صوفية) وقيل لواحدهم (صوفى) [2]

١–الصلة بين التصوف والتشيع ج٢ص٢٩٢.

٢–راجع / موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص٨٥-٩٠ بتصرف.

* أين ظهر التصوف ؟

اختلف الباحثون فى أن التصوف أول ما ظهر، هل ظهر بالكوفة أم بالبصرة ؟

١ - الكوفة :

إن بعض الباحثين ومن بينهم د / كامل الشيبى - يؤكدون على أن التصوف أول ما ظهر فى الكوفة[١] وسبب ذلك فى نظرهم أن الكوفيين قد تأثروا بموجة هذا الزهد الذى اتخذ معارضته للأمويين من لباسه فخالفوهم إلى لبس ملابس الزهاد والرهبان [٢]

٢ - البصرة :

ينص شيخ الاسلام« ابن تيمية » [٣] على أن أول ما ظهر التصوف فى البصرة، فقد كان بالبصرة كثير من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ما لم يكن فى سائر الأمصار»[٤].

ولقد أورد الشيخ (ابن تيمية) عدة مشاهد لتأييد رأيه هذا ،منها ما يلى : -

١ - قصة زرارة بن أبي أوفى (*) - قاضى البصرة -« قرأ فى الصلاة قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ [٥] فخر ميتا» [٦]

٢- قصة أبى جهير الأعمى - قرأ عليه صالح المري(*) شيئا من القرآن فمات»[٧]

١،٢- الصلة بين التصوف والتشيع ج٢ص٨٤

٣- رسالة الصوفية والفقراء ص٧ ٤- مجموع الفتاوى جـ١١ صـ٦.

* - هو زرارة بن أوفى الحرشى، قال عنه المناوى : (صالح عبادته لاتنكر : صلى يوما فى المسجد فقرأ ﴿فإذا نقر فى الناقور﴾ فخر ميتا، مات ١٩٣ هـ الكواكب الدرية جـ ١ صـ١١٢.

٥- سورة المدثر ،آية ٨. ٦- مجموع الفتاوى جـ١١ صـ٦.

* هو صالح بن بشر المرى البصرى، مات سنة ١٧٢هـ، الكواكب الدرية للمناوى صـ١٢٤.

٧- مجموع الفتاوى جـ١١ صـ٧.

٣- إن أول من بنى دويرة للصوفية هم بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد(*) وهو بصرى وكل هذه الشواهد التى ذكرها الشيخ تدل على أن جماعة البصرة كانت سباقة إلى الزهد والتصوف قبل غيرها.

تعقيب :

ونحن إذ نوازن بين أدلة الرأيين نجد أن ما ساقه الفريق الأول - كما ذكره الشيبى- لا يقوم سنداً على دعواهم، لأن ما ذكره أصحاب الرأى الأول إنما يفيد أن فى الكوفة تصوفًا، لا أنه أول تصوف ظهر. وهذا ظاهر من كلامهم لا يحتاج إلى بحث وتدقيق لأن كل ما قالوه فى التعليل ليس إلا أن أهل الكوفة كانوا من أنصار الإمام على «رضى الله عنه» فلما لحقتهم الهزيمة أمام الأمويين تركوا المظاهر من القتال والدعوة إلى خلافة«على» وذريته، ولجأوا إلى الزهد وطريقة التصوف. فهل مجرد هذا يدل على أنهم أول المتصوفة، لا بل إنما يدل فقط على أنهم تصوفوا.

وأما ما ذكره ابن تيمية تعليلاً للرأى الثانى فيرد عليه أن ما ذكره من الشواهد الثلاثة لا يفيد أن التصوف ظهر أول ما ظهر فى البصرة. لأن تواريخ وفاتهم جميعًا فى القرن الثانى الهجرى. ولكن هذا هو المشهور. كما نقول إن هذا وإن اختلف عليه، فهو من باب المعرفة فقط ولكنه لم ينبنِ عليه حكم.(١)

جـ - أقسام المتصوفة «عند ابن تيمية»

* كان التصوف فى العصر الذى عاش فيه شيخ الاسلام « ابن تيمية » قد انتشر فى أنحاء العالم الاسلامى وعرف لدى جماهير المسلمين. وكان الناس قد اعتقدوا أن الصوفية هم أفاضل الناس وأخيارهم، ولكن هذا لم يحدث دفعة واحدة، فقد دخل الصوفية فى خلاف شديد مع الفقهاء فى أول ظهورهم حتى رمى كل منهم الطرف الآخر بالجهل والضلال.

---

* هو عبد الواحد بن زيد البصرى توفى عام ١٧٧ هـ . الكواكب الدرية جـ صـ ١٣٥

١- موقف الإمام ابن تيمية فى التصوف والصوفية صـ٩١-٩٣ بتصرف.

وكانت وجهة الصوفية أن الفقهاء هم علماء الظاهر، وأنهم بعكوفهم على دراسة ظاهر الأحكام الشرعية قد ابتعدوا عن إصلاح نفوسهم، وتطهيرها من أمراضها الداخلية ولم يعلموا بما يسمونه (علم الباطن) الذى هو روح التدين فى نظرهم، ويدعون أنه أشرف من علم الأحكام الشرعية الظاهرة.

وكانت وجهة نظر الفقهاء هى أن الصوفية قوم ضُلاَّل، لأنهم لم يعترفوا بفضل الأحكام الشرعية الظاهرة التى بينها الله لعباده وطالبهم بتنفيذها معتمدين على ما يدعونه من أمور باطنة يصعب التحكم فيها والحكم على صحتها من فسادها.

واستمر الحال كذلك حتى دخل عدد من كبار الفقهاء من مختلف المذاهب فى جملة الصوفية، فجمعوا بين علم الظاهر وعلم الباطن، وحاولوا إقناع الناس بأن التصوف لايتعارض مع التفقه. فمن هؤلاء « الجنيدى محمد البغدادى » ، الذى كان يدرس الفقه على مذهب الإمام أبى ثور، وهو من كبار الصوفية المشهورين.

ومنهم الشيخ «عبد القادر الجيلانى» الذى درس علم المذهب الحنبلى، ومنهم الإمام «محمد الغزالى» الذى درس الفقه على مذهب الإمام الشافعى.

فكان لهؤلاء وأمثالهم فضل كبير فى إعادة الثقة فى الصوفية لدى عامة الناس وخاصتهم، مع أن فئات من الصوفية ظلت على مبادئها ومعتقداتها حتى العصر الذى عاش فيه الشيخ «ابن تيمية» فاضطر لذلك أن يصنف الصوفية إلى أصناف مختلفة، لكى يسهل التمييز بين كل صنف منهم والصنف الآخر، خاصة وأن الناس حين وثقت فى التصوف والصوفية واعتقدت أنهم أهل صلاح وتقوى أغدقت عليهم بالأموال تقربًا إلى الله وأوقفت عليهم الأوقاف، فأغرى هذا الوضع الجديد بعض الناس ممن لا علاقة لهم بالتصوف ولا معرفة لهم به أن يتظاهروا بالتصوف طمعًا فيما يصل إلى أيديهم من المال، بالإضافة إلى ما يحصل لهم من منزلة مرموقة ومكانة عالية فى نفوس الناس الذين لا يعرفون حقيقة أمرهم.

لم يخف مثل هؤلاء على شيخ الإسلام «ابن تيمية» فأشار إليهم وإلى بقية الأصناف التى كانت فى عهده تمثل جمهور الصوفية. فقسمهم إلى ثلاثة أقسام :

١- صوفية الحقائق ٢- صوفية الأرزاق ٣- صوفية الرسم[١]

* **صوفية الحقائق** : لقد شرح الشيخ ابن تيمية معنى قوله «صوفية الحقائق» فقال: إنهم قوم مجتهدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله. ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذى هو من أصحاب اليمين، وفى كل من الصنفين - أى السابق والمقتصد - من قد يجتهد فيخطئ، ومنهم - أى من صوفية الحقائق أيضًا - من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ثم يبين الشيخ أن من الناس من انتسب إلى هذا الصنف من الصوفية بالذات وهو عند التحقيق ليس منهم[٢] وهذا الصنف على أقسام أيضًا، سنعرفها بعد قليل، إن شاء الله تعالى.

* **صوفية الأرزاق** : وشرح الشيخ «ابن تيمية» معنى صوفية الأرزاق الذى سمى به الصنف الثانى من الصوفية فقال : (هم الذين وقفت عليهم الوقوف، أى المستفيدين من دخل الأوقاف الموقفة على الصوفية فحسب، فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز[٣] . ثم بين الشيخ «ابن تيمية» أن هذا الصنف من الصوفية إذا كان لابد من وجوده واستفادته من ريع الأوقاف التى وقفت عليهم، فإن لذلك ثلاثة شروط : -

١- العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم.
٢- التأدب بالآداب الشرعية فى غالب الأوقات.
٣- أن لا يكون أحدهم متمسكًا بفضول الدنيا، أى حتى يعتبر من الفقراء

١- راجع / موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ٩٧ و ٩٨
٢- مجموع الفتاوى حـ ١١ صـ ١٨
٣- مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ١٩

المستحقين.[١]

* **صوفية الرسم** : لقد عرف الشيخ هذا الصنف الثالث من الصوفية بأنهم هم المقتصرون على النسبة فاهتمامهم منحصر فى اللباس والآداب الوضيعة ونحو ذلك.

وقال : « إن هؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم، وزى أهل الجهاد، ونوع ما فى أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل أمره أنه منهم وهو ليس منهم »[٢]

* ويحق لنا أن نقول : «نعم يا شيخ الإسلام، فما أحسن كلامك وأعدله، وأكثر تمييزه للحق حتى نصع. وللباطل حتى افتضح، فهذا هو الحق الذى لا يختلف عليه، والوسطية البعيدة عن الإفراط والتفريط»[٣].

* ومن هذا يتبين لنا من كلام شيخ الإسلام « ابن تيمية » فى هذه الأصناف الثلاثة المذكورة، أن الشيخ قد اعتبر الصنف الأول هم الصوفية الذين بحثوا فى موضوعات التصوف وتكلموا فيها ولهم حقائق يحاولون توضيحها وشرحها للناس.

* وحيث إن الصنفين الآخرين مجرد أتباع وأذناب للصنف الأول – وإن كانوا هم الغالبية العظمى إن لم يكونوا هم الصوفية كلها فى زماننا إلا من رحم ربى. فلا حاجة لكثرة التحدث عنهم خاصة وأن خطرهم على المجتمع يزول بزيادة نسبة الثقافة والفهم فيه، وتحسن أحوال المجتمع المادية غالباً[٤]، أو قل ننظر إليهم بعد ذلك نظرة إنصاف، ونقف معهم وقفة تصحيح للمفاهيم، وتوضيح للحقائق، فمنهم الذين يشغلوننا فى زماننا، وتكثر بدعهم وخرافاتهم، فما أحوجنا للوقوف معهم !.

* وأما الصنف الأول (صوفية الحقائق) فإنه يحتاج إلى زيادة توضيح وبيان، فقد تحدث عنه الشيخ فى موضع آخر بإسهاب، لأنهم هم المقصودون بالصوفية. كما

١– مجموع الفتاوى جـ ١١صـ ٢١.

٢– مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ٢١ ٣– الصوفية والفقراء صـ ٢ بتصرف

٤– موقفالإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ٩٩ بتصرف

أسلفنا . ولقد بين شيخ الإسلام أننا يمكن أن نقسم الصنف الأول المذكور إلى ثلاثة أصناف أيضا هى كما يلى : —

أ — صنف لهم عبادة وزهد فيما هم فيه، وهم يحسبون أنهم على حق، وهم يقرون ظاهرًا وباطنًا بأن محمدًا رسول الله، وأنه أفضل الخلق ولكنهم لا يفهمون حقيقة قول مشائخهم ممن دوّن علم التصوف، وميزه عن غيره من العلوم (١)

ب — وصنف قد تكلموا فى خصائص الإيمان والدين ويوجد فيما يأثرونه عمن قبلهم وفيما يذكرونه معتقدين له شىء كثير وأمر عظيم من الهدى ودين الحق الذى بعث الله به رسوله، ويوجد أحيانًا عندهم من جنس الروايات الباطلة والضعيفة، ومن جنس الآراء والأذواق الفاسدة والمحتملة شىء كثير.(٢)

* فهذا الصنف هم المعول عليهم فى إظهار التصوف على الوجه الموافق للسنة الصحيحة والتميز بعمق الفهم والشعور وبصدق المشاعر والأذواق، وإن كان لا يستبعد أن يحصل لأحدهم من الأذواق الفاسدة أو المشاعر غير الصادقة ما يدل على عدم عصمتهم كغيرهم من البشر، فكل بنى آدم خطاء مهما بلغ من العلم والمعرفة والولاية، إلا الأنبياء.

وهؤلاء فيما أحسب هم الذين أعطوا للتصوف الصورة الحسنة لدى الجمهور، من أجلهم فقط كان موقف شيخ الإسلام « ابن تيمية» المهاود للتصوف، والمعترف بأن فى الصوفية من يستحق الاحترام والتكريم والإشادة بما وصلوا إليه فى عمق تفكيرهم من حِكَم عالية، ومواعظ مؤثرة، ومعانى سامية، ونكت لطيفة لم يتيسر لغيرهم التنبيه عليها والعناية بها كما كان ذلك منهم.

* ومع هذا رأينا شيخ الإسلام « ابن تيمية» لم يأخذه الإعجاب بهؤلاء إلى حد تبرير كل ما قالوه وتصحيح كل ما نقلوه، بل نبه بشدة إلى أنه يوجد عندهم أيضا من جنس الروايات الباطلة والضعيفة، والآراء والأذواق الفاسدة والمحتملة شىء كثير.(٣)

١— مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية صـ ٢١

٢— مجموعة الرسائل الكبرى صـ ١٤٢، ومجموعة الفتاوى جـ ١١ صـ ٤٣.

٣— موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٠٠

جـ- وصنف يقولون ما يقوله ابن عربى ونحوه[١]

وهؤلاء هم المتفلسفة الذين انتسبوا إلى التصوف، وهم فى الحقيقة إنما يصوغون مبادئ ومذاهب فلسفية غريبة عن الإسلام وسبق وجودها فى أديان ومذاهب قديمة يونانية وبرهمية وغير ذلك، فصاغوا كل ذلك بعبارات صوفية، فخرجوا بالتصوف إلى مزالق الكفر والإلحاد[٢].

* وإن خفى هذا الصنف على كثير من العلماء والكُتَّاب فاعتبروهم من الصوفية المحققين، أو ممن قال بنظريات جديدة فى التصوف لها - فى زعمهم - أساس فى الشريعة الإسلامية، فإنهم لم يخفوا على شيخ الإسلام « ابن تيمية » ولم يشتبه أمرهم عليه كغيره، بل كان له الفضل الأكبر - بعد فضل الله عز وجل - فى إظهار حقيقة أقوالهم وإرجاع نظرياتهم إلى أصولها الغريبة عن الإسلام - وسيأتى تبيين ذلك إن شاء الله - وبالجملة فإن موقف شيخ الإسلام « ابن تيمية » كما تبين لنا من خلال الدراسة السابقة هو موقف العالم المحقق والباحث الهمام الذى يتعب نفسه فى تقصى الحقائق لئلا يقع فى المزالق التى وقع فيها كثير غيره فهاجموا التصوف بلا علم ولا تحقيق، أو دافعوا عنه بلا وعى ولا إنصاف، ففقد كلامهم القيمة العلمية التى يطلبها الباحث عن الحق فى مثل هذه الأمور، وما أسهل أن يكيل المرء الاتهامات بلا مبرر أو أن يكيل المدح بلا مناسبة، ولكن صدق الشاعر الذى قال :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم . . وتأتى على قدر الكرام المكارم

وسيأتى فى بقية فصول البحث - إن شاء الله - تصديق ما نوهنا عنه من تحرى شيخ الإسلام وتدقيقه الرائع ووضعه النقاط على الحروف، وعدم تحامله على أحد إلا بعد ثبوت الحجة عليه[٣]

ويقول ابن الجوزى فى تلبيس إبليس : «والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد

١- مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية صـ ١٤٢

٢- سيأتى نقاش مبادئهم فى فصول لاحقة إن شاء الله.

٣- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٠١

الكلى ثم ترخص المتنسبون إليها بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرونْ عندهم من الراحة واللعب»[١]

* ويقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله فى بيان سبب ظهور التصوف، والينابيع التى استقى منها :

نشأ التصوف من ينبوعين مختلفين تلاقيا :

١- الينبوع الأول : هو انصراف بعض العُبَّاد المسلمين إلى الزهد فى الدنيا والانقطاع للعبادة، وقد ابتدأ ذلك فى عصر النبى ﷺ فكان من الصحابة من اعتزم أن يقوم الليل مصليًا متهجدًا ولا ينام، ومنهم من يصوم ولا يفطر، ومنهم من ينقطع عن النساء، فلما بلغ أمرهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم. قال « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى »[٢]

ولقد نهى القرآن عن بدعة الرهبنة فقال : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [٣].

ولكن بعد أن انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ودخل فى الإسلام ناس كثيرون من أهل الديانات السابقة - كثر الزهاد الذين غالوا فى الزهادة فى الدنيا ونعيمها . . وفى وسط تلك النفوس وجد التصوف مكانه إذ وجد أرضًا خصبة.

٢- والمنزع الثانى الذى وجه النفوس هو ما سرى إلى المسلمين من فكرتين إحداهما فلسفية، والأخرى من الديانات القديمة.

أما الفكرة الأولى : فهى فكرة الإشراقيين من الفلاسفة، وهم الذين يرون أن المعرفة تقذف فى النفس بالرياضة الروحية والتهذيب النفسى.

١- تلبيس ابليس صـ ١٦١ .

٢- متفق عليه.

٣- سورة الحديد «آية ٢٧»

والفكرة الثانية : فكرة الحلول الإلهى فى النفوس الإنسانية أو حلول اللاهوت فى الناسوت(١)

وتلك الفكرة قد ابتدأت تدخل فى الطوائف التى كانت تنتمى كذبًا إلى الإسلام فى الصدر الأول، عندما اختلط المسلمون بالنصارى، وقد ظهرت تلك الفكرة فى السبئية وبعض الكيسانية ثم القرامطة ثم فى بعض الباطنية، ثم ظهرت فى لونها الأخير فى بعض الصوفية.

« وهناك معين آخر أخذت منه فيما يظهر النزعات الصوفية وهو كون النصوص والأحكام – أى نصوص القرآن والسنة – لها ظاهر وباطن – ويظهر أن المتصوفة قد استفادوا واستعاروا ذلك التفكير من الباطنية » (٢) .

* وهكذا اختلطت تلك المنازع كلها من مغالاة فى الزهد إلى فتح الباب لأفكار الحلول ثم وحدة الوجود، ثم كان من اختلاطها ذلك التصوف الذى ظهر فى الإسلام، واشتد فى القرن الرابع والخامس، ثم بلغ أقصى مداه فيما بعد ذلك، بعيداً كل البعد عن هدى القرآن الكريم والسنة المطهرة حتى بلغ أن المتصوفة يسمون من يتبع القرآن والسنة أهل الشريعة، وأهل الظاهر، ويسمون أنفسهم أهل الحقيقة وأهل الباطن(٣)

١– فى الأصل «الناسوت فى اللاهوت» وقد أثبت الصواب.

٢– كتاب«ابن تيمية» لأبى زهرة صـ ١٩٧ – ١٩٨.

٣– حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة، د/ محمد بن ربيع هادى المدخلى صـ ١٥، ١٦.

* فرق الصوفية

وبعد - فقد كثرت الصوفية، وتشعبت فى البلاد، ووجدت من الكسالى والمرتزقة أتباعا كثيرين، كانوا عبئًا على الإسلام وأهله، ولقيت من أعداء الإسلام تشجيعًا معنويًا وماديًا ، كما طعمتها بالمدسوسين على الإسلام، ثم طوعتها لما تريد، وعملت على الفرقة فيما بينها، فصارت فرقًا شتى، وطرقًا عديدة، بعد مدة زمنية قصيرة صارت تفوق العد والحصر، فكل شيخ له طريقة، وكل مريد له فرع جديد، وبدأت تكثر الطرق بطريقة عجيبة، كما كثرت اللافتات بشكل يسر أعداء الاسلام، وخاصة فى زماننا، واذا أردت أن تعرف صدق ذلك فعليك أن تذهب إلى مولد أحد الصالحين فى مصر، وحاول - إن كنت ذكيًا بارعًا - أن تحصى عدد لافتات الطرق وأسماء المشايخ وأصحابها.

وهم مع كثرتهم هذه فهم غثاء كغثاء السيل، لايحركون ساكنًا، ولا يقيمون حراكًا، اللهم الا الهرج والمرج، والصخب والضجيج، والبدع والأهواء، والقاذورات فى الموالد، فهم أسرع إلى البدع من الفراش إلى النار، فما أكثرهم فى الموالد وعند أضرحة الصالحين، « لقد اهتمت حكومة انجلترا فى سبيل مكافحة الشيوعية بالحالة الدينية فى مصر، فكان مما طمأنها على إيمان المصريين أن ثلاثة ملايين مسلم زاروا ضريح « أحمد البدوى » بطنطا هذا العام »[1] .

يقول الشيخ « محمد الغزالى » فى كتابه «عقيدة المسلم »- بعد ذكر هذا الخبر: والذين زاروا الضريح ليسوا مجهولين لدى، فطالما أوفدت رسميا لوعظهم، فكنت أشهد من أعمالهم ما يستدعى الجلد بالسياط، لا ما يستدعى الزجر بالكلام، وكثرتهم الساحقة لا تعرف عن فضائل الإسلام وأنظمته وآدابه شيئًا . ولو دعوا لواجب دينى صحيح لفروا نافرين، وإن كانوا أسرع إلى الخرافة من الفراش إلى النار، وحسبك من معرفة حالهم، أنهم جاءوا الضريح المذكور للوفاء بالنذور والابتهال بالدعاء[2] وهذه

١- كان ذلك فى بداية السبعينات

٢- عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ٦٩

الطرق الصوفية، استطاعت أن تقسم الأمة المسلمة بين مشائخ ضلال جهال، وحرمت المسلمين نعمة الوحدة الإيمانية والأخوة الإسلامية، إذ المعروف أن العداوة متأصلة بين طوائف الطرق إلى حد كبير، وفى هذا تفريق أمة الإسلام وتمزيق وحدتها، إذ ما قامت الطرق إلا على أساس تفرقة المسلمين وتجزئتهم وتفكيك عرى وحدتهم الروحية والسياسية ليسهل قهرهم والتسلط عليهم، كما حصل لهم فى عهود الاستعمار البائدة، وها هى ذى آثار ذلك باقية إلى اليوم، فأمة الإسلام أمم، ودولتهم دول، ولا حول ولا قوة إلا بالله(١)

١- إلى التصوف يا عباد الله «أبو بكر الجزائرى» ص ١١



ويشتمل على :

أولاً :

الجانب الإلهى ـ عند الصوفية

* وحدة الوجود ، والاتحاد والحلول .
* ما يترتب على وحدة الوجود .
* آثار عقيدة « الوحدة والحلول » عند المتصوفة والمحدثين.
* الفارق بين وحدة الوجود ووحدة المشاهدة .
* بطلان نظرية « وحدة الوجود » .



الباب الأول
«عقيـدة المتصـوفة»

* الجانب الإلهى – عند الصوفية

* « فلاسفة الصوفية » يؤمنون بوحدة الوجود، والاتحاد والحلول.

– معنى «وحدة الوجود» : القول بأن الموجود واحد فى الحقيقة، وكل ما نراه ليس الا تعينات أو مظاهر للذات الإلهيه [1] والرب هو الوجود الحق، وهو العدم الصرف، وهو الخالق وهو المخلوق، هو عين كل كائن، وصفاته عين صفات كل موجود وكل معدوم، هو المؤمن وهو الكافر، هو الموحد الخالص التوحيد، وهو المشرك الأصم الوثنية، هو الجماد الغليظ، وهو الحيوان ذو المشاعر المرهفة، والحساسية المتوقدة، هو الملاك الساجد تحت العرش، وهو الشيطان الذى يصرخ فى سقر، هو القديس، وهو العربيد، هو الراهبة وهو الغانية، هو النور وهو الظلام، تلك بعض خصائصه وصفاته[2] وزعيم هذه الطائفة « ابن عربى الحاتمى الطائى »المدفون بدمشق والمتوفى سنة ٦٣٨ هـ.

ويقول فى ذلك فى كتابه « الفتوحات المكية »[3]

العبد رب والرب عبد .·. يا ليت شعرى من المكلف

إن قلت عبد فذاك حق .·. أو قلت رب أنى يكلف

كما قال : فيحمدنى وأحمده .·. ويعبدنى واعبده [4]

* ويقول أيضا فى الفتوحات : [5] « إن الذين عبدوا العجل ما عبدوا غير الله » (فهو

١– حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة ص ١٨ .

٢– هذه هى الصوفية ص ٤٧ بتصرف .

٣– الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٤٠٦ .

٤– فصوص الحكم جـ١ صـ٨٣ .

٥– نقلا عن مصرع التصوف ص ١٢٤ و ١٢٧ .

يؤمن بأن اليهود عباد العجل ناجون، بل يؤمن بأنهم كانوا على علم بحقيقة الألوهية، لم ينعم موسى ولا هارون بلمحة من تجلياته ولا بارقة من انكشاف الأسرار الإلهيه المغيبة له، لأنهم ماقصروا العبادة على فكرة مجردة خاوية كموسى، وإنما عبدوا الرب متجليًا في صورة عجل، فأدركوا من حقيقة الأمر ما لم يدركه هارون وهو أن الذات الإلهية لا تُعبد إلا حين تتجلى فى صورة خلقية

ويؤمن «ابن عربى» بقدسية عبادة الأصنام، ويمجد صدق إيمانهم، وإخلاص توحيدهم، يؤمن بالصابئة عباداً « يوحدون الله» ، ويخلصون له الدين، يؤمن بسمو ايمان الذين عبدوا ثلاثة آلهة غير أنه يعيب عليهم قصورهم عن إدراك الحقيقة كاملة، إذ عبدوا الله فى ثلاثة أقانيم على حين كان الواجب أن يعبدوه فى كل شىء، فليس الرب عنده هو تلك الأقانيم فحسب، وإنما هو عين ما يرى أو يحس وعين ما لا يرى وما لا يحس. فأصحاب الثالوث عنده مخطئون، لأنهم عبدوا بعض مظاهر الرب، أو بعض تعيناته وكان واجبًا أن يعبدوه فى الكل، لأنه هو ذلك الكل فيما ظهر منه وفيما بطن [١] .

واسمع اليه يؤكد لك أن كل شىء هو الله – سبحانه : « سبحان من أظهر الاشياء وهو عينها»[٢].

« إن العارف من يرى الحق« الله » فى كل شىء ، بل يراه عين كل شىء» وكلمة «شىء» تطلق عنده على الصور الذهنية والوهمية وعلى العدميات، فوق إطلاقها على كل موجود له كيانه المادى المستقل لتقوم بذاتياته وخصائصه [٣] « وابن عربى» هذا يلقبه الصوفية بالعارف بالله، والقطب الأكبر والمسك الأزفر والكبريت الأحمر، مع قوله بوحدة الوجود وغيرها من الطامات، فإنه يمدح فرعون ويحكم بأنه مات على الإيمان[٤] (فيقول فى مجال تصحيح إيمان فرعون:« ولما كان فرعون فى منصب

١– هذه هى الصوفية ص ٤٧ – ٤٨ بتصرف.
٢– الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٤٠٦
٣– فصوص الحِكَم ص ٣٧٤، وهذه هى الصوفية ص ٤٨ بتصرف.
٤– حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة ص ١٨ .

التحكم صاحب الوقت، وأنه الخليفة بالسيف وإن جارى فى العرف الناموس لذلك قال« أنا ربكم الأعلى» أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما، فأنا الأعلى منهم بما أعطيته فى الظاهر من التحكم فيكم، ولما علمت السحرة صدقه فى مقاله لم ينكروه وأقروا له بذلك فقالوا : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾؛فالدولة لك فصح قوله :﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وإن كان عين الحق فالصورة لفرعون قطع الأيدى والأرجل وصلب بعين حق فى صورة باطل لنيل مراتب لا تنال الا بذلك الفعل»[١]

ومن كلامه أيضًا فى قصة فرعون : (إنه حين قال له « لأجعلنك من المسجونين» أى لأسترنك فإنك أجبت بما أيدتنى به أن أقول لك مثل هذا القول.

فإن قلت لى : فقد جهلت يا فرعون بوعيدك إياى، والعين واحدة، فكيف فرقت؟.

فيقول فرعون : إنما فرقت المراتب لا العين.

ما تفرقت العين ولا انقسمت فى ذاتها، ومرتبتى الآن التحكم فيك ياموسى بالفعل وأنا أنت بالعين وغيرك بالمرتبة [٢]

ويقول ابن عربى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [٣]

يقول : (إذا تركوهم جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء، فإن للحق فى كل معبود وجهًا يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله) [٤]

ويقول : أيضا – مخطئًا هارون عليه السلام فى نهيه بنى إسرائيل عن عبادة العجل ومفتريا على نبى الله موسى : (وكان موسى أعلم بالأمر من هارون، لأنه علم ما عبده أصحاب العجل لعلمه بأن الله قد قضى ألا يعبد إلا إياه وما حكم الله بشىء الا وقع

١- فصوص الحِكَم لابن عربى ص ٢١٠ و ٢١١

٢- فصوص الحكم ص ٢٠٩

٣- سورة نوح آية ٢٣

٤- فصوص الحكم ص ٧٢ وابن تيمية فى مجموعة الرسائل الكبرى جـ ١ ص ٢٤٥.

فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر فى انكاره وعدم اتساعه، فإن العارف من يرى الحق فى كل شىء، بل يراه عين كل شىء »[١]

وفى تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٢] الآية، إلى معنى فاسد هو أن قضاءه هنا قضاءً كونيًا : فما عبد فى الحقيقة إلا الله فى كل معبود[٣] وغيرها من الآيات التى فسرها تفسيرات فاسدة ومعلومة الفساد من الدين بالضرورة.

وكفى بهذا إثمًا وفسادًا وبطلانًا، ذلك أنه بناء على هذا الفهم، وتلك النظرية أخذ ابن عربى وأمثاله يخطئون أنبياء الله الذين جاءوا بدعوة للتوحيد فى العبادة. ولو كان النبى محمد ﷺ.

ويؤيدون الكفار من أمثال فرعون وقوم نوح وغيرهم الذين عبدوا الأصنام، واليهود الذين عبدوا العجل، مدعيا أن هؤلاء ما عبدوا غير الله، وأنهم إن كانوا مخطئين فى شىء فهو أنهم خصصوا شيئا دون شىء بالعبادة والواجب أن يعبدوا كل شىء لأنه لا شىء موجود غير الله، فاعجب !!

سبحانك هذا بهتان عظيم .

* معنى الاتحاد والحلول : القول بأن الله يحل فى الإنسان – تعالى الله عن ذلك. وقد نادى بذلك بعض الغلاة من الصوفية كالحسين بن منصور الحلاج – الذى أفتى العلماء بكفره وقتله، وقد قُتل وصُلب سنة ٣٠٩ هـ، وقد نسب إليه قوله: « ما فى الجبة غير الله» وقوله :

سبحان من أظهر ناسوته سرسنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهرًا فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب[٤]

وقوله : أنا من أهوى ومن أهوى أنا . . . . . نحن روحان حللنا بدنا

١– فصوص الحكم ص ١٩١
٢– سورة الإسراء : ٢٣
٣– فصوص الحكم ص ٧٢ ومجموعة الرسائل لابن تيمية جـ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ بتصرف
٤– كتاب «الطواسين للحلاج » ص ١٣٠ نقلا عن هذه الصوفية، الأستاذ عبد الرحمن الوكيل

فـاذا أبصــــرتنى أبصــرته . . . . وإذا أبصرته أبصـرتنا

«فالحلاج» حلولى يؤمن بثنائية الحقيقة الإلهية، فيزعم أن الإله له طبيعتان هما اللاهوت والناسوت، وقد حل اللاهوت فى الناسوت، فروح الإنسان هى لاهوت الحقيقة الإلهية وبدنه ناسوته، ورغم أنه قُتل لزندقته وقد تبرأ منه بعض الصوفية، إلا أن بعضهم قد عدوه من الصوفية، وصححوا له حاله، ودوّنوا كلامه، ومنهم أبو العباس بن عطاء البغدادى، ومحمد بن خفيف الشيرازى، وابراهيم النصر أباذى، كما نقل ذلك الخطيب البغدادى (١)

وقد أثر عنه من الشعر الذى يصرح فيه بالكفر، ومن النثر كذلك شىء كثير فمن ذلك قوله أيضا :(٢)

ألا أبلـــــــغ أحـــبائى بـــأنى . . . . . ركبت البحر وانكسر السفينة

على دين الصليب يكون موتى . . . . . ولا البطحـــا أريـد ولا المدينة

ومثل قوله(٣)

قد تصبـرت وهـل يصــبر . . . . . قلبى عن فــؤادى

مازجت روحـك روحـى . . . . . فـى دنـــو وبعـــاد

فـأنــا أنـــت كـمــا أنــ . . . . ــك أنـى ومــرادى

وغيـر هذا كثير لا يحتاج إلى نقاش أو تأويل، لأن التأويلات التى قيلت فى هذا الشأن تدل على محاولة يائسة لتبرير موقفه وتصحيح معتقده الفاسد. مع أنه اعترف بنفسه على نفسه ولم ينف ذلك عن نفسه حتى حكم الفقهاء بقتله وقُتِلَ، فيكون التبرير لموقفه تخطئة للفقهاء والعلماء الأفاضل الذين قتلوه وتجريما لهم، وبهذا تنقلب القضية فيبرأ المذنب الآثم ، ويخطأ علماء الشريعة،

ونذكر من التبريرات الفاسدة مثلاً :

١- كتاب« تاريخ بغداد » للبغدادى جـ ٨ ص ١١٢

٢- كتاب الطواسين للحلاج ص ٦٠ ط مكتبة الجندى بمصر عام ١٩٧٠ م.

٣- كتاب الطواسين للحلاج ص ١٣٠

جاء فى كتاب « أخبار الحلاج» فى الهامش قوله : (قال عبد الوهاب الشعرانى) فى كتاب « لطائف المنن» وقد كان الشيخ أبو العباس المرسى « رضى الله تعالى عنه» يقول: أكره من الفقهاء قولهم بكفر الحلاج، وما نقل عنه يصح تأويله نحو قوله : «على دين الصليب يكون موتى» ومراده أن يموت على دين نفسه فإنه هو الصليب وكأنه قال : « أنا أموت على دين الإسلام، وأشار إلى أنه يموت مصلوبا، وكذلك كان »[١].

* والذى يتمعن فى هذا التبرير المذكور يجد أنه غاية فى الركاكة والفساد فإن الحلاج قد صرح بالكفر فى كثير من أقواله وأشعاره وليس الكفر مقتصرا على هذه العبارة حتى يجرى المبرر وراء معانيها المحتملة والبعيدة الاحتمال، فإن قوله : إنه أراد أنه يموت على دين نفسه لأنه هو الصليب، فيه ادعاء أنه يعلم الغيب وأنه سيموت مصلوبا، فلا شك أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن هذا التأويل فيه بعد عن الحقيقة والواقع، وما يفهم من كلامه إلى حد كبير.ثم إنه لا يصح أن يعبر عمن مات مصلوبا بأنه مات على دين الصليب، فإن دين الصليب كلمة واضحة عرفها الناس جميعا، أن مدلولها ومفهومها هو دين الذين يعبدون الصليب ويعتبرون تمجيده شعيرة من شعائر دينهم.

ثم إذا كان المراد ما ذكره المؤول فما معنى الشطر الثانى « ولا البطحا أريد ولا المدينة« .ألا ترى أن الشطر الثانى ينادى بأن المراد بدين الصليب هو دين النصارى بقرينة مقابلته بدين البطحاء والمدينة وهو دين الإسلام»[٢]

* ولقد تكلم الإمام ابن تيمية عن«الحلاج» فى كل رسائله التى رد فيها على أصحاب الحلول والإتحاد ووحدة الوجود، بالإضافة الى أنه ألف فيه رسالة خاصة فى الجواب على سؤال ورده عنه هل صديق أو زنديق ؟.

١- انظر « أخبار الحلاج» هامش ص ٦١

٢- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ١٧٩

قال الإمام ابن تيمية : « الحمد لله رب العالمين : الحلاج قتل على الزندقة التى ثبتت عليه باقراره وبغير إقراره. والأمر الذى ثبت عليه مما يوجب القتل باتفاق المسلمين، ومن قال إنه قتل بغير حق فهو إما منافق ملحد وإما جاهل ضال »(١)

وقد استشهد الإمام« ابن تيمية» على صحة ما ورد عن الحلاج « من كفريات بما جاء من مشائخ التصوف المعتدلين فى عصره بمن جفاه وأعرض عنه. ففى ذلك يقول الإمام « ابن تيمية » واما أولياء الله العالمون بحال الحلاج فليس منهم واحد يعظمه، ولهذا لم يذكره القشيرى فى مشايخ رسالته، وإن كان قد ذكر من كلامه كلمات استحسنها، وكان الشيخ أبو يعقوب النهرجورى قد زوجه بابنته، فلما اطلع على زندقته نزعها منه، وكان «عمرو بن عثمان» يذكر أنه كافر، ويقول : «كنت معه فسمع قارئا قرأ القرآن، فقال – أى الحلاج : أقدر أن أصنف مثل هذا القرآن، أو نحو هذا الكلام»(٢) .

* وفى هذا تكذيب للقرآن، ومنه قوله تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٣)
ولكن الإمام « ابن تيمية» يعول أكثر ما يعول على رأى « الجنيد» فى « الحلاج» فيقول:« وممن ذمه وحط عليه أبو القاسم الجنيد»(٤)

ومع ما تقدم من وضوح رأى الإمام« ابن تيمية» فى « الحلاج » الا أنه احتاط لدينه فقال فى آخر الرسالة :

« فالحلاج كان من الدجاجلة بلا ريب، ولكن اذا قيل : هل تاب قبل الموت أم لا ؟ قال : أى المجيب / الله أعلم، فلا يقول ما ليس له به علم ولكن ظهر عنه من الأقوال والأفعال ما أوجب كفره وقتله باتفاق المسلمين، والله أعلم »(٥) .

١- جامع الرسائل لابن تيمية ص ١٨٧
٢- جامع الرسائل لابن تيمية ص ١٩١
٣- سورة الاسراء، آية ٨٨
٤- جامع الرسائل لابن تيمية ص ١٨٩
٥- جامع الرسائل ص ٩٩

* وممن يؤمن ببدعة الاتحاد أو الوحدة« ابن الفارض » (*).

يؤمن هذا الصوفى بصيرورة العبد ربا، والمخلوق خالقًا، والعدم الذاتى الصرف وجودًا واجبًا، وإذا شئت الحق فى صريح من العقل، فقل : هو مؤمن ببدعة الوحدة، تلك الأسطورة التى يؤمن كهنتها بأن الرب الصوفى تعين بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله فى صور مادية أو ذهنية، فكان حيوانًا وجمادًا وإنسًا وجنًا وأصنامًا وأوثانًا ، وكان وهمًا وظنًا وخيالاً، وكانت صفاته وأسماؤه وأفعاله عين ما لتلك الأشياء من صفات وأسماء وأفعال، لأنها هى فى ماهيته ووجوده المطلق أو المقيد، وكل شىء فى الوجود هو عين رب الوجود، ولا تعجب فى هذا، فبمجرد قراءتك لتائية ابن الفارض، يزول عجبك، وهذه بعض أبياتها، مع يسير من الشرح معها :

جلت فى مجليها الوجود لناظرى	ففى كل مرئى أراها برؤية
وأشهدت غيبى إذ بدت فوجدتنى	هناك إياها بجلوة خلوتى
ففى الصحو بعد المحو لم أك غيرها	وذاتى بذاتى اذ تحلت تجلت
إلى كم أواخى الستر، ها قد هتكته	وحل أواخى الحجب فى عقد بيعتى
فوصفى، إذ لم تدع باثنين وصفها	وهيئتها - إذ واحد نحن - هيئتى
فإن دُعِيَتْ كنتُ المجيب، وإن أكن	منادى أجابت من دعانى ولبت
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا	وفى رفعها عن فرقة الفرق رفعتى
ولا فلك إلا ومن نور باطنى	به ملك يهدى الهدى بمشيئتى
ولا قطر إلا من حل من فيض ظاهرى	به قطرة عنها السحائب سحت
ولولاى لم يوجد وجود، ولم يكن	شهود، ولم تعهد عهود بذمة

* - هو عمر بن أبى الحسينى على بن المرشد بن على شرف الدين الحموى الأصل، المصرى المولد، توفى سنة ٦٣٢ هـ.

وكل الجهات الست نحوى توجهت ... بما تم من نسك وحج وعمرة
لها صلواتى بالمقام، أقيمها ... وأشهد فيها أنها لى صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلىّ ... حقيقته بالجمع فى كل سجدة
وما كان لى صلى سواى ولم تكن ... صلاتى لغيرى فى أداء كل سجدة
ففى النشأة الأولى تراءت لآدم ... بمظهر حوا قبل حكم النبوة
وتظهر للعشاق فى كل مظهر ... من اللبس فى أشكال حسن بديعة
ففى مرة « لبنى » وأخرى بثينة ... وآونة تدعى « بعزة» عزت
وليس سواها، لا، ولا كن غيرها ... وما إن لها فى حسنها من شريكة
فى شهدت الساجدين لمظهرى ... فحققت أنى كنت آدم سجدتى

وفى هذه الآبيات - فضلا عن غيرها تظهر عقيدة « ابن الفارض» واضحة، فهو فى تلك الأبيات يريد أن يقول أو يزعم أن الذات الإلهية هتكت عنه حجب الغيرية، وجلت له الحق المغيب، فرأى حقيقة الله متعينة بذاتها فى كل مظاهر الوجود، رأى هذا الكون المادى بكل ما يدب عليه هو عين الله وماهيته، ورأى وجوده عين وجوده فما ثم شيء عند ابن الفارض إلا وهو الله، وليس للرب وجود سوى تلك الصور المادية أو الذهنية، ولهذا راح يزعم أنه بذاته اتحد بذات ربه، فكانت الثنائية فى الاسم، وكانت الوحدة فى الحقيقة والوجود.

وقد شهد « هوية» الوجود الإلهى أو باطنه، و« إنية » وجوده هو أو ظاهره، فلم يجد للرب وجود سوى وجوده ولا لذاته كيانًا متقومًا غير كيانه، بيد أنه خشى أن يتوهم أحد أن هذا الشهود وهم طارئ أو حال عارض أو صورة من حلم أسبل لها فكره وعينه فذهب يؤكد ذلك بأنه كان فى الصحو بعد المحو، وهو - عند الصوفية - رجوع العارف إلى الإحساس بعد سكرته بوارد قوى، وفيه يشهد العارف المغايرة بين الذات الإلهية ومظاهرها أو صفاتها يشهد أن الكون ليس هو الذات الإلهية، أما المحو فهو إمحاء الكثرة والغيرية والخلقية المتنوعة المتعددة، وفناء السوية وتجلى الوحدة المطلقة فيرى الصوفى الخلق عين الحق والمربوب عين الرب، فثمت فرق عند الصوفية بين الصحو والمحو، ولكن « ابن الفارض» أبى أن يؤمن بهذا الفرق المبتدع.

* ثم يعلن أنه عاهد الحق حين بايعه على أن يهتك كل ستر، ويحل كل أنشوطة حتى يرى كل ذى بصر أن الله يتمثل دائما فى صور الخلق، وتتعين ذاته بذواتهم.

* ثم يزعم أن كل ما وصف به الله نفسه، فالموصوف به على الحقيقة هو ابن الفارض لأنه الوجود الالهى الحق فى أزليته.

* وإن دُعى الله أجاب ابن الفارض لأنه عينه، وإن دعى ابن الفارض لبى الله لأنه اسمه ومسماه.

* واذا كان الخطاب يستلزم الاثنينية، إذ لابد من طرفين متقابلين « مُخاطِب ومُخَاطب» فقد رفع ابن الفارض تاء المخاطب، وصدور الخطاب لأنه هو لاغيره، حتى يخاطبه أو يدعوه، فالخطاب صادر منه إليه.

ولقد كان يقول قبل أن ينكشف عنه الغطاء : أنت أنت، فلما تجلت له الحقيقة صار يقول : أنا أنا، فما أنت إلا أنا.

* ثم يفترى أن له الربوبية بوحدانيتها وصفاتها وأسمائها وأفعالها، بملكها وملكوتها، برحمانيتها وجبروتها، بقدرتها القهارة، وعلمها المحيط الشامل، بما أبدعت من خلق ومنحت من حياة.

فالملكوت كله بيده، الوجود كله قطرة فيض من وجوده، والإرادة البشرية كلها طوع هواه.

* ثم يزعم أن هذه الصلوات، والضراعات، وتلك الدعوات، وهذه المناسك لاترفع إلى الله وإنما تتوجه بها القلوب إليه رجاء رحمته وابتغاء رضاه.

* وهم يولون وجوههم شطر المسجد الحرام، إنما يولونها شطر هيكل ابن الفارض، والنذور يبتغون بها وجهه والله جل شأنه يقول : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾[1] غير أن ابن الفارض يرفع فى وجه الحق باطله، فيفترى أنه ما ثم إلا وجهه هو، وأن الكون كله ما يولى بجهاته الست وجهه إلا إليه.

١- سورة البقرة، آية ١١٥

* ثم يزعم ابن الفارض ذلك الرب على أن يرتسم خاشع الذل فى المعابد يصلى لابن الفارض ويرجو رحمته، فيقول : «كلانا مصل واحد ساجد -» ولكن كلانا هذه دلالتها حتمية على وجود اثنين أو تحقق وجودين يغاير أحدهما الآخر، لهذا كر « ابن الفارض» يعدو فى لهفة مجنونة ليستدرك على«كلانا» بما ينسخ ما توهمه

* فيقول: وما كان لى صلى سواى، ولم تكن صلاتى لغيرى فى أداء كل سجدة!!

* ولست أدرى لم يغرم الصوفية دائما بنعوت المرأة يحملونها على ربهم، فيزعمون أن ربهم يتجلى - غزلى الجمال - فى صورة أنثى عاشقة ملهوفة، تتقتل بفتون أنوثتها لحيوان يراودها عن نفسها، فيمثل الذات الإلهية فى صورة «حواء» ظهرت لآدم، «وليلى» لقيس، وفى صورة «بثينة» لجميل، و«عزة» لكثير . فما حواء أم البشرإلا الحقيقة الإلهية، وما أولئك العشاق سكرت على شفاههن خطايا القُبل المحرمة وتهاوت بهن اللهفة الجسدية الثائرة تحت شهوات العشاق، ما أولئك جميعًا سوى رب الصوفية تجسد فى صور غوانٍ تطيش بهداهن نزوة ولهى، أو نشوة سكرى تتلظى فى عين عاشق!! ويسرف ابن الفارض فى توكيد أنوثة ربه، وتجليه أبدًا فى صورة جسد امرأة يزل عاشق . يزل بها موعد الليل .

* وقد خشى أن يتوهم أحد فى ربه أنه يغاير حقيقته، أو تتباين صفاته، وهو يتجلى مرة بعد مرة فى صورة غانية أو أن يظن أن هؤلاء الغانيات «لبنى، بثينة، عزة» تغاير حقائقهن حقيقة ربه فى شىء ما، فاستدرك على الأوهام بما يحيلها يقينا ثابتا فى أنوثة ربه، قال : «ولسن سواها، لا ولا كن غيرها» وهكذا صدق فيهم قول الله تعالى : ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾[1]

ماذا يحدث للشباب المسلم، ومنه، لو أنه آمن بهذا الهراء والافتراء، وذلك الكفر والخبل.

* ولا يمل ابن الفارض من تكرار إفكه الوثنى يزعم فيه أنه هو إله ، فيضيف إليه أنه

١- سورة النساء : آية ١١٧ .

عين رسل الله أيضا، وعين « آدم» الأب الأول للبشرية، وعين الملائكة الذين سجدوا لآدم.

يقول القاشانى فى شرح هذا البيت :

فى شهدت الساجدين لمظهرى فحققت أنى كنت آدم سجدتى

(أى عاينت فى نفسى الملائكة الساجدين لمظهرى، فعلمت حقيقة أنى كنت فى سجدتى آدم تلك السجدة، وأن الملائكة يسجدون لى. والملائكة صفة من صفاتى – فالساجد صفة منى تسجد لذاتى[1] أرأيت إلى شرح القاشانى ؟ لقد نقلته لك بلفظه مثلاً لما يشرح به الصوفية أساطير دينهم، ولتؤمن أنى لم أمل مع الهوى فيما شرحت لك به أبيات ابن الفارض، وأظننى ما بلغت مبلغ « القاشانى » فى الشرح، فهو صوفى يدين بالتائية، وحسبنا هذا من سلطان عشاق الصوفية[2]

* وممن قال بالإتحاد أيضا : «عبد الكريم الجيلى»[3]

الذى ألف كتابا أسماه « الإنسان الكامل» حاول أن يثبت فيه أن محمداً هو أول تعيينات الذات الإلهيه بعد أن أرادت أن تظهر من مرحلة الخفاء إلى مرحلة الوجود

وفى ذلك يقول الجيلى شعرًا :[4]

ذات لها فى نفسها وجهان ... للسفل وجه والعلا للثانى
ولكل وجه فى العبارة والأداء ... ذات وأوصاف وفعل بيان
إن قلت واحدة صدقت وإن تقل ... اثنان حق إنه اثنان
أو قلت لا بل انه لمثلث ... فصدقت ذلك حقيقة الإنسان
أنظر الى أحدية هى ذاته ... قل واحد أحد فريد الشأن

١– كشف الوجوه الغر على هامش شرح الديوان جـ ٢ ص ٨٩ طبع ١٣١٠ هـ

٢– راجع بتوسع «هذه الصوفية» ص ٣٦ – ٤٦

٣– هو عبد الكريم بن ابراهيم الجيلانى أو الجيلى، توفى نحو ٨٣٠ هـ

٤– الانسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل (عبد الكريم الجيلى) ص ١٢ ط ثانية عام ١٣٧٥ هـ بمصر

الى أن يقول :

فهى المسمى أحمد من كون ذا ومحمد لحقيقة الأكوان
وهو المعرف بالعزيز وبالهدى من كونه ربا فداه جنانى
يا عين دائرة الوجود جميعه يانقطة القرآن والفرقان
ولك الوجود والانعدام حقيقة ولله الحضيض مع العلا ثوبان
أنت الضياء وضده بل إنما أنت الظلام لعارف حيران
مشكاته والزيت مع مصباحه أنت المراد به ومن أنشانى
زيت لكونك أولا ولكونك المخلوق مشكاة منير ثان
ولأن رب عين وصفك عينه ها أنت مصباح ونور بيان

* والجيلى هذا ممن يؤمن بالاتحاد والحلول كسابقيه « ابن عربى، وابن الفارض، والحلاج » غير أن اللون الفاضح الصارخ فى زندقته هو اعتقاده أن الله ما هو إلا إنسان كامل، وأن الإنسان الكامل ما هو إلا الرب الأكبر الجامع بين الحق والخلق فى وحدة. ولقد رأى« الجيلى» ألا يمن بهذه المرتبة على أحد قبله، فمضى يؤكد القول أن انسانيته هى أفق الربوبية والألوهية الأسمى، فيقول :[1]

لى الملك فى الدارين، لم أر فيهما سواى فأرجو فضله، أو فأخشاه
وقد حزت أنواع الكمال ، وإننى جمال جلال الكل، ما أنا إلا هو
فمهمها ترى من معدن ونباته وحيوانه مع إنسه وسجاياه
ومهما ترى من أبحر وقفاره ومن شجر، أو شاهق طال أعلاه
ومهما ترى من صورة معنوية ومن مشهد للعين طاب محياه
ومهما ترى من هيئة ملكية ومن منظر ابليس قد كان معناه

١ - الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل (عبد الكريم الجيلى) جـ ١ ص٢٠ وما بعدها ط١٢٩٣

ومهما ترى من عرشه ومحيطه وكرسيه، أو رفرف عز مجلاه
فإنى ذاك الكل، والكل مشهدى أنا المتجلى فى حقيقته، لا هو
وإنى رب للأنام وسيد وجميع الورى اسم، وذاتى مسماه

فهذا قول « الجيلى» والله يقول :﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١)

ولكن« الجيلى» يفترى أن له وحده ملك الدنيا والآخرة، و أنه ليس للوجود رب سواه ولا ليوم الدين ملك غيره، وأنه الغنى بذاته، فلا تنفح قلبه رغبة فى نعمة من أحد، لأنه الوهاب للنعم، ولا تلفح نفسه رهبة من سلطان، لأنه ملك الكل ومالكهم

* ولم يكتف الجيلى بهذا، بل مضى يعدد أنواع الخلق وصور الوجود المادى والحسى والروحى والمعنوى ليزعم بعدها أنه هو عينها ذاتًا ووجودًا، فلا يتوهم واهم أن شيئًا ما فى الوجود يغاير الجيلى، أو يخرج عن حقيقة ذاته، فيقول :« أنا المتجلى فى حقيقته لا هو » فيحكم على الوجود الحق بالعدم الصرف

أرأيت إليه فى زعمه أنه « رب للأنام وسيد جميع الورى» ؟

أرأيت إليه – وقد جنت شهوة الزندقة فيه – يفترى أن الشهوات إحدى مقومات الوجود الإلهى، وأنها فى دنسها عين وجوده ؟ وأن «إبليس» وغيه وتمرده هو عين الرب الأعظم ؟ وأن كل اسم فى الوجود هو اسم لله سبحانه، لأنه عين كل مسمى وأن كل صفة لكائن ما، هى لله صفة، لأنه عين الموصوف بها ؟ فعلام يدل كل هذا أو أثارة واحدة منه ؟ (٢)

* وإن تعجب فعجب تقديس الصوفية للجيلى. وتبرئة ساحته مما يحكم به الحق والعدل عليه وكيف يجعله الصوفية قطبًا عرجت روحه إلى الحق تستلهمه الوحى، وهو القائل ؟(٣)

١– سورة آل عمران، آية ١٨٩
٢– هذه هى الصوفية ص ٥٨، ٥٩ بتصرف
٣– هذه هى الصوفية ص ٦٠ بتصرف .

ولى الملك والملكوت نسجى وصنعتى لى الغيب والجبروت منى منشأة[1]

* كما يزعم ذلك « الجيلى» أن الرب نقيضان وضدان، فهو يجمع بين الشىء وضده والصفة ونقيضها فيقول : (اعلم أن الوجود والعدم متقابلان، وفلك الألوهية محيط بهما، لأن الألوهية تجمع الضدين من القديم والحديث، والحق والخلق ،والوجود والعدم، فيظهر فيها الواجب مستحيلاً بعد ظهوره واجبًا، ويظهر فيها المستحيل واجبا بعد ظهوره فيها مستحيلاً ، ويظهر الحق فيها بصورة الخلق، ويظهر الخلق بصورة الحق،[2] (الألوهية فى نفسها تقتضى شمول النقيضين وجمع الضدين) [3]

تجمعت الأضداد فى واحد إليها وفيه تلاشت فهو عثهن ساطع [4]

* هذا رب عجيب، لم يبتدعه غير خيال فلاسفة الصوفية المخبول، رب موجود معدوم، واجب مستحيل، قديم حديث، ينعم بالحياة ويهلكه الموت، فهو حى ميت فى آن معا ، هذا هو رب الصوفية الذى اختلقه الجيلى، وبه تدين فلاسفة الصوفية، وإياه يعبدون[5].

وهناك آخرون آمنوا بالاتحاد والحلول، ومنهم : « أبو حامد الغزالى»[*] ولعل مما يقلق دهشتك، ويثير ثائرتك أن يقرن بأولئك هذا الذى افترى له الصوفية أضخم لقب فى التاريخ وهو « حجة الإسلام » ليفتكوا بهذا اللقب الخادع ما بقى من ومضات النور الشاحبة فى قلوب المسلمين[6] فاسمع اليه وهو يتحدث عن التوحيد ومراتبه فيقول : « للتوحيد أربع مراتب، وينقسم إلى لب وإلى لب اللب وإلى قشر وإلى قشر القشر، ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة «بالجوز» فى قشرته العليا، فإن له قشرتين، وله

١- الإنسان الكامل جـ ١ ص ٢٣

٢- الإنسان الكامل للجيلى جـ ١ ص ٢٧

٣- الإنسان الكامل للجيلى جـ ١ ص ٦٩

٤- الإنسان الكامل للجيلى جـ ١ ص ٣٣

٥- هذه هى الصوفية ص ٦٠ ، ٦١ بتصرف

* - هو محمد بن محمد بن أحمد الطوسى أبو حامد الغزالى، مات سنة ٥٠٥ هـ

٦- هذه هى الصوفية ص ٦٢

لب، وللبه دهن هو لب اللب، فالمرتبة الأولى من التوحيد هى أن يقول الإنسان بلسانه « لا إله إلا الله » وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين، والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام، والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

والرابعة أن لا يرى فى الوجود إلا واحدا وهى مشاهدة الصديقين، وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحد فلا يرى نفسه أيضا. وإذا لم ير نفسه لكونه مستقرا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه فى توحيده، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق [١]

ثم يحدثنا الغزالى عن مقامات الموحدين فى كل مرتبة، فيصف صاحب المرتبة الرابعة من التوحيد بقوله « والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث أنه كثر، بل من حيث إنه واحد، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد»

ثم يقول : « فإن قلت : كيف يتصور ألا يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهى كثيرة، فكيف يكون الكثير واحدا ؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر فى كتاب. فقد قال العارفون : افشاء سر الربوبية كفر» [٢]

ثم يضرب مثلا عن شهود الوحدة فى الكثرة، بقوله : « كما أن الانسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد . .» .

فكذلك كل ما فى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخرى سواه كثير، ومثاله

١- إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٤ ص ٢٤٠

٢- احياء علوم الدين للغزالى جـ ٤ ص ٢٤٠ - ٢٤١ بتصرف

الإنسان، وإن كان لا يطابق الغرض، ولكنه ينبه فى الجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحداً.

ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه، وتؤمن إيمان تصديق . . وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص(*) يدور فى الأسفار فقال : فيماذا أنت ؟ فقال أدور فى الأسفار، لأصحح حالتى فى التوكل، فقال الحسين: لقد أفنيت عمرك فى عمران باطنك، فأين الفناء فى التوحيد ؟ فكأن الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث، فطالبه بالمقام الرابع»(1).

* ولقد كنا نريد أن نربأ بالشيخ أبى حامد الغزالى عن هذه المهاترات، وذلك الهراء، فكيف يحدثنا الغزالى بهذه الطريقة عن مراتب التوحيد، وفى مرتبته الثانية، يسمها باعتقاد العوام، ويعم بها المسلمين ! !.

وفى المرتبة الثالثة : يقرر وحدة الفاعل، بدليل ما سيقرره بعد، وهو أنه لا يشاهد إلا فاعل واحد، فيلزمه نسبة فعل المجرم إلى ذلك الفاعل الواحد ! !.

ولئن نحينا ذلك جانبا، وقلنا نسمى هذه المرتبة « وحدة المشاهدة » وقد تقبل على علاتها، فكيف يرتقى – وإن شئت قلت يتنزل –إلى هذه المرتبة الرابعة. ألا يرى فى الوجود إلا واحداً، فهو بذلك قرر فى سابقه وحدة الفاعل ولكنه لم ينف وجود غيره، أما فى هذه فيقرر وحدة الوجود، يقرر أن الذوات على كثرتها فى الحقيقة ذات واحدة.

ثم يحدثنا بعد ذلك عن « علوم المكاشفات» ويكل المعرفة بأسمى مراتب التوحيد إليها، فما هى تلك العلوم ؟ إنها قطعا شىء آخر غير الكتاب والسنة، إنها أساطير الصوفية التى استمدوها من «أذواقهم مواجيدهم» ثم سجلوها فى كتبهم، فكأن القرآن والسنة ليس فيها ما يصل بالقلب إلى قدس الحق من التوحيد الخالص، كما يزعم

*– الخواص هو ابراهيم بن اسماعيل أبو اسحاق الخواص مات سنة ٢٩١ هـ

١– احياء علوم الدين للغزالى جـ ٤ ص ٢٤١ بتصرف

الغزالى أن حقيقة التوحيد الحق لا يجوز أن تسطر فى كتاب، وهذا معناه أنها ليست فى كتاب الله وأنه لا يعرفها أحد إلا الصوفية أرباب الكشف، فأين هذا من قوله الله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] وأهم شىء هو توحيد الله فى ربوبيته وإلهيته.

كما زعم أن افشاء سر الربوبية كفر، وهذا معناه أنه وأمثاله من الصوفية يعرفون أسرار الربوبية غير أنهم يضنون بها على الكتب، وأن المسلمين جميعًا لا يعرفون حقيقة التوحيد، ومعناه مرة أخرى : أن كتاب الله ليس فيه الحق من التوحيد، ثم يستدل الغزالى على الوحدة بين الخلق والخالق بهذا المثل وهو « الانسان» فى كثرته ووحدته، ويحتم الايمان به، وقد كنا نحب أن يأتينا بآية من كتاب الله، أو آثارة من فكر صحيح وبرهان عقلى، بيد أنه لجأ إلى الخيال السقيم يشبه الوحدة بين الله وعباده بالوحدة بين الانسان وأعضائه، وعجيب أن يمجد الغزالى « الحلاج » ، وهو يعلم أنه يزعم أن الله آكل شارب، ويحب الحياة ويخاف الموت ويمحقه العدم ويقتله الحزن، وتنزل به الشهوات، لأنه عين خلقه كما جاء ذلك فى أبياته السابقة[2] ألم يجد الغزالى من المؤمنين من يتمثل به فى بلوغ أسمى مراتب التوحيد ؟ ألم يعطفه توحيد أبى بكر وعمر، فينصرف عنهما إلى تمجيد زندقة الحلاج ؟ ! ![3]

كما ذكره الغزالى فى هذا الموضوع، فقال : « العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة، اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود إلا الواحد الحق، ولكن منهم من كان له هذه الحالة عرفانًا علميًا، ومنهم من صار له ذوقًا وحالاً، فلم يبق عندهم إلا الله،

٣- سورة الأنعام، آية ٣٨

٢- أظر الحديث عن الحلاج ، والأبيات المشار إليها هى قوله :

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهرا ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب
مزجت روحى فى روحك ... كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شىء مسنى ... فاذا أنت أنا فى كل حال

٣- انظر هامش « هذه هى الصوفية » ص ٦٢ - ٦٥ بتصرف

فسكروا سكرًا، وقع دونه سلطان عقولهم، فقال بعضهم : أنا الحق ! ! وقال الآخر : سبحانى ما أعظم شانى، وقال الآخر : ما فى الجبة إلا الله، وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى فلما خف عنهم سكرهم، وردوا إلى سلطان العقل عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الإتحاد، بل يشبه الإتحاد، مثل قول العاشق فى حال فرط العشق :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق فيها بلسان المجاز : اتحادًا، وبلسان الحقيقة:، توحيدًا. ووراء هذه الحقائق أسرار لا يجوز الخوض فيها » [1].

والغزالى فى هذا يمتدح أصحاب الاتحاد والحلول أمثال طيفور البسطامى القائل «أنا الحق» وكذلك : « سبحانى ما أعظم شانى» ، ويمتدح الحلاج القائل« مافى الجبة إلا الله» والبيت الذى ذكره عنه، ويصف الغزالى هذه المجوسية الصوفية بأنها هتفات أرواح سكرت بعشق الله، ولم يجد الغزالى ما ينقد به هذه الصوفية – إن عددته نقدًا– سوى قوله :« وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى» .

ولكن ما حكم الله يا غزالى ؟ لايجيب، ولكنه حكم من قبل بأن ذلك أسمى مراتب التوحيد[2]

* وبهذا ندرك أن الغزالى – على رفعة مكانته عند الناس – صوفى، يؤمن بالإتحاد والحلول، ويدافع عنه، وتلك داهية عظيمة، وقع فيها الغزالى، فضلا عن نظرائه، والذى تميز به الغزالى عن غيره أنه كان على علم غزير، وعلى دراية بالفلسفة وعلم الكلام وغير ذلك، به أوسع المجال للصوفية،[3] كما خلص الصوفية من عزلتها التى كانت عليها، وأنقذها من انفصالها عن الديانة الرسمية، وجعل منها عنصرا مألوفا فى الحياة الدينية، وفى الإسلام، ورغب فى الاستعانة بالآراء والتعاليم المتعلقة بالتصوف، لكى ينفث فى المظاهر الدينية الجامدة ! ! قوة روحية[4]

١– مشكاة الأنوار للغزالى ص ١٣٢ ص ١٩٤٣

٢– هامش «هذه الصوفية» ص ٦٨ بتصرف

٣– راجع «فى التصوف الاسلامى» للمستشرق نيكلسون:ترجمة د/ عفيفى ص١٠٤ بتصرف

٤– العقيدة والشريعة لجولدزيهر ص ١٥١ .

كما أن الغزالى رفع من شأن الآراء الصوفية، وجعلها من العوامل الفعالة فى الحياة الدينية فى الاسلام[١].

وهكذا لم يعمل الغزالى للإسلام، بل للصوفية، وبعد أن كان المسلمون على حذر من سمها، وفى انفصال تام عنها حملهم بسحر بيانه على أن يعتنقوا أساطيرها[٢].

ومع ذلك نقول من باب الحق والإنصاف : يحاول السبكى فى كتابه« طبقات الشافعية» تبرئة ساحة «الغزالى» بزعمه أنه اشتغل فى أخريات أيامه بالكتاب والسنة، ونحن نسأل الله أن يكون ذلك حقا، ولكن لابد من تحذير المسلمين من تراث الغزالى، فكل ما له من كتب فى أيديهم تراث صوفى، ولم يترك لنا فى أخريات أيامه كتابا يدل على أنه اشتغل بالكتاب والسنة، ويستدل بعض الباحثين على رجوعه عن تصوفه بقوله:

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد بلغت فقد ضيعت أيامى[٣]

نقول : وان كان الشيخ حبيبا إلى قلوبنا، فالحق أحب إلينا منه، والحق أحق أن يتبع.

١- العقيدة والشريعة لجولدزيهر ص ١٦١

٢- هذه هى الصوفية ص ٦٦

٣- هذه هى الصوفية هامش ص ٦٧ و ٦٨

أصنام صغيرة ، تؤمن بالاتحاد والحلول :

* **ابن عامر البصري**(*) الذى قال : فى تائية يعارض بها ابن الفارض، وزناً وقافية ولطخها بنفس الزندقة

تجلى لى المحبوب من كل وجهة	فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى يكشف سرائر	تعالت عن الأغيار لطفًا وجلت
فقال : أتدرى من أنا ؟ قلت: أنت يا	منادى - أنا إذ كنت أنت حقيقتى
نظرت فلم أبصر سوى محض وحدة	بغير شريك فقد تغطت بكثرة
تكثرت الأشياء ، والكل واحد	صفات وذات ضُمنا فى هوية
حتى قال : فأنت أنا، لا، بل : أنا أنت	وحدة منزهة عن كل غير وشركة(١).

***الصدر القونوى**(*) يقول فى كتابه « مراتب الوجود» :« فالإنسان هو الحق، وهو التراث، وهو الصفات، وهو العرش، وهو الكرسى، وهو اللوح، وهو القلم، وهو الملك، وهو الجن، وهو السموات وكواكبها، وهو الأرضون وما فيها، وهو العالم الدنياوى، وهو العالم الأخراوى، وهو الوجود وما حواه، وهو الحق، وهو الخلق وهو القديم، وهو الحادث(٢)

* **النابلسى**(*) : يقول معقبا على قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾(٣).

يقول :« أخبر تعالى أن نبيه محمداً ﷺ هو الله– تعالى – وتقدس وبيعته بيعة الله،

* – هو عامر بن عامر أبو الفضل عز الدين، مات فى أواخر القرن الثامن الهجرى.
١– راجع تائية ابن عامر : بتحقيق الشيخ المغربى ط دمشق سنة ١٩٤٨م
* – هو محمد بن اسحاق، توفى سنة ٦٧٣ هـ
٢– مراتب الوجود، مخطوط، نقلا عن «الإنسان الكامل ص ١١٥ د / بدوى
* – هو عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى توفى سنة ١١٤٣ هـ
٣– سورة الفتح، آية ١٠

ويده التى مدت للبيعة هى يد الله» ويفسر قول الله لموسى ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾[١] بقوله : «بأن تكون أنا، وأكون أنا أنت، فاستمع لما يوحى إليك منى، وهذا نظير حديث الانسان الغافل لنفسه،تحدثها وتحدثه» ويفسر قوله سبحانه لموسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[٢] بقوله أى ذاتى فأظهر بك، وتغيب أنت، وتظهر أنت وأغيب أنا، وما هى اثنان، بل عين واحدة[٣]

* **الدمرداش**[*] يقول :

لقد كنت دهرًا قبل أن يكشف الغطا ... أخالك أنى ذاكر لك شاكر

فلما أضاء الليل أصبحت شاهدًا ... بأنك مذكور وأنك ذاكر

* **ابن عجيبة**[*] قال أيضا :

أرب وعبد : ونفى ضد ؟ ... قلت له : ليس ذاك عندى

فقال : ما عندكم ؟ فقلنا ... وجود فقد ، وفقد وجد

توحيد حق بترك حق ... وليس حق سواى وحدى[٣]

* ويترتب على وحدة الوجود «وحدة الأديان»

فلاسفة المتصوفة يؤمنون بوحدة الوجود، وهذه يترتب عليها وحدة الأديان، فلذلك يقرون – وعلى رأسهم «ابن عربى» أن جميع المشركين والوثنيين أنهم جميعا على حق، لأن الله هو كل شىء، فمن عبد صنمًا أو عبد حجرًا أو شجرًا أو انسانًا أو كوكبًا فقد عبد الله.

١– سورة طه، آية ١٣ ٢–سورة طه آية ٣٩

٣– عن رسالة اسمها «حكم شطح الولى» للنابلسى : مخطوطة رقم ٤٠٠٨

*– هو محمد الدمرداش المحمدى توفى سنة ٩٢٩ هـ

*– هو أحمد بن عجيبه الأدريسي الفاسى – توفى فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى

٣– راجع بتوسع هذه هى الصوفية ص ٧٣ – ٨٢

فيقول «ابن عربى» فى ذلك : والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه، ولذلك سموه كلهم إلهًا مع اسمه الخاص بحجر أو شجر، أو حيوان أوإنسان، أو كوكب أو ملك[١].

فابن عربى يصوب عبادتهم لأن كل ما عبدوه ليس إلا ربًا تجلى فى صورة انسان أو شجر أو حجر.

* فإذا كفرت الصابئة لأنهم عبدوا الكواكب، وكفرت اليهود لأنهم عبدوا العجل وكفرت النصارى لأنهم عبدوا «عيسى عليه السلام« وكفرت قريش قبل الإسلام – ومن هو على شاكلتها – لعبادتهم الأصنام.

فكيف لا يكفر من يدعو إلى عبادة كل هذه الأشياء ؟[٢]

* ويعترف «ابن عربى» بإيمانه بوحدة الأديان، وأن قلبه يتسع لكل ملة ودين، فيقول فى كتابه « ذخائر الأعلاق، شرح ترجمان الأشواق »:[٣]

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى	إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
لقد صار قلبى قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه فالدين دينى وإيمانى

ويحذر « ابن عربى» أتباعه أن يؤمنوا بدين خاص ويكفروا بما سواه، فيقول «فى الفصوص» :[٤]

فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه ، فيفوتك خير كثير بل يفوتك العلم

١–فصوص الحكم ص ١٩٥

٢– هذه هى الصوفية ص ٣٨

٣– ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق لابن عربى

٤– فصوص الحكم لابن عربى ص ١٩١

بالأمر على ماهو عليه، فكن فى نفسك هيولياً - أى قابلاً لصور المعتقدات كلها - فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد، فالكل مصيب وكل مصيب مأجور، ولذلك « فابن عربى» يحكم بنجاة فرعون موسى، ويقول معقباً على قوله تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾[١] فبه قرت عين فرعون بالإيمان الذى أعطاه الله عند الغرق فقبضه طاهراً مطهراً ليس فيه شىء من الخبث»[٢] فهو يحكم لفرعون بالإيمان مخالفا لنص القرآن الكريم فى آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾[٣]

ويقول «عبد الكريم الجيلى» المتوفى سنة ٨٣٠ هـ، مبيناً عقيدته بوحدة الأديان، وذلك فى كتابه «الإنسان الكامل»[٤]

وأسلمت نفسى حيث أسلمنى الهوى	ومالى عن حكم الحبيب تنازع
فطوراً ترانى فى المساجد راكعاً	وإنى طوراً فى الكنائس راتع
إذا كنت فى حكم الشريعة عاصياً	فإنى فى علم الحقيقة طائع

فلا فرق عند الجيلى بين المسجد والكنيسة وأنه وان كان عاصياً لأمر الله فى ظاهر الشرع - على حد زعمه - فإنه فى الباطن مطيع، لأنه اطاع إرادة الله.[٥] .

وهذا يستلزم أن الايمان والتوحيد عين الكفر والشرك، وأن الاسلام - على هداه وقدسه - عين الدين المجوسى فى ضلاله ورجسه.

١- سوره القصص ٩

٢- فصوص الحكم ص ٢٠١

٣- سورة النازعات، آية ٢٥

٤- الانسان الكامل للجيلى جـ ١ ص ٦٩

٥- حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة ص ٢٧ - ٣٠ بتصرف

وهذا «ابن عربى» يصيح مرة أخرى بذلك فيقول :

عقد الخلائق فى الإله عقائداً   وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه[1]

وهذا «ابن الفارض» يقول فى تائيته الكبرى :

فبى مجلس الأذكار سمع مطالع   ولى حانة الخمار عين طليعة
وما عقد الزنار حكما سوى يدى   وإن حل بالإقرار بى فهى حللت
وإن نار بالتنزيل محراب مسجد   فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
وأسفار توراة الكليم لقومه   يناجى بها الأحبار فى كل ليلة
وإن هز للأحجار فى البد عاكف   فلا وجه للإنكار بالعصبية
ومازاغت الأبصار من كل ملة   وما زاغت الأفكار من كل نحلة
وما احتار من للشمس عن غرة صبا   وإشراقها من نور إسفار غرتى
وإن عبد النار المجوس، وما انطفت   كما جاء فى الأخبار فى ألف حجة
فما قصدوا غيرى، وإن كان قصدهم   سواى وإن لم يظهروا عقد نية

* حانات الخمر، ومواخير الخطايا، وصلوات اليهود، وبيع النصارى، وهياكل المجوس والصابئة ، وبيوت الأصنام ومجالس الذكر ، ومساجد الله ، كلها عند «ابن الفارض» ساح فساح يعبد فيها الله عبادة يحبها ويرضاها، لأنه المعبود فيها والعابد.

وهذا المشرك العاكف على الأصنام يسجد لصخورها الصم، وهذا الصابئ والساجد فى معبد الكوكب، وهذا المجوسى يتبتل بضراعته إلى النار، وهذا اليهودى التائه يريق الدموع على مبكاه، ويؤجج سعير الحقد على الله، كل هؤلاء عند ابن الفارض على بينة من الهدى والفرقان، فما هم فى دينه إلا الذات الإلهية متعينة فى صور بشرية !!![2]

١- شرح الفصوص لعبد الرحمن جامى، (شرح الفص الهودى)

٢- هذه هى الصوفية ص ١٢٠ - ١٢١

* آثار عقيدة «الوحدة والحلول» عند المتصوفة المُحدثين :

الحديث عن « وحدة الوجود أو الاتحاد والحلول» كثر فى كتب الأقدمين من فلاسفة المتصوفة على وجه الخصوص، ونجد الكثير من المُحدثين من يتغافل عنها ويتناساها، وكان من الممكن أن نفعل ذلك حتى تذهب أدراج الرياح، أو تموت مع ما مات من الجاهليات، شأنها فى ذلك شأن أى باطل، قد يظهر حينا من الزمان، ولكن سرعان ما يتبدد ويزهق مع ظهور الحق ووضوحه، فإذا بالباطل لجلج، وبالحق أبلج، و﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1]

لولا أننا رأينا فى عالمنا المعاصر بعض أئمة طرق الصوفية من يعيد هذا الباطل إلى الواقع مرة أخرى، فنقرأ ونسمع عمن يقول منهم : «سبحانى سبحانى ما أعظم شأنى»

أو يقول : « أنا الله» وأمثال هذا يستعيد به باطل «ابن الفارض»، وكفر «الحلاج»، وزندقة «ابن عربى»، وهراء أصحاب الاتحاد والحلول، هذا جانب، فضلا عن وجود ملامح تلك النظرية الكافرة فى كتب المتصوفة وأورادهم، يرددها العوام فيها دونما يفهمونها أو يعرفون أنها «وحدة وجود واتحاد وحلول».

ومثل ذلك «فى أورادهم اليومية والأسبوعية» : « اللهم صل على الذات المحمدية، اللطيفة الأحدية ،شمس سماء الأسرار، ومظهر الأنوار، ومركز مدار الجلال، وقطب فلك الجمال»[2]

«اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار. وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق. وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقه، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب (كما قيل) الموسوط، صلاة تليق بك منك

١- سورة الإسراء، آية ٨١

٢- مجموعة أوراد الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية ص ٢٦ «الصلاة المحمدية الذاتية »واللآلىء السنية فى أوراد الطريقة الخلوتية ص ١٧

إليه كما هو أهله، اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك، اللهم ألحقنى بنسبه، وحققنى بحسبه، وعرفنى إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل، واحملنى على سبيله إلى حضرتك حملا محفوفًا بنصرتك ، واقذف بى على الباطل فأدمغه، وزج بى فى بحار الأحدية، وانشلنى من أوحال التوحيد، وأغرقنى فى عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها، إجعل الحجاب الأعظم حياة روحى وروحه، سر حقيقتى وحقيقته جامع عوالمى بتحقيق الحق الأول . . » (١)

وقولهم : «اللهم صل على سيدنا محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك، وإمام حضرتك، وطراز ملكك، وخزائن رحمتك، وطريق شريعتك، المتلذذ بتوحيدك، إنسان عين الوجود، والسبب فى كل موجود، عين أعيان خلقك، المتقدم من نور ضيائك » (٢)

« اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد النور الذاتى، والسر السارى فى سائر الأسماء والصفات »(٣) وأمثال هذا فى أورادهم، بها يقعون فى الشرك من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

***

١- مجموعة أوراد الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية ص ٢٨ - ٣٠ صلاة ابن بشيش، واللآلىء السنية فى أوراد الطريقة الخلوتية ص ١٤ و ١٦

٢- اللآلىء السنية فى أوراد الطريقة الخلوتية ص ١٩ و ٢٠

٣- اللآلىء السنية فى أوراد الطريقة الخلوتية ص ٢٢

* الفارق بين وحدة الوجود، ووحدة المشاهدة :

وحدة الوجود نظرية باطلة، فضلا عن الاتحاد والحلول، بل هى نظرية كافرة ولا يقول بها إلا كافر، وقد يعتذر البعض بأنها وحدة مشاهدة وليست وحدة وجود، وشتان بين الاثنين.

يقول الشيخ محمد الغزالى:[١] « إن وجود الله مغاير لوجود سائر المخلوقات وذا العالم عن ذاته جل شأنه انفصالاً تاماً.

وقد تسمع بعض الفلاسفة أو بعض المتصوفين يقول: إنه يرى الله في كل شيء وهذا التعبير صحيح إن كان يعني أنه يرى آثاره وشواهده.

أما إن كان يعني وحدة الخالق والمخلوق، أو وحدة الوجود كما يهرف الكذبة، فالتعبير باطل من ألفه إلى يائه والقول بهذا كفر بالله والمرسلين .

وفي الحقيقة نحن أمام أصحاب الأقوال السابقة لا نجد فيها مايسعفنا بأن نؤولها إلى وحدة المشاهدة.

* * *

١ـ الجانب العاطفي في الإسلام– محمد الغزالي ص ١٤٥

* **بطلان نظرية «وحدة الوجود»**:

يفترى الصوفية أنهم الذين يعرفون الله معرفة لا يمسها ريب ولا يشوبها شبهة، ويصمون المسلمين بعمى البصيرة وعمه العقل، وجمود العاطفة وفساد الذوق، وخمود ذوق الحياة في الشعور، والإغراق العميق السحيق في المادية الصماء والجمود الأحمق على عبادة التاريخ، ومازالت تلك دعواهم، فما الرب الذي يعبدونه، وإذا شئت إحكام الدقة فسلهم: ماالرب الذي اختلقوه ثم عبدوه؟

إن الذي يريد أن يعرف رب فلاسفة المتصوفة فليقرأ من «الفتوحات المكية» أو «فصوص الحِكَم» أو «ترجمان الأشواق» أو «عنقاء المغرب» أو «مواقع النجوم» وكلها لابن عربي. أو يقرأ «الإنسان الكامل» للجيلي، أو «تائية ابن الفارض» وشرحها للنابلسي أو القاشانى ، أو «الطبقات الكبرى، والجواهر، والكبريت الأحمر» للشعراني أو «الإبريز» للدباغ أو« الجواهر، والرماح» لليتجانية، «وروض القلوب المستطاب» لحسن رضوان، أو حتى «مجموع الأوراد» و «دلائل الخيرات» و«أحزاب» يتعبدون بها في العشايا والأسحار.

إن الصوفية تنعت «ابن عربي» «بأنه» «الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر».

و«الجيلي»، بأنه «العارف الرباني والمعدن الصمداني و«ابن الفارض» بأنه «سلطان العاشقين».

والشعراني بأنه «الهيكل الصمداني، والقطب الرباني».

فما أدعوك إذن إلى قراءة كتب تنقم منها الصوفية - دلائل الحق وإشراق الهدى - بل إلى كتب تقدسها الصوفية على اختلاف نوازعهم وتباين أهوائهم.

فإذا قرأت وتدبرت أدركت أن هؤلاء المتصوفة يؤمنون برب تجسد فى أحقر الصور، وتمثل فى أنتن الجيف وتتمثل حقيقته الوجودية صور أوهام فى الذهن الكليل، وظنون حيرى فى الفكر الضليل، وتهاويل أسطورية فى الخيال. ألم تؤله الصوفية فى

دين كاهنها « التلمساني » رمة كلب تقزز من صديدها الدود[١]

إذ مر «التلمساني» على كلب أجرب ميت في الطريق، فقال له رفيق له - وكان التلمساني يحدثه عن وحدة الوجود : -

أهذا أيضا هو ذات الله ؟ - مشيراً إلى جثة الكلب - فقال التلمساني : نعم الجميع ذاته، فما من شيء خارج عنها

وأنشد : ما الكلب والخنزير إلا الهنا وما الرب إلا راهب في كنيسة [٢]

إن خطر «وحدة الوجود» وبطلانها مما عرفه القاصي والداني، والصديق والعدو فهذا «نيكلسون» يقول : «إن الاسلام يفقد كل معناه، ويصبح اسماً على غير مسمى، لو أن عقيدة التوحيد المعبر عنها - بـ « لا إله إلا الله» أصبح المراد بها : لا موجود على الحقيقة إلا الله. وواضح أن الاعتراف بوحدة الوجود في صورتها المجردة قضاء تام على كل معالم الدين المنزل ، ومحو لهذه المعالم محواً كاملاً»[٣]

حقيقة ساطعة، يقررها مسيحي، ويكفر بها شيوخ كبار يزعمون أنهم أحبار الدين وأئمته.

***

١ـ هذه هي الصوفية ص ٣٤ و٣٥ بتصرف.

٢- مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ص ١٤٥ بتصرف.

٣- في التصوف الإسلامي، للمستشرق نيكلسون ترجمة الدكتور/ عفيفي.

* بطلان نظرية الاتحاد والحلول «عقلا»

زعمت طوائف من البشر الاتحاد بين الخالق والمخلوقات، أو حلوله فيها كما انغمس كثير من المنتسبين للتصوف فى القول بالاتحاد، والحلول ووحدة الوجود ، ويعنينا هنا أمران : الأول: إبطال هذه المذاهب الفاسدة بالعقل والشرع، وبيان العقيدة الإسلامية الصحيحة فى هذا.

الثانى : إثبات أخطاء من قال من الصوفية بالحلول أو الاتحاد، وتأييد رد «ابن تيمية» عليهم فى ذلك.

* القائلون بالحلول :

وهذا الحلول أو ذلك الاتحاد لايخرج عن كونه خاصًا أو عامًا، وهذه صوره، أو أقسامه

القسم الأول: القائلون بالحلول الخاص. وهو حلول اللاهوت فى الناسوت.

القسم الثانى: القائلون بالاتحاد الخاص ويقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء.

القسم الثالث : القائلون بالحلول العام. الذين يقولون : إن الله بذاته فى كل مكان.
القسم الرابع : القائلون بالاتحاد العام. وهو قول الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات.

* إبطال كل صور الحلول والاتحاد عقلا : (بطلان الاتحاد)

لو اتحد شيء بآخر، فإن الاحتمالات الفعلية التى لا مفر من وجود أحدها بعد الاتحاد كما يلى :

١- أن يفنى الشيئان المتحدان بعد الاتحاد ويزولا، فلا اتحاد حينئذ.
٢- أن يبقى الشيئان المتحدان بعد الاتحاد موجودين بذاتيهما، فلا اتحاد ايضا.
٣- أن يزول واحد من الشيئين ويبقى واحد، وهذا لا يقال عنه اتحاد.
٤- أن يزول كل واحد منهما ويظهر شيء جديد. فإن كان هذا الشيء الجديد غير

الشيئين السابقين فلا اتحاد أيضًا لبقاء الشيئين بعينهما، إن اجتمعا فى شىء واحد فيقال اجتمعا ولا يقال إتحدا .

* فاتحادشىء بشىء باطل مطلقًا سواء كان الشيئان ممكنين أو واجبين، أو ممكنًا وواجبًا.

بل يمتاز بطلان اتحاد الممكن بالواجب بدليل آخر قوى. هو أنه اذا اتحد الواجب بالممكن وقد بقى الواجب على وجوبه والممكن على امكانه اجتمع الوجوب والإمكان فى شىء واحد، وهو محال عقلاً.

وإن زال وجوب الواجب أو إمكان الممكن صار الواجب ممكنًا بالاتحاد، أو الممكن واجبًا، وهذا محال عقلاً أيضًا.

(**بطلان الحلول**) : الحلول باطل من وجوه متعددة نقتصر منها على وجهين :

الوجه الأول :

الحلول هو استقرار الحال فى المحل بأى نحو من أنحاء الاستقرار، سواء كان استقرار جسم فى مكان أو عرض فى جوهر، أو صورة فى مادة أو إمتزاج شىء بآخر وسريانه فيه كالماء فى العود الأخضر والنار فى الهشيم.

* هذا الحلول بكل هذه المعانى لا يجوز على الواجب قطعًا. فإن من عوارض الماديات والواجب ليس بمادى. بل متنزه عن المادة وعوارضها، وإن قيل بحلول المجردات عن المادة كحلول الصفة فى موصوف، يقال فى الجواب :

والله عز وجل منزه عن الاحتياج، بل هو محال عليه عز وجل فهو الغنى بذاته عن كل ما سواه.

وإن قيل إن الجسم قد يحل فى محل مع استغنائه عن خصوص ذلك المحل، يجاب على ذلك بأن الجسم إذا كان مستغنيًا عن محل بعينه فهو محتاج إلى مطلق محل. فلا مناص إذًا من الاحتياج. والاحتياج محال على الله عز وجل.

الوجه الثاني :

إذا كان الحال محتاجا إلى المحل بذاته لزم إمكان ذلك الحال، وإن كان غير محتاج لذلك امتنع حلوله. فإن قيل : قد يكون غير محتاج بذاته إلى المحل ولكن يعرض له الاحتياج أحيانًا، يجاب على ذلك :

بأنه إذا لم يكن محتاجًا بذاته فلا يمكن أن يعرض له الاحتياج بالغير حتى يصح حلوله، بمعنى أنه إذا كان مستغنيًا بذاته عن المحل فلا يمكن أن يتوقف استغناؤه مرة فيعرض له من الخارج الاحتياج إلى المحل لأن ما بالذات لا يختلف.

وبعد، فكما استحال الاتحاد والحلول على ذات الله تعالى، فكذلك يستحيل اتحاد صفاته أو حلولها فى شىء من صفات المخلوقين أو ذواتهم، لنفس الأسباب التى تقدم ذكرها.

فإن اتحاد الصفات وحلولها فى غير صاحبها أولى بالاستحالة من غيره، إذ لا يعقل انتقال صفة شىء عن ذاته وتلبسها بعينها فى آخر، فإن افترض انتقالها لم تبق من صفات الأول لانتقالها عنه، فلا يقال حلت صفته فى آخر.[1]

* إن زعم بعض الصوفية أن الواحد منهم قد يصل إلى مرحلة ينكشف له فيها أن الحق هو الخلق والخلق هو الحق، ولا فرق بينهما مطلقًا، بل لا اثنينية، فالكثرة متوهمة والحقيقة واحدة.

ولقد عبر كل منهم بأسلوبه عن هذه الفرية العظيمة مدعين أنهم يكشفون للناس أسراراً عظيمة لايجوز البوح بها إلا لمن هم فى منزلتهم من المعرفة المزعومة.

وقد قال بعضهم بمثل كلام الحلولية الذين يرون أن الذات الإلهية تحل أو تتحد ببدن الإنسان أو روحه حينًا وتفارقه حينًا آخر، وقال بعضهم بأكثر من ذلك بكثير[2].

* إن أصحاب نظرية الاتحاد والحلول أسوأ حالاً وأفسد مقالاً ممن يقول بالحلول

١- رسالة «موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية » ص ١٦٨- ١٧٠ بتصرف.

٢- رسالة موقف ابن تيمية من التصوف ص ١٧١ بتصرف.

الخاص أو المقيد مثل النصارى الذين يقولون بحلول الذات الإلهية فى عيسى عليه السلام ونحوهم.

أما هؤلاء فيرون أنه حال فى كل شىء حلولاً مطلقاً.

* هل يبقى عقل لمن يقول بأن الكثرة المحسوسة الملموسة المشاهدة التى يعيشها هو وغيره إنما هى كثرة فى الخيال لا فى الواقع.

* هل يبقى عقل أو بقية عقل لمن يقول إن السيف الذى يقطع به رأس الكافر هو الكافر، أو أن الكافر هو السيف، وأن الكثرة وهم خيال.

* فهذا هو مذهب الضلال ينحدر من سئ إلى أسوأ. وكلما حاول واحد من أصحابه أن يزينه ويقدمه فى ثوب جديد ظهر من عواره وفساده ما لم يكن ظاهراً من قبل.

يقول شيخ الاسلام «ابن تيمية» : (واعلم أن المذهب إذا كان باطلاً فى نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يتصور تصورا حقيقيا، فإن هذا لا يكون إلا للحق، فأما القول الباطل، فاذا بين فبيانه يظهر فساده حتى يقال :كيف يشتبه هذا على أحد.

ويتعجب من اعتقادهم إياه، ولا ينبغى للإنسان أن يعجب، فما من شىء يتخيل من أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس، ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات، وأنهم «صم بكم عمى» وأنهم «لايفقهون» و «لايعقلون» وأنهم ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [1])[2].

* * *

١- سورة الذاريات آية ٨، ٩ .

٢- مجموعة الرسائل لابن تيمية جـ ٤ ص ٧ .

* بطلان نظرية الاتحاد والحلول «شرعاً»

والجواب على كل هؤلاء لا يحتاج إلى كبير عناء من المرء المؤمن بما فى كتاب الله وسنة نبيه، وما اشتهر من الدين الاسلامى، وأصبح معلوماً منه بالضرورة. وقد ذكرنا بطلان الاتحاد والحلول عقلاً، هذا فضلاً عما ذكر فى عرضنا لكلامهم وتحليلاً لآرائهم، وما ترتب عليها من كفر صريح أو تكذيب واضح بالقرآن الكريم، واتهام شنيع لأنبياء الله ورسله، وتزكية لأهل الباطل وأصحاب الملل الكافرة. والأرباب الزائفة أمثال فرعون، والنمرود، وعبدة المسيح، وعبدة العجل وغير ذلك.

نقول : فالكل يعلم أن الخالق غير المخلوق، وأن الرب غير المربوب، بل لقد أفحم القرآن الكريم المشركين وأخرسهم حين سألهم ذلك السؤال العقلى الذى لا جواب عليه بغير الاعتراف بأنه الخالق عز وجل وأنه غير هذه المخلوقات قطعاً ، قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[1].

فلم يجرؤ أحد المشركين حينذاك أن يدعى أنه خلق من غير شىء، كما لم يجرؤ أحد منهم أن يدعى أنه هو خالق نفسه، كما يزعم هؤلاء الصوفية مخالفة للشرع والعقل، فضلاً عن أن يدعى أنه خلق هذه الأجرام الهائلة التى لا يعلم مدى عظمها وقوانين تسييرها إلا الله عز وجل[2].

بل إن «النمرود» وقد زعم لنفسه الألوهية، عجز أن يغير مسار الشمس، قال تعالى ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3]

وفرعون قد زعم لنفسه الربوبية، وقد عجز أن يفعل شيئا مع الناس أو مع السحرة،

---

١ - سورة الطور، آية ٣٥، ٣٦ .

٢ - موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٨٤ ، ١٨٥ بتصرف .

٣ - سورة البقرة ، آية ٢٥٨ .

فضلاً عن نفسه، وقد أصابه الغرق . ! !

وإن الذين عبدوا «عيسى عليه السلام» ما زعموا أنه خلق أفقًا فى السماء، أو ركنًا فى الأرض

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[١].

* ومع وضوح بطلان مذهب هؤلاء الملاحدة وما فيه من كفر، فقد اغتر بهم كثير من الناس، خاصة على عهد «ابن تيمية» مما حدا به «رحمه الله» إلى تأليف الرسائل الكثيرة فى بيان فساد هذا المذهب وضلال أتباعه، مجملاً القول فى بعضها ومفصلاً فى بعضها الآخر.

ومما قاله شيخ الاسلام «ابن تيمية رحمه الله» : (وأما ما جاء به هؤلاء من الاتحاد العام فما علمت أحدًا سبقهم إليه إلا من أنكروا وجود الصانع مثل فرعون والقرامطة، وذلك أن حقيقة أمرهم أنهم يرون أن عين وجود الحق هو عين وجود الخلق، وأن وجود ذات الله خالق السموات والأرض هو نفس وجود المخلوقات فلا يتصور عندهم أن يكون الله تعالى خلق غيره، ولا أنه رب العالمين ولا أنه غنى وما سواه فقير»[٢].

ولقد بين «ابن تيمية رحمه الله» فى غير موضع من كتبه أن مجرد تصور مذهب هؤلاء على حقيقته كاف فى بيان بطلانه لأنه لا يقول بمثل كلامهم هذا عاقل فضلاً عمن يؤمن بالله ورسوله ويدعى الإسلام

إن الحق واضح أبلج، واشفاقًا على الصوفية أن يجدوا مشقة فى إبصار الحق المتلألئ ، أذكرهم بهدى الله من كتابه الحق، ليعرف حقيقة النور من يخبط فى تيه الظلام، ويدرك الحق من دوخه الباطل، وينعم بالتوحيد من شقى بالشرك، ولعل

١ – سورة الحج آيه ٧٣ ، ٧٤ .

٢ – مجموعة رسائل لابن تيمية جـ٤ ص ٧ .

الصوفى الضليل يتخذ من التذكير بآيات الله منجاة له، فيجعلها حكمًا يصدع بالحق والعدالة فى شأن الصوفية.

يقول رب العالمين : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(١).

ويقول تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾(٢)

يقول سبحانه : إنه خالق السموات والأرض، فتقول الصوفية، لا، بل هو عين السموات والأرض وما فيهم من دابة.

ويقول سبحانه : إنه يدبر الأمر، فتصرخ الصوفية: لا بل نحن الذين يدبرون الأمر له.

ويقول الله : «ذلكم الله ربكم، فاعبدوه» ، فيضج كل طاغوت صوفى. لا، بل أنا الله، لا إله الا أنا.

ويقول جل شأنه : «إليه مرجعكم جميعًا»، فتزعم الصوفية : أن معنى الرجوع هنا أن تعود الذات المتكثرة إلى وحدتها

فتعود حقا، بعد أن كانت خلقا. ! ! !

قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٣)

١- سورة مريم، اية ٩٢ - ٩٤ .

٢- سورة يونس، آية ٣ ، ٤ .

٣- سورة الزمر آية ٢ - ٤ .

ويقول عز من قائل : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1]

وتزعم الصوفية أن الله هو الذى جعل نفسه أزواجًا، فبدأ حقًا فى صورة خلق أو إلهًا فى صورة عبد .

والله يقول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهى تزعم – كما عرفت – « أنه هو عين كل شىء » « وهو السميع البصير » فيقولون : بل هو عين كل سميع، وعين كل بصير

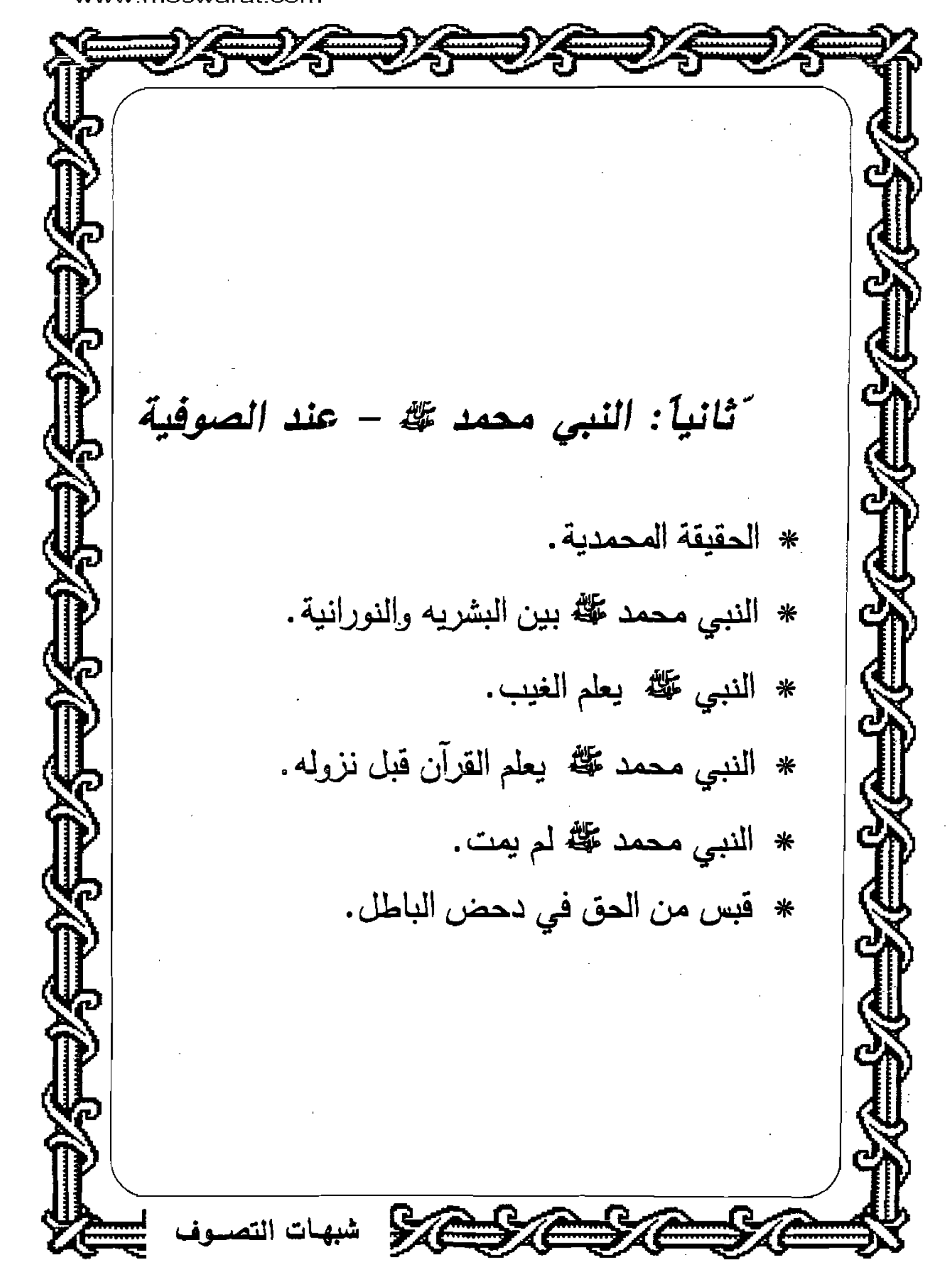
ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

وتقول الصوفية : بل كل شىء هو له كفو، إذ كل شىء فى الوجود هو الذات الإلهية.

فأين من هذا التوحيد المشرق بالحق الأعظم تلك الأساطير المجوسية التى ينعق بها «ابن عربى» وينعت بها « ابن الفارض» وينبح بها «الجيلى» وتعوى بها الصوفية [2]

١– سورة الشورى آيه ١٠ ، ١١

٢– هذه هى الصوفية ص ٨٣ – ٨٥ بتصرف



ثانياً: النبي محمد ﷺ - عند الصوفية

* الحقيقة المحمدية.
* النبي محمد ﷺ بين البشريه والنورانية.
* النبي ﷺ يعلم الغيب.
* النبي محمد ﷺ يعلم القرآن قبل نزوله.
* النبي محمد ﷺ لم يمت.
* قبس من الحق في دحض الباطل.

ثانياً : النبي محمد ﷺ عند الصوفية

(أ) * الحقيقة المحمدية

لقد ذهب أهل التصوف فى النبى محمد صلى الله عليه وسلم مذاهب شتى، فمنهم من يرى أنه حقيقة الذات الإلهية، ومن يرى أنه نور من نور الله، وأنه كان يُعَلِّمُ جبريل القرآن، بل كان هو الذى ينزله عليه.

فالذين يؤمنون بوحدة الوجود من فلاسفة المتصوفة وغيرهم يرون - كما رأوا قبل ذلك - أن الوجود الإلهى له أطوار ومراتب. أو تعينات ونسب، أو تنزلات وإضافات، وكلها ذات مدلولٍ واحد، وأولى تلك المراتب «العماء» والوجود الإلهى فى هذا الطور لا يوصف بوصف، ولا يسمى باسم، ولا يعرف بحد ولا برسم، وقد يسمى الرب الصوفى فى تلك المرتبة بالوجود المطلق.(١)

ولقد أراد هذا العماء، أو الوجود المطلق« أن يتعين فى صورة ليُعرف وليَعرف نفسه - وهذا علة وضع الحديث الصوفى «كنت كنزاً مخفيًا، فأردت أن أُعرف، فخلقتُ الخلقَ، فبى عرفونى» ويفسر الصوفية « فبى » بكلمة «محمد» لأنها تساويها فى حساب الجمل - فتعين فى صورة «الحقيقة المحمدية» فكانت هى التعين الأول للذات الإلهية ، أو الفتق بعد الرتق، أو معبر الوجود من الإطلاق إلى التقييد أو من العماء إلى الأحدية ثم الواحدية.

ولذلك يعرف الصوفية «الحقيقة المحمدية» بقولهم : هى الذات مع التعين الأول، ولها الأسماء الحسنى وهى اسم الله الأعظم»(٢)

فمحمد الصوفية ليس بشرًا ولا رسولاً، وإنما هو الذات الإلهية فى أسمى مراتبها.

ولا تعجب - يا أخى - من هذا الاعتقاد - وإن كان فاسدًا - فالذى يعتقد بحلول الذات الإلهية فى صنم وفرعون، وفى كلب وراهب، وعاهرة وخنزير - كما علمت

١- جامع الأصول للكمشخانلى ص ٩٣ بتصرف .

٢- المرجع السابق .

قبل – يمكن أن يعتقد بأن الذات الإلهية هى محمد أو محمد هو الذات الإلهية، مع شىء من سمو المرتبة، ورفعة المنزلة.

وهذه بعض أقوال الصوفية حول الحقيقة المحمدية :

يقول الدمرداش : «حقيقة الحقائق هى المرتبة الإنسانية الكمالية الإلهية الجامعة لسائر المراتب كلها وهى المسماة بحضرة الجمع، وبأحدية الجمع، وبها تتم الدائرة، وهى أول مرتبة تعينت فى غيب الذات وهى الحقيقة المحمدية»(١).

ويقول الكمشخانلى : «صور الحق هو محمد، لتحققه بالحقيقة الأحدية والواحدية»(٢)

فمحمد صلى الله عليه وسلم – عندهم – هو الاسم الأعظم، فما الاسم الأعظم ؟ إنه «الجامع لجميع الأسماء» ، أو هو اسم الذات الإلهية من حيث هى هى أى المطلقة»(٣).

ومحمد هو الأحدية، فما هى ؟ إنها «مجلى الذات الإلهية، ليس للأسماء ولا للصفات ولا شىء من مؤثراتها فيه ظهور، فهى اسم لصرافة الذات المجردة من الاعتبارات الحقية(٤) والخلقية(٥)» ومحمد هو الواحدية، فما هى عندهم ؟ إنها :«عبارة عن مجلى ظهور الذات فيها صفة، والصفة فيها ذات»(٦)

والفرق بين الأحدية والواحدية : « أن الأحدية لا يظهر فيها شىء من الأسماء، والصفات، أما الواحدية فتظهر فيها الأسماء والصفات»(٧)

١- رسالة فى معرفة الحقائق لمحمد الدمرداش ص ٧ .

٢ – جامع الأصول ص ١٠٧

٣- جامع الأصول ص ٩٢

٤- أى لا توصف بأنها حق

٥ – ولا توصف بأنها خلق فى تلك المرتبة

٦- جامع الأصول للكمشخانلى : (مادتى الأحدية والواحدية، والإنسان الكامل للجيلى جـ١ ص٣٠)

٧- جامع الأصول (مادتى الأحدية والواحدية)

وبهذا يتجلى لك أن فلاسفة الصوفية تعتقد فى النبى محمد ﷺ أنه هو الله سبحانه ذاتًا وصـفاتًا، وأنه هو الأول والآخـر والظاهر والبـاطن، وأنه هو الوجـود المطلق، والوجود المقيد، وأنه كـان ولا شىء قبله، أو معه، ثم تعين فـى صور مادية سـمى فى واحدة منها بجماد، وأخرى بحيوان.

وهكذا حتى اندرج تحت اسمه كل مسمى، وصدقت ماهيته على كل ماهية

ونتساءل : ترى هل يصدق كل بشر أنه هو ذات الله واسمه الأعظم ؟

إن فى مذهب التـصوف ما يسـتلزم هذه الزندقة، بل يستلزم إطلاق تلك الصـفات والأسماء على فرعون وأبى جهل – وغيـرهما من طواغيت الكفر – فيصف كلا منهم بأنه : هو الوجود الالهى فى تعينه الأول، إذ كلهم بشر ! !

وتزعم الصوفية أن شأن محمد هو شأن الله ! !

اسمع إلى صوفى يقول : « شأن محمد فى جميع تصـرفاته شأن الله، فما الوجود الا محمد»

ويقول : « لا يُدرى لحقيقته غاية، ولا يعلم لها نهاية، فهو من الغيب الذى نؤمن به»

ويقول :« ولما كانت بشريته ﷺ نوراً محضاً، كانـت فضلاته مـقدسـة طاهرة، ولم يكن لجسمه الشريف ظل كالأجسام الكثيفة، وهذا النور المحمدى هو المعنى بروح الله المنفوخ فى آدم، فروح الله محمد»[1]

ويقول «ابن عربى» : [2] »اللهم افض صلة صلواتك وسلامـة تسليماتك على أول التـعينات المـفاصلة من العـمـاء الربانى، وآخـر التنزلات المضافـة الى النوع الإنسـانى، المهـاجر من مكة – كـان اللهَ ولم يكن مـعه شئ ثـان – إلى مدينة، وهى الآن على مـا عليه كـان، محـصى عوالم الحـضرات الخمس فى وجوده، سر الهـوية فى كل شىء سارية، الجامع بين العبودية والربوبية الشامل للإمكانية والوجوبية.

١- كتاب «النفحات القدسية» للبيطار ص ٩ ، ١١ ، ١٣ بتصرف
٢- مجموعة الأحزاب ص ٢ ط استامبول سنة ١٢٩٨ هـ

* أرأيت إلى قطب الصوفية الأكبر فى غى إلحاده الأكبر، يفترى أن محمداً هو الله وقد نصب لفظ الجلالة باعتباره خبراً لكان، فيكون معنى الجملة «المهاجر من مكة هو الله»، وتأمل دهاء مكره فيما يعبر به عن كفره فى قوله : « المهاجر من مكة كان الله ولم يكن معه شىء ثان إلى المدينة» إنك حين تقرأ تلك الجملة دون تدبر ستظن أن فيها خللاً، وأن جملة «كان الله ولم يكن معه شىء ثان» لا صلة لها بما قبلها، ولا بما بعدها، وأعترف أنى خُدعت، فظننت أن هذه الجملة مقحمة، وحرت فى إدراك هدف «ابن عربى» من وضع تلك الجملة التى تبين عن حق كريم يبين باطل عربيد وآخر لئيم ! بيد أنى عدت إلى النص أتلوه، وفى فكرى دين ابن عربى، وثمت بدا لى هدفه فى وضوح وجلاء، وتبين لى أن الجملة لست مقحمة، وإنما هى لحمة دينه وسداه، فلنعد إلى الجملة نرتبها كما تحتم قواعد اللغة الصحيحة «المهاجر من مكة الى المدينة كان الله، ولم يكن معه شىء ثان» ، مازدنا شيئا على قوله ولا نقصنا منه، وكل ما فعلناه هو وضع قوله : «إلى المدينة» موضعه، بعد أن نأى به «ابن عربى» عنه، ليمكر به، ويلتوى على القراء فهمه ! !

* بهذا يبدو لك جليا أن ابن عربى يفترى أن المهاجر من مكة الى المدينة لم يكن هو محمداً رسول الله، وإنما كان هو الله متجليًا فى صورة اسمه فيها «محمد».

* ولا ريب فى أنك تعرف أن صاحب الرسول فى الهجرة كان أبا بكر، غير أن «ابن عربى» يقول : «ولم يكن معه شىء ثان» يعنى أن أبا بكر هو الآخر لم يكن إلا الله متعينا فى صورة اسمه فيها «أبو بكر»

* وكل هذا ينطلق من أصل واحد يقوم عليه الفكر الصوفى وهو وحدة الوجود.

* ومات محمد ﷺ، ومات من بعده أبو بكر، فأى إله هذا الذى يتجرع عضة الموت مرتين ؟

بل ذلك الاله الذى يموت ويحيا فى كل لحظة الآف المرات ؟ ! !

لقد دانت الصوفية بأن الرب الأكبر هو عين خلقه، وفى كل لحظة يعبر بها الوجود تفنى حياة، وتنبثق حياة، فيا للصوفية يعبدون ربا يموت آلاف المرات، ويولد آلاف

المرات فى آن واحد ! !.

* ومحمد الصوفية له مظهران، أو اعتباران، فهو عبد أو خلق باعتبار ظاهره، وهو رب أو حق باعتبار باطنه، ولهذا يصفه ابن عربى - باعتبار ظاهره - بأن له العبودية، ويصفه - باعتبار باطنه - بأن له الربوبية، ويصفه بأن له الإمكانية باعتبار ناسوته، وبأن له الوجوبية باعتبار لاهوته

والنابلسى فى شرحه لصلاة ابن بشيش يقول : « ما صلى على محمد إلا محمد، لأن صلاة العبيد عليه، صدرت منهم بأمره من صورة اسمه »[١]

ويقول الصوفية : «إنه ﷺ يحضر كل مجلس. أو مكان أراد، بجسده وروحه، وأنه يتصرف، ويسير حيث شاء فى أقطار الأرض، وفى الملكوت وهو بهيئته التى كان عليها قبل وفاته، لم يتبدل منه شيء[٢]

وهذه «كرة من الحق على الباطل»

* النبى محمد ﷺ - كما نعرفه : فاذا كان هذا الذى ذكر هو محمد الصوفية فنحن لا نعرفه، أما محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، فقد جلا لنا ربه وخالقه، ومن اصطفاه رحمة للعالمين، جلا لنا حقيقته فى قوله الحكيم ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[٣]

ترى هل يصدق كل بشر أنه هو ذات الله، واسمه الأعظم ؟ إن الدين الصوفى (مذهب فلاسفة المتصوفة) يستلزم هذه الزندقة، بل يستلزم إطلاق تلك الصفات والأسماء على فرعون وأبى جهل وغيرهما من طواغيت الكفر، فيصف كلاً منهم بأنه : هو الوجود الإلهى فى تعينه الأول، إذ كلهم بشر.

* ونحن نؤمن - كما هدى القرآن والسنة - بأن أول خلق الله هو القلم أو العرش، فمتى خلقت أسطورة الحقيقة المحمدية الصوفية ؟!

١- مجموع الأحزاب ص ٥٧٧ ط استانبول.

٢- كتاب: رماح حزب الرحيم لعمر بن سعيد الفونى جـ١ ص ٢١٩.

٣- سورة الكهف: آية ١١٠

ونعلم بالتواتر القطعى أن «عبد الله بن عبد المطلب» تزوج «بآمنة بنت وهب» وأنهما انجبا طفلاً سمى «محمد» وأنه نشأ نشأة الخير والطهر والشرف والكرامة، وضئ الطفولة، نقى الصبا، طهور الشباب، فلم يشب نقاء صباه ريبة، ولم تهتف بقدس شبابه نزغة هوى، ولا نزعة صبوة، فكانت دنياه كلها معبداً يطيب أصائله وعشاياه وأسحاره بذكر الله وحده.

* ونعلم أنه جد فى الحياة راعى غنم، ثم تاجراً، فكان فى حياته المثل الأعلى فى الجد القوى الصالح والأمانة التى تعتصم بالتقوى، والحكمة الحكيمة فى كل ما يصرف به شئون دنياه، والرعاية التى تقدس الحق والواجب لكل ما حمل من أمانة، وأنه كان فى أطوار حياته الكامل فى الأدب والخلق، وحكمة العقل وسمو العاطفة، ونباغة الفكر، وقوة الارادة، ومضاء العزيمة، وجلال الشرف، وعزة الكرامة، ونبل المرؤة، وكرم الإيثار، والنجدة، وسماحة النفس، فلم يغمر قلبه إلا حب الله، ولم تنزع به الإرادة إلا إلى الخير، ولا العاطفة إلا إلى السمو، ولا الفكر إلا فيما ينال به رضاء الله. جواداً مسماحاً فى سخائه وبره، محسناً كل الإحسان فى كل ما أنعم الله به عليه، فلم يغضب الا للحق، ولم يجبن إلا عن الذنب، ولم يطمع إلا فيما هو عند الله، ثم اصطفاه ربه خاتماً للنبين، فجاهد فى الله حق جهاده، وبلغ كل ما نزل إليه من ربه، وشهد الله له بذلك، ثم قبضه الله إليه بعد أن صارت كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فصلوات الله وسلامه عليه.

هذا قبس نستهدى به من حياة محمد ﷺ : فقل لى عن الحقيقة المحمدية، تلك الأسطورة الصوفية الموغلة فى تيه القدم والعدم، من أبوها؟ ومن أمها ؟ ومم خلقت ؟ ولمن أرسلت ؟ ! ![1]

(ب) زعم الصوفية أن النبى محمد ﷺ خلق من نور، وأن كل شىء من نور محمد، بهذا يدين الصوفية، وفيه يتغزلون، ولقد عبر الدباغ عن هذه الأسطورة، إذ يقول : «اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسماوات وأراضين وجنات وحجب، وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلها وجدت بعضها من نور النبى، وأن

١- هذه هى الصوفية عبد الرحمن الوكيل ص ٩٤ - ٩٦.

مجموع نوره، لو وضع على العرش لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التى فوق العرش لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها، ووضع ذلك النور العظيم لتهافتت وتساقطت»(١)

ويقول التيجانى : «لما خلق النور المحمدى، جمع فى هذا النور المحمدى جميع أرواح الأنبياء والأولياء جميعًا جمعًا أحديًا، قبل التفصيل فى الوجود العينى، وذلك فى مرتبة العقل الأول»(٢)

ويقول «الحلوانى» فى قصيدته « المستجيرة » يخاطب رسول الله :

أنشأك نوراً ساطعا قبل الورى ... فرداً للفرد، والبرية فى العدم

ثم استمد جميع مخلوقاته ... من نورك السامى، فيا عظم الكرم

فلذا إليك الخلق تفزع كلهم ... فى هذه الدنيا، وفى اليوم الأعم

واذا دهتهم كربة فرجتها ... حتى سوى العقلاء فى ذلك انتظم

جُدْ لى، فإن خزائن الرحمن فى ... يدك اليمين، وأنت أكرم من قسم(٣)

ولازلنا نسمع من يقول :

أنت بدر، أنت قمر ... والبدر جزء من نور محمد

وغير ذلك كثير وكثير، يُسمع منهم، ومعروف فى قصائدهم وكلامهم، وأذكارهم وأورادهم، فهم يقولون فى بعض صلواتهم على النبى ﷺ «اللهم صل على من منه انشقت الأنوار، وانفلقت الأسرار، وفيه ارتقت الخلائق . . » .

كما تزعم الصوفية أن النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وعرج به إلى ما فوق السبع الطباق، إلى أن بلغ مكانًا سمع فيه صريف الأقلام وتنحى جبريل، هناك حل الجزء بالكل، أى عاد جزء النورانية المحمدية إلى النورانية الإلهية.

١- رسالة لأحمد عبد المنعم الحلوانى ص ١٤ و ١٥

٢- الابريز للدباغ جـ ٢ ص ٨٤.

٣- الرماح لعمر بن سعيد جـ ١ ص ١٤.

ويستدلون على تلك النورانية المزعومة بقوله تعالى : – وهو حق أريد به باطل ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[١] فيقولون، النور هو «النبى» والكتاب القرآن، إذ لا يعطف الشيء على نفسه . .

وكذلك ببعض الأحاديث – وإن كانت بين الضعف والوضع – مثل حديث «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر»

« قبض الله قبضة من نوره فقال كونى محمداً فكانت» ، وحديث عائشة وأنها لم تر النبى ﷺ إلا مرة واحدة على حقيقته، حين كانت تخيط الثوب ووقعت الابرة وانطفأ المصباح فأضاء لها النبى بحقيقته.

وكذلك فاطمة رضى الله عنها وقد رأت نوراً ممتداً بين السماء والارض، ثم هو النبى ! !

وغير ذلك من الهراء الذى تزعمه الصوفية وتدين به.

* إن زعم الصوفية بأنه خلق من نور ، فضلاً عن زعمهم بأن كل شيء من نور محمد ﷺ لا دليل عليه إلا الهراءات والافتراءات، والرجوع إلى نظرية الاتحاد والحلول، وكلام المشايخ والأهواء، وباطل الكلام، وربنا جل وعلا جعل الرجوع اليه ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢] وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٣]

ولكن لا يجوز أن تؤخذ قضايا الدين بدون بينة أو دليل، بل لا بد من الحجة والبرهان القطعى.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٤]

١– سورة المائدة : آية ١٥

٢– سورة الشورى، آية ١٠

٣– سورة النساء، آية ٥٩

٤–سورة البقرة، آية ١١١

فأين الدليل على هذا الكلام، أو ذلك الزعم ؟، يقولون : هذه آية قرآنية تقول بنورانية النبى ﷺ وهى ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾(١)

نقول : وليس فى الآية شىء مما ذهبوا إليه، فهذه الآية لابد أن تؤخذ بتمامها، وأن تفسر فى ضوء بقية الآيات القرآنية، فخير ما يفسر به القرآن هو القرآن.

وفى الآية : (يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنه قد بعثه بالبيانات والفرق بين الحق والباطل فقال ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾(١)

أى يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة فى بيانه. وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب،فى قوله ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه. ثم قال صحيح الأسناد ولم يخرجاه.

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذى أنزله على نبيه الكريم فقال ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾

أى طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ اى ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفى عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حاله.(٢)

١- سورة المائدة آية ١٥

٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ٣٣ و ٣٤

وبهذا قال كثير من المفسرين الموثوق من علمهم، والموثوق من كتبهم أو الخالية من الاسرائليات ، وان وجد من المفسرين من يقول بأن « النور» في الآية هو النبى محمد ﷺ: فقد قصدوا بذلك النور المعنوى، أو نور البصيرة كالنور للبصر، كما قال بعضهم بأن « النور » فى الآية هو الاسلام .

وكل هذا محتمل، فالقرآن نور، والنبى نور، والإسلام نور، والعلم نور، ولكنه النور المعنوى الذى يخرج الناس من الجهالة إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، وهذه خصائص معروفة فى القرآن وفى النبى وفى العلم وقد عمهم الإسلام وشملهم.

وزيادة فى التوضيح نقول أيضًا :

إن كانت الآية تحتمل ذلك كله، فدليل الترجيح هو القرآن نفسه، ذلك أن القرآن قال الله تعالى عنه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[1]

والمنزل هو القرآن الكريم، خاتم الكتب، وهو سبيل إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وآية المائدة كآية النساء. إذ بين مزية النور والكتاب المبين بضمير الفرد، فقال : «يهدى به » يولم يقل : « بهما » فكان هذا مرجحا لكون المراد بهما واحدا[2] وهو القرآن، وثم شواهد أخرى تؤيد ما اخترناه غير آية النساء

كقوله تعالى أيضا : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3]

– فى حكاية المهتدين من أهل الكتاب – وكذلك قوله تعالى : ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[4].

١– سورة النساء، آية ١٧٤

٢– راجع / تفسير المنار للأستاذ محمد رشيد رضا جـ ٦ ص ٢٥٢ الهيئة المصرية للكتاب

٣– سورة الأعراف، آية ١٥٧ ٤– سورة التغابن آية ٨

فهذا يدلنا على أن المقصود «بالنور» فى الآية هو القرآن الكريم - على الصحيح.

وقولهم : لا يعطف الشىء على مثله، أو أن يكون المعطوف غير المعطوف عليه، نقول: هذا فى الأصل فى العطف، ولكن العطف قد يرد للتفسير، كما هو معروف تعدد الخبر لمبتدأ واحد، وكثرة الصفات لموصوف واحد، ومنه قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[1]

فهذه خمس صفات لموصوف واحد هو النبى ﷺ، أم أن تلك الصفات - بحكم عطفها - تعتبر لموصوفين متعددين.

* ومع ذلك فنحن لا ننكر نورانية النبى ﷺ لأنه هو الذى جاء بالقرآن، بل تمثل القرآن تماما فهو المظهر الأكمل للقرآن ببيانه له وتخلقه به كما قالت «عائشة» رضى الله عنها «كان خلقه القرآن»[2]

واستشهادا بقوله تعالى فى وصفه له فى سورة الأحزاب ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ ولكنها النورانية المعنوية التى لاتتضاد ولاتتنافى مع البشرية الواردة فى القرآن الكريم، فالزعم بأنه من نور الله، زعم باطل، لأنه يورث تشبيهاً وتجسيداً للذات الإلهية.

ورفع للنبى ﷺ من درجته النبوية البشرية إلى درجة الألوهية أو البنوة - كما زعمت النصارى فى عيسى ابن مريم عليه السلام - أو الاتحاد والحلول - كما زعم فلاسفة المتصوفة - وهذا كفر، وغلو منهى عنه كما قال ﷺ «لاتطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا : عبد الله ورسوله »[3]

وكذلك الزعم بالنورانية الحسية فهى مرفوضة كذلك، لأننا نتسائل : أهى نورانية الملائكة ؟

والإجابة : لا ،لأن النبى ﷺ بشر وليس بملك، قال تعالى :

١- سورة الأحزاب، آية ٤٥ و ٤٦

٢- صحيح البخارى

٣- صحيح البخارى

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[١]
ومحمد ﷺ إنسان، وإلا فليأتوا له بصفة أخرى، والرسول نفسه ﷺ يقول: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[٢]

تحدث الرسول عن النور، وعمن خلق منه، فلم يذكر عن نفسه أنه خلق من نور، كما ذكر عن الملائكة، وتحدث عن آدم - الأب الأول للبشرية - وعن خلقه، وأنه خلق مما ذكر الله فى القرآن - يعنى من طين لازب مع أطواره - ومحمد صلى الله عليه وسلم ابن آدم، وليس واحداً من الملائكة، ولو كان كذلك لكان بشراً فى صورة رجل كما قال القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٣].

ولماذا نقول بنورانية كنورانية الملائكة، مع أن النبى محمد ﷺ أفضل من الملائكة؛ بل أفضل من إمام الملائكة «جبريل عليه السلام» - على الراجح - مع أنه من طين، وهم مخلوقون من نور.

ولا نزعم له نورانية حسية، يتشكل من خلالها، أو يضئ وينطفئ، كما تشير إليه الأحاديث الموضوعة التى زعمها الصوفية، فالنبى ﷺ أجل وأعظم من أن يكون مثل لمبة أو فانوس. ! !

ولكنها النورانية المعنوية مع البشرية الفاضلة، فالقرآن لا يتناقض مع نفسه البته.
﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٤]

* كان هذا عن الصوفية مع الرد عليهم. وحقيقة هذا الأمر، كما بينها الله تعالى فى كتابه الكريم:

١- سورة المؤمنون آية ١٢ و ١٣.
٢- متفق عليه.
٣- سورة الأنعام، آية ٨ و ٩.
٤- سورة النساء آية ٨٢.

قال تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾(١).

وفى قوله سبحانه ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ حجة من الحق تزهق الباطل الصوفى كله، قال سبحانه : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٢).

فاعتقاد المسلمين فى نبيهم الحق، أنه ﷺ «بشر مثلنا يوحى إليه.» فالقرآن – وهو كلام الله وهداه ورحمته – يفرض عليهم الإيمان بذلك، فلا مناص من الإخبات له بالقلب والفكر والشعور، ويزيدنا القرآن هدى إذ يقرر أن بشرية الرسول الأعظم مثل بشريتنا، فى أسلوب من القول مشرق الإعجاز فى بلاغة البيان وفصاحته، فى أسلوب يفرض على الفكر الإيمان بمعناه البين دون أن يشتبه معناه الحق حتى على الأمى الجاهل، وذلك فى قوله تعالى :﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾(٢).

كلام هو الحق والحكمة والهدى فى أسلوب حكيم جلى محكم، لا يأذن حتى لخاطرة واهية من ظن أن تقتحم عليك قدس يقينك، أو أن تحوم خفية حوله أو تفسد عليك شيئًا ما من فهمك لمعنى الآية، ومن تدبر «بشر مثلكم» لرأى أشعة الهدى الإلهى الأعظم تغمر حوله الوجود كله، وتهديك إلى الحق الذى يجب أن تؤمن به، ألا تراها تجعل بشريتنا هى المقياس الذى به نقيس بشرية رسول الله الكريم، حتى لا يفتننا حب هذه البشرية الطهور، فنظنها خلقًا آخر أو نوعًا من البشرية يغاير فى حقيقته بشريتنا، فلا ندرك كنهها ولا شيئا من خصائصها، لأنها لم تتحقق إلا فى فرد واحد، لقد كان يكفى فى الدلالة على المعنى أن يقال«قل : أنا بشر» أو «أنتم بشر مثلى» ولكنه سبحانه – وهو الحكيم العليم الخبير – شاء أن يعرفنا بشرية محمد ﷺ بما نعرفه نحن، من خصائص هذه البشرية التى فطرنا عليها، وبما نبتليه من قيمها ومقوماتها، وبما نعالج من غرائزها

١- سورة آل عمران، آية ١٤٤
٢- سورة الإسراء آية ٩٣
٣- سورة الكهف، آية ١١٠

وعواطفها، وبما نعلمه - عن الله - من حقيقة بدئها وغاية منتهاها، وبما تتجاوب به مع رواد الوجود من حب أو كراهية، ولذا طعم ﷺ ، وشرب، وتزوج، ونجل خير البنين، وذاق الشبع والجوع ، والمرض ، ومست قلبه الأحزان ، وذرفت عيناه الدموع ، وجاشت نفسه برحمة البكاء. وغير ذلك مما قضاه الله على البشرية من أقدار فى هذه الحياة، ثم جاءه ﷺ ملك الموت الذى وكل بنا.

غير أن بشريته ﷺ آمنت حق الايمان بما هداها الله إليه، وأنعم عليها به، فأدت حق الله كاملاً من الحق والشكر، وحلقت فوق قمة السمو الإنسانى الأعظم، فكانت وحدها هى النجم الأرفع الأسمى، وتألقت بعبوديتها الخالصة فوق أعلى أفق للتوحيد الخالص، فما زلت بها عاطفة لإثم، ولاهفت بها غريزة إلى ذنب، لأنه ﷺ اتخذ الله وحده رباً له، وجعل رضاه غايته والدعوة إليه هدف كفاحه وجهاده، والغاية العظمى لدنياه، والفلك الأعظم الذى تدور فيه حياته.

ثم تدبر ما حكم الله به على المشركين الذين قالوا ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[1] إنه جل شأنه حكم عليهم بأنهم ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾لتعلم أن هذا الذى استنكره المشركون ليس إلا قدر الله العدل الحكيم الذى قضاه على البشرية، وقسطًا من أقساطها فى الوجود. وأنه لا يمس مقام النبوة بأثارة من ضعة، إذ النبى - قبل كل شىء - بشر، والبشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وتدبر ما وصف الله به رسله جميعا ﴿وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[3] تدبر هذه الآيات لتعرف حقيقة النبى محمد ﷺ وبشريته، وتذكر قول الله تعالى أيضًا : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾[4]

١- سورة الفرقان آية ٧.
٢- سورة الأنبياء، آية ٨ .
٣- سورة الفرقان، آية ٢٠.
٤- سورة الأنبياء، آية ٣٤.

وتدبر خطاب الله لنبيه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(١) وذكر موتنا عقب موته لنهتدى إلى أن الموت الذى قضى علينا هو عين الموت الذى قضى على نبيه ﷺ، ورغم هذا - على ما فيه من وضوح وجلاء - وجد من يزعم أن موت محمد معناه الحياة السرمدية، وينكر موت النبى ﷺ ووجد من يضع للفظ نقيض معناه، أو يضع للفظ إسفاف الشهوة من هواه . ! !(٢)

* أشرف صفات الرسول في أشرف مقاماته

والله سبحانه يصف رسوله بأشرف الصفات - وهى العبودية - فى أشرف مقاماته، وأخلدها ذكرًا، وأجلها أثرًا وغاية، فيقول تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾(٣)

يصفه ربه بالعبودية الصرفة الخالصة وحدها فى تلك الليلة التى استشرف فيها قيمة السمو الأعظم، وتألقت أمجاده الخوالد الذكريات، آه لو قيل « أسرى بمحمد » فحسب، إذن لراح الصوفية يثيرون ما يُفتَنون به من شبهات لا تجد من اللفظ النور القوى الذى يبددها، إذن لقال إن محمدًا لم يكن بشرًا، ولا عبدًا، وإنما كان روحًا إلهيًا سخرت لقدرته الآفاق، وعبدت لقهره متون الفضاء.

فجاءت كلمة «عبده» فى الآية حجة الحق المتلألئة التى تبيد الظنون، وتبدد كل شبهة تختلس الفتنة للعقول بأوهامها، جاءت برهانًا ربانيًا - لاينقض أبدًا - على أن محمدًا ﷺ، ما كان إلا بشراً يوحى إليه، حتى فى تلك الليلة التى وقف دون عرش ربه الأعظم، يقبس من نور الله وهداه، فما بالك به فى كل أصائل عمره وعشاياه؟

ويصفه سبحانه بالعبودية فى مقام الدعوة إليه ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾(٤)

١- سورة الزمر، آية ٣٠

٢- هذه هى الصوفية ص ٩٨ - ١٠١ بتصرف

٣- سورة الإسراء، آية ١

٤- سورة الجن، آية ١٩.

وتدبر إضافة «عبد» إلى «الله» ليغمر يقين الحق قلبك، فلا يشتبه عليك الفرق الجليل العظيم الكبير بين عبودية محمد ﷺ وربوبية ربه وألوهيته، ولا تفتنك خرافات الصوفية.

ويصفه سبحانه بالعبودية في مقام هو الفيصل الحق الأكبر بين كون محمد دعيًا، وكونه نبيا، وذلك هو مقام التحدى بالمعجزة العظمى، معجزة القرآن ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (١)

وكذلك لما نزل على النبى ﷺ القرآن ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾(٢)

والرسول نفسه يضع لنا على الطريق بصمات حق، ومنارات هدى، حتى لا نحيد عنه فنهلك، ويرشدنا إلى الحق، حتى لا تزيغ بنا غلواء الشاعرية فى الحب، فيقول ﷺ: «لاتطرونى، كما أطرت النصارى المسيح بن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» (٣).

وفى حديث الشفاعة يقص علينا الرسول ﷺ أن عيسى عليه السلام – وقد ناشده الخلق أن يستأذن ربه فى أن يشفع لهم عيسى عنده – يقول: «إذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»(٤)

تدبر ما ذكرتك به من آيات الله، وأحاديث الرسول ﷺ، لتؤمن أن محمداً ﷺ، لم يبلغ ما بلغ من عظمة وكمال وسمو إلا بإخلاص الدين لله وحده، والعبودية الكاملة لله عز وجل.

وأنه كان بشرًا يوحى إليه، لا كما تزعم الصوفية ! !.(٥)

١- سورة البقرة، آية ٢٣

٢- سورة الكهف، آية ١

٣- صحيح البخارى ومسلم

٤- صحيح البخارى ومسلم

٥- هذه هى الصوفية : عبد الرحمن الوكيل ص ١٠٢ – ١٠٤ بتصرف

جـ - زعمهم بأن النبي ﷺ - يعلم الغيب

* علم الغيب على العموم : لقد زعمت المتصوفة أن النبى ﷺ يعلم الغيب، وحيث إنه ﷺ قد أخبرنا عن أخبار الماضين وأحوال الأمم السابقة، وكذلك أخبرنا عن أمور غيبية فى المستقبل. وحديثه عن الساعة وأحوالها وأهوالها.

إذن هو يعلم ذلك الغيب كله.

وفهموا قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ . ﴾(١) على أن النبى ﷺ لا يقول، ولكن على العاقل أن يعى وأن يفهم فهو الذى جاء بهذا الغيب فلا يشترط أن يقول لنا« أنا أعلم الغيب»

وهذا فهم فى غاية السفاهة والبعد عن نصوص الدين، وروح الاسلام.

إن صاحب علم الغيب وحده هو «الله عز وجل» :﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾(٢) ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾(٣)

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾(٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٥)

ولكن الله عز وجل قد يمن على بعض عباده من أنبيائه ورسله ببعض الغيب ليكون تأييداً له فى دعواه، وتثبيتاً له فى رسالته، فيوحى إليهم بذلك، وهذا ليس معناه أنهم علموا الغيب وإنما ظهروا عليه.

قال تعالى : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ

١- سورة الأنعام، آية ٥٠.
٢- سورة النمل آية ٦٥.
٣- سورة الأنعام، آية ٥٩.
٤- سورة يونس، آية ٢٠.
٥- سورة فاطر، آية ٣٨.

رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾[١].

وقال جل وعلا ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٢] ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾[٣]

وقوله تعالى آمرا رسوله ﷺ أن يبلغه : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٤]

ولقد ابتليت الأمة بأمثال هؤلاء فى زماننا فوجدنا من يقول : إن النبى ﷺ يعلم الغيب ويعلم الساعة زمانًا ومكانًا وحالاً، يخطب بهذا فى الناس، ويكتبه فى الكراس، فعجبت لذلك أشد العجب، ألم يقرأ هذا المتعالم وأمثاله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٦]

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾[٧].

وقوله ﷺ « لجبريل - لما سأله : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل»[٨]

١- سورة الجن، آية ٢٦- ٢٨. ٢- سورة هود، آية ٤٩.
٣- سورة يوسف، آية ١٠٢ وسورة آل عمران، آية ٤٤.
٤ سورة الأعراف، آية ١٨٨. ٥- سورة لقمان، آية ٣٤. ٦- سورة الأعراف، آية ١٨٧.
٧- سورة النازعات، آية ٤٢ - ٤٤. ٨- جزء من حديث صحيح ، رواه الجماعة

* علم النبي بالقرآن قبل نزوله - على الخصوص :

ومن جملة افتراءات الصوفية - أو بعضهم - أن النبي ﷺ - من باب علمه الغيب - كان يعلم القرآن قبل نزوله، أو لعله من باب الإتحاد والحلول : حسب زعمهم في قولهم «منك وإليك».

فقالوا :- بإفكهم - إن جبريل عجب حين رأى النبي ﷺ يتلو القرآن قبل أن يعلمه إياه فسأل جبريل، فأجابه النبي : ارفع الستر مرة حين يلقى إليك الوحي، ففعل جبريل، فرأى محمداً هو الذي يُوحِي إليه، فصاح مسبحًا : منك وإليك يا محمد ؟ ! !

وقد قال بهذه الفرية الصوفي الأكبر«ابن عربي» إذ يقول مفسرًا قول الله سبحانه وتعالى﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾[1] :«إعلم أن رسول الله أعطى القرآن مجملاً قبل جبريل، من غير تفصيل الآيات والسور، فقيل له، لا تعجل بالقرآن الذي عندك قبل جبريل، فتلقيه على الأمة مجملاً فلا يفهمه أحد عنك لعدم تفصيله» [2]

وما زال يهذي بهذه الأسطورة أناس من الصوفية، تلقونها صوفي عن صوفي في كل حانة صوفية، ويستدلون على ذلك أيضًا بهذا الحق الذي أرادوا به الباطل بقوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[3]

على نحو تفسير ابن عربي السابق في آية « طه ».

فتعجب من باطل الصوفية وإفكهم. ! !

* الرد على هذه الفرية :

١- سورة طه، آية ١١٤.

٢- الكبريت الأحمر للشعراني على هامش اليواقيت والجواهر ص ٦ ط ١٣٠٧ هـ.

٣- سورة القيامة ، آية ١٦ - ١٨.

أولا : -

بالنسبة لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ تفسيره كقوله تعالى فى سورة القيامة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾

وثبت فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحى شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية، يعنى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا جاءه جبريل بالوحى، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف فى حقه لئلا يشق عليه فقال ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه**﴾، أى نجمعه فى صدرك ثم تقرؤه على الناس من غير أن تنسى منه شيئا ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾وقال فى هذه الآية ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أى بل انصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده»[1].

(فهذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ فى كيفية تلقيه الوحى من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك فى قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه فى صدره وأن ييسره لآدائه على الوجه الذى ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه فى صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه، «فكان بعد ذلك - اذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه، كما وعد الله عز وجل» وقد رواه البخارى ومسلم، واللفظ للبخارى، وتحريك النبى ﷺ شفتيه بالقرآن مع جبريل خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله تعالى الآية التى بسورة طه، والآيات التى بسورة القيامة، هكذا قاله ابن عباس والشعبى والحسن البصرى وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد من أئمة الإسلام، وأعلام التفسير».[2]

١- تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٦٧ بتصرف

٢- تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٤٩.

لا كما تزعمه الصوفية، وعلى رأسها كبريتها الأحمر «ابن عربى»!!

* وبطلان هذه الفرية بدهي يحكم به من في قلبه بارقة من إيمان، بيد أن غشاوة الصوفية على بصائر معتنقيها حالت بينها وبين إدراك الحقيقة الإيمانية الأولى وهى أن رب الوجود هو الله وحده لا شريك له، فلم لا تحول بينها وبين إدراك بطلان تلك الفرية؟!!

لهذا نذكر بهدى الله سبحانه فى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١)

آيات بينات تهديك إلى أن الذى علم رسول الله القرآن هو جبريل، وإلى أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن على علم بشىء ما منه قبل أن ينزل جبريل به عليه.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(٢).

ويقول ابن عربى أنه نزل عليه جملة واحدة، فقوله هذا هو قول الكافرين،

ومن قوله سبحانه ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾(٣) نؤمن بأن محمداً ﷺ لم يعلم بآية ما من كتاب ربه إلا فى ليلة القدر، فمتى علم الرسول القرآن مجملاً؟ أقبل ليلة القدر أم بعدها؟ ومن علمه إياه مجملاً؟ أجبريل، أم غيره؟ «ائتونى بآثارة من علم إن كنتم صادقين؟» ويهب الله للحق برهانًا تنجاب به كل ريبة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾(٤) أيفهم الصوفية، أم هى اللجاجة فى العناد؟ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُل لَّوْ شَآءَ

١- سورة النجم، آية ٥-٧.
٢- سورة الفرقان، آية ٣٢ و ٣٣.
٣- سورة القدر، آية ١.
٤- سورة الشورى، آية ٥٢.

ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾(١)

وفرية الصوفية تناقض هذه الحجة الإلهية على صدق محمد.

أولا يذكر الصوفية أن رسول الله حين فاجأه الوحى، كان يقول - وجبريل يغطه : « ما أنا بقارئ »؟ ! !

وأنه عادإلى زوجه الطيبة الطهور فى خوف وقلق، وأن هذه المؤمنة العظيمة قالت له قولتها التى طيبها الايمان بروحانيته «والله لا يخزيك الله أبدًا».

أفكان يحدث هذا أو بعضه، لو أنه ﷺ كان على بينة من القرآن قبل نزوله عليه ؟ لم قال : ما أنا بقارئ ؟ يكررها ثلاثاً ؟ لم عاد خائفًا حتى زملوه ودثروه؟ لم بث نفسه إلى زوجه خديجة، ولم ذهب معها إلى ورقة بن نوفل ؟ ! !

كل هذا حدث منه ﷺ حتى بعد نزول الوحى عليه ! أهذه دلائل علم سابق بالقرآن ويقين جازم به قبل نزول جبريل عليه به فى ليلة القدر، أم دلائل مشاعر نفس مؤمنة تقية، فاجأها من الله سبحانه ما لم تكن تدريه من قبل ؟ ! !.

ولقد كان أعداء الرسول ﷺ يسألونه محرجين متعنتين، يبغون تكذيبه والتجديف عليه، فلم يكن يجيبهم بشىء - لأنه لا يعرف الجواب - عما سألوه عنه، إلا بعد أن ينزل جبريل عليه به، سألوه عن الروح، وعن فتية الكهف، وعن ذى القرنين، فقال صلى الله عليه وسلم : غداً أجيبكم

وأنساه حرصه النبيل على إقامة الحجة عليهم وهدايتهم، فلم يقل : إن شاء الله، ففتر عنه الوحى حتى حزبه الأمر وبلغت به الشدة مبلغها، ولم لا ؟ وعدوه متربص به، حريص على تكذيبه، وعلى أن يثير الشبهات حول رسالته، ورغم هذا يفتر عنه الوحى ثم مَنَّ الله عليه به، فعلم عن الله جواب ما سألوه عنه، فقال الرسول ﷺ لجبريل : «لقد

١-سورة يونس ، آية ١٥، ١٦ .

رئت على حتى ظن المشركون كل ظن» فنزل قوله تعالى : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[1]

أفكان يحدث هذا، لو أن رسول الله كان على بينة من القرآن قبل نزوله ؟ لماذا لم يجب من سألوه، لأنه لم يكن يعرف الجواب، ولكن «ابن عربى» يكفر بكل تلك الدلائل، ويفترى أسطورته، لو كان النبى ﷺ يعلم القرآن قبل نزوله، فلم سكت شهراً كاملاً، بلغت فيه القلوب الحناجر، إذ الناس يتهمون النبى ﷺ فى عرضه، وفى أحب الزوجات إلى قلبه بتهمة الفاحشة، ويخرج اليهم النبى يقول من يعذرنى فى أهلى،

وتحدث فتنة عظيمة فى المسجد، ويذهب إلى عائشة، ويقول لها : «إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله تعالى» حتى نزلت آيات البراءة وهو فى مجلسه ﷺ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .....﴾[2].

١- سورة مريم آية ٦٤،

وانظر تفسير ابن كثير للآية ج٣ ص ١٣٠ وفى سورة الكهف ص٧١.

٢- سورة النور، آية ١١ - ٢٦

انظر تفسير ابن كثير للآيات جـ ٣ ص ٢٦٨ - ٢٧٨.

ثالثا : الولاية عند الصوفية

* ما معـــني الـــولاية
* خـــاتم الأوليـــــاء
* أصل الولاية ، وشرطها
* مــامعـــني الولـــي
* مـراتب الأوليـــــاء
* طـــرق الولايـــة
* معنـى الكـرامـــة
* أنــــواع الكرامـة
* الفرق بين الكرامة وغيرها .
* نمـــاذج من الكرامات .
* الكرامات تختلف عن الأحوال الشيطانية .
* الفرق بين الولى الصادق والدعى الكاذب .
* الديوان الصوفى .

ثالثاً : الأولياء - عند الصوفيــة

* ما معنى الولاية، ومن هم الأولياء ؟

لا شك أن هناك فرقًا كبيراً بين معنى الولاية وتعريف الأولياء، كما جاء في القرآن والسنة، ومعناهما عند الصوفية، فالفرق شاسع، والبون واسع.

وإليك هذا الفارق بينهما «موجزاً»:

* الولي عند الصوفية :

عرفه صاحب الطريقة التجانية بعد أن سُئلَ عنه، فقال : «الولي من تولى الله أمره بالخصوصية مع مشاهدة الأفعال والصفات».

* وهو - كما ترى - تعريف غامض لاشتراطه الخصوصية مع قيد المشاهدة، مع العلم أن الله تعالى لا يتولى الا المؤمن التقي، ولا تتم التقوى إلا بالعلم وهو معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته، ومعرفة محابه ومكارهه ليفعل المحاب، ويتجنب المكاره.

والسر في غموض تعريف القوم للولي هو احتكارهم للفضائل كي لا تكون لغيرهم من سائر المؤمنين والمسلمين، وبذلك تختص الولاية بمشائخ الطرق المأذون لهم في إعطاء الورد والتربية الخلوية، ومن هنا كان الولي عند الصوفية لا يعرفه إلا الخواص، أما عامة المسلمين فلا سبيل لهم إلى معرفة الولي، فضلاً عن الوصول إلى الولاية، يشهد لهذه الحقيقة ويقررها ما يلي : -

سئل الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد التجاني عن الله تعالى وعن الولي أيهما معرفته أصعب ؟

فقال : معرفة الولي أصعب من معرفة الله تعالى، وعلل ذلك بقوله : لتمييز صفات الله تعالى ولمباينتها لصفات الخلق، أما الولي فإن صفاته كصفات سائر الناس من الأكل والشرب والنكاح . . . الخ.

فلذا هو لا يتميز ولا يعرفه إلا الخواص.(١)

وأبعد «المرسى»(٢) وهو من أئمة الصوفية – فى تعريف الولى حتى قال: إن الولى لو كُشِفَ للناس لعبدوه، لأن حقيقة الولى أنه يسلب من جميع البشرية، ويتحلى بالأخلاق الإلهية ظاهراً وباطناً، ولذا لو كشف الولى للعبد لعبده.

وقالوا: إن دائرة الولى أوسع من دائرة النبى، وهذا تفضيل منهم للولى على النبى بأسلوب خفى.

وعللوا ذلك بأن دعوة الأنبياء خاصة بأممهم، ودعوة الولى عامة، فلذا هو أوسع دائرة، ولازم هنا أن الولى أفضل من النبى – وهو كما ترى ضلال مبين – بل صرحوا بذلك فى أقوالهم.

فقال التجانى: «خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله».

كما قال أيضا: مقام النبوة فى برزخ فويق الرسول ودون الولى.

ومعنى ذلك القول أن أقطاب الصوفية – وهو على رأسهم – أعلم بالله وأعرف بشرائعه من الأنبياء.

ومعنى هذا البيت الصوفى، أن الولى أفضل من النبى، ومن يعتقد هذا فكيف لا يكفر؟

لا، ليس هذا فقط، بل يزعم «أحمد التجانى» هذا قوله: «أنا سيد الأولياء كما أن النبى سيد الأنبياء، ولا يشرب ولى ولا يسقى إلا من بحرنا من نشأة العالم إلى النفخ فى الصور، وإذا جمع الله تعالى خلقه فى الموقف ينادى مناد بأعلى صوته حتى يسمعه كل من فى الموقف، يا أهل المحشر هذا إمامكم الذى كان مددكم منه»(٣).

كما قال: قد أخبرنى سيد الوجود ﷺ بأنى أنا القطب المكتوم، منه إلىَّ مشافهة، يقظة لا منامًا.

١– الرماح والجواهر
٢– هو المرسى أبو العباس.
٣– الرماح والجواهر.

وقد سُئل عن معنى المكتوم فقال : هو الذى كتمه الله تعالى عن جميع خلقه حتى الملائكة والنبيين إلا سيد الوجود ﷺ فإنه علم به وبحاله، وهو الذى حاز كل ما عند الأولياء من الكمالات الإلهية واحتوى على جميعها

ثم قال : إن الفيوض التي تفيض من ذات سيد الوجود تتلقاها ذوات الأنبياء - وكل ما فاض وبرز من ذوات الأنبياء تتلقاه ذاتي، ومني يتفرق على جميع الخلائق من نشأة العالم إلى النفخ فى الصور، وخصصت بعلوم بيني وبينه منه مشافهة لا يعلمها إلا الله عز وجل بلا واسطة.

وقوله - وهو يشير بإصبعه السبابة والوسطى - روحى وروحه ﷺ هكذا، روحه تمد الرسل والأنبياء، وروحى تمد الأقطاب والأولياء من الأزل إلى الأبد[1]

* فانظر - أخى المسلم أيها القارئ - أليس هذا الكلام كذبًا على الله ورسوله وعلى المؤمنين.

إن هذه الدعاوى التي يزعمها التجانى لنفسه لم يدعها نبي ولا رسول، فكيف يدعيها التجانى وتقبل منه ؟ ! !

وانظر كيف ادعى أن النبى ﷺ قد أخبره يقظة لا منامًا، ومشافهة لا بواسطة بأنه القطب المكتوم ! !

اللهم إن هذا كذب على رسول الله وعلى عبادك - فالعن اللهم من كذب عليك وعلى رسولك وعلى عبادك المؤمنين.

ثم انظر كيف عد التجانى نفسه ربًا أزليًا روحه تمد أرواح الأقطاب والأولياء من الأزل إلى الأبد. ! !

إذ هو قديم الوجود ودائم الوجود، أليس هذا هو الكفر والكذب معًا ؟ ! !

كما نقول أيضا : وكيف يتفق قول التجانى هذا مع قول الصوفية : من ادعى أنه

---

١ - إلى التصوف يا عباد الله ص ٣٦ - ٤٢ بتصرف

ولي يموت كافرًا والعياذ بالله ! !

كيف وقد حكم التجاني لنفسه بأنه سيد الأولياء لا مجرد ولي فقط ! !

كما أن قولتهم هذه تشير إلى مدى بُعْد الولاية في اعتقاد القوم واحتكارهم منصبها ومقامها، كما يزعم المحدثون منهم أن الولاية لا تكون إلا لمن مات من أصحاب الأضرحة والقباب، أو من استبان أمره، واتضحت كرامته وكشف ستره، فهؤلاء هم الأولياء.

وليبقى كل المؤمنين أعداء الله تعالى غير أولياء له، إلا ما كان من مشائخ التصوف وأئمتهم وأصحاب الأضرحة والقباب فيهم، فإنهم الأولياء[1]

سئل الشيخ أحمد التجاني في كتابه الجواهر : عن رجل لايمشي إلا ساترًا وجهه، فقال : لعله بلغ مرتبة الولاية، فإن من بلغها يصير كل من رأى وجهه لايقدر على مفارقته طرفة عين، وإن فارقه وانحجب عنه مات لحينه.

* وحسبك أخي المسلم. بهذا التعريف للولي من تعريف، إنه سخرية وهزء بعقول المؤمنين.

هذا والذي يستنتج من صنع القوم في تعريف الولي، أنهم يحتكرون هذه الألقاب لاستغلال العامة بها، والتحكم فيهم بواسطتها.[2]

خاتم الأولياء

وكما جعل الله للنبيين خاتما، جعل الصوفية للأولياء خاتما، والعنكبوت الأول الذي سال لعابه بهذه الأسطورة هو الحكيم الترمذي[3] قال السلمي : « نفوه من ترمذ، وشهدوا عليه بالكفر بسبب تصنيفه كتاب «ختم الولاية».

١- نقلا عن كتاب «إلى التصوف يا عباد الله» ص ٣٧ و ٣٨ بتصرف.

٢-إلى التصوف ياعباد الله ص٣٧-٣٨ بتصرف.

٣- هو غير صاحب السنن، فهو محمد بن علي بن الحسن بن بشير أو«بشر» [illegible] «بالحكيم» عاش إلى حدود ٣٢٠ هـ.

وقال : إنه يقول :«إن للأولياء خاتماً، كما أن للأنبياء خاتمًا، وأنه يفضل الولاية على النبوة»[١]

ويقول ابن تيمية عنه «فى كلامه من الخطأ ما يجب رده، ومن أشنعها ما ذكره فى ختم الولاية، مثل دعواه فيه أنه يكون فى المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبى بكر وعمر وغيرهما، ومنها ما ادعاه من خاتم الأولياء الذى يكون فى آخر الزمان، وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء، وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء»[٢].

وتوالت عناكب الصوفية على هذه الأسطورة، حتى قتلت بها ذباباً من الخلق كثيراً.

قال ابن عربى – وهو يتحدث عن علم وحدة الوجود : وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل، وخاتم الأولياء وما يراه أحد من الأنبياء أو الرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم. حتى إن الرسل لا يرونه – متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإن الرسالة والنبوة – أعنى نبوة التشريع – تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبدًا، فالمرسلون من كونهم أولياء، لايرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأنبياء.[٣]

* تفضيل خاتم الأولياء على خاتم النبيين

زعم ابن عربى فى النص الذى نقلته عنه آنفًا أن الرسل لا يستمدون أشرف علومهم إلا من خاتم الأولياء، وهذا يستلزم تفضيل الولى الخاتم على الرسل بعامة، وعلى النبى الخاتم بخاصة، ويقول ابن عربى : « ولما مثل النبى ﷺ النبوة بالحائط من اللبن، وقد كمل سوى موضع لبنة فكان ﷺ تلك اللبنة، غير أنه ﷺ لا يراها إلا كما قال : لبنة واحدة، وأما خاتم الأولياء، فلا بد له من هذه الرؤيا فيرى ما مثله به رسول الله، ويرى

١– مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده جـ ٢ ص ١٧٠ ط الهند.
٢– رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين لابن تيمية ص ٧٩ و ٨٠
٣– فصوص الحكم جـ ١ ص ٦٢ الحلبى

فى الحائط موضع لبنتين، فلابد أن يرى نفسه تنطبع فى موضع تلك اللبنتين، فيكمل الحائط - كما هو آخذ عن الله فى السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه، لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فإنه آخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول»

ويقول : « وفينا من يأخذ عن الله، فيكون خليفة عن الله بعين ذلك الحكم»(١)

فضل خاتم الأولياء بأمرين، أولهما : أخذه عن الله مباشرة، أما خاتم النبيين فيأخذه عن الله بواسطة الملك.

الأمر الآخر : هو أنه على يديه تم الدين، فابن عربى يشير بهرائه ذاك إلى الحديث الصحيح الذى مثل فيه رسول الله ما بعث به هو والأنبياء من قبله ببيت كانت تنقصه لبنة، وأنه ﷺ هو الذى جاء بتلك اللبنة، يعنى أنه هو الذى أتم الله به على المسلمين دينهم، ولكن ابن عربى « يزعم أن الدين كان ناقصاً لبنتين، فأتى محمد ﷺ بواحدة، وأتى خاتم الأولياء بهذه، وبلبنة أخرى فلم يكمل دين الله إلا على يد خاتم الأولياء!!»(٢)

أين هذا الافك من قول الحق جل وعلا ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(٣) ؟!!

* ادعاء كل شيخ أنه الخاتم

يقول ابن تيمية :«ثم إن هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة، لا حقيقة لها، وصار يدعيها لنفسه، أو لشيخه طوائف، وقد ادعاها غير واحد، ولم يدعيها إلا من فى كلامه من الباطل، ما لم تقله اليهود ولا النصارى، كما ادعاها صاحب الفصوص»(٤)

١- فصوص الحكم جـ ١ ص ٦٣ و ١٦٣
٢- هذه هى الصوفية ص ١٥٧
٣- سورة المائدة، آية ٣
٤- رسالة حقيقة مذهب الاتحادين ص ٦٣ و ٦٤

وحق ما يقول شيخ الاسلام – وعهدنا به الصدق والأمانة البالغة فى النقل – «فابن عربى» يزعم فى« الفتوحات المكية» أنه رأى رؤيا، ثم يقول : ثم عبرت الرؤيا باختتام الولاية بى. ثم ادعتها التيجانية لشيخها أحمد، قال أحد أتباعه« الفصل السادس والثلاثون فى ذكر فضل شيخنا، وبيان أنه خاتم الأولياء، وإمام الصديقين، ممد الأقطاب والأغوات . . »[١] كما سنتبينه بعد – إن شاء الله

لماذا فضل خاتم الأولياء ؟

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :« ثم صاحب الفصوص وأمثاله، بنو الأمر على أن الولى يأخذ عن الله بلا واسطة، والنبى يأخذ بواسطة الملك، فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة» [٢]

و« ابن تيمية» فى فهمه الدقيق، ووعيه الكامل، وأمانته التى تستعصى على التهم يقرر الحق فى قوله.

فقد نقلت لك عن ابن عربى ما يؤيد الحق الذى قرره ابن تيمية، وها هو البسطامى يقول لأهل الشريعة :

« أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لايموت»[٣]

ويقول : «خضنا بحرًا، وقف الأنبياء بساحله»[٤]

قال ابن عربى : «علماء الرسوم – يعنى أهل الشريعة ـ يأخذون خلفًا عن سلف إلى يوم القيامة، فيبعد النسب، والأولياء يأخذون عن الله، ألقاه فى صدورهم من لدنه رحمة منه، وعناية سبقت لهم عند ربهم»[٥]

١– رماح حزب الرحيم جـ ٢ ص ١٥.
٢– رماح حزب الرحيم جـ ٢ ص ٥
٣– الكواكب الدرية للمناوى ص ٢٤٦
٤– جواهر المعانى جـ ٢ ص ٦٣
٥– الكواكب الدرية للمناوى ص ٢٤٦

يعنى أن اتباع الشريعة الاسلامية، إنما يأخذونها عن أناس طواهم الموت، أما الصوفية، فهم الصلات المباشرة مع الله، يأخذون عنه من غير واسطة ملك أو نبى أو رسول، كما يقول أحدهم «حدثنى قلبى عن ربى» وبهذا كفروا بشريعة محمد ومهدوا لأتباعهم الكفر بشريعة محمد ﷺ»[١]، كما أن زعمهم هذا يتناقض مع زعمهم بحياة محمد الأبدية الخالدة، واعتقاد الحقيقة المحمدية الأزلية، كما يتناقض مع مزاعم أخرى كاذبة، وكما ذكرت لكم - إن عرض الباطل كاف فى وضوح زيفه، وهو بمثابة أبلغ الرد عليه، فهذا التناقض دليل على أنه ليس من عند الله عز وجل، وليس بدين الله تعالى ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[٢]

١- هذه هى الصوفية ص ١٥٧ - ١٥٩ بتصرف

٢- سورة النساء، آية ٨٢



حجة من الحق

إن كان هذا هو معنى الولاية، وهؤلاء هم الأولياء عند الصوفية فما هى الولاية، ومن هم الأولياء فى دين الله الحق ؟

أ - معنى الولاية : الولاية فى اللغة مصدر ولى الشيء يليه، وليًا وولاية، إذا دنا منه وقرب أو قام به، وملك أمره، أو نصره وأحبه، ويصاغ من فعل ولى المفاعلة، فيقال : والاه يواليه مولاة، إذا صادقه وناصره فهو موال له، ضد معاد له، كما يصاغ من التولية فيقال : تولاه تولية إذا صار له وليًا، ومنه اشتق لفظ الولى الذى هو ضد العدو.(١)

هذا معنى الولاية فى عرف اللغة، وهو لا يختلف عنه كثيراً فى الدين، إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب والنصرة والقيام بالأمر لصالح الولى، وضد الولاية العداوة، وهى تدور على البعد والبغض، وإرادة الشر والهلاك للشخص المعادى على عكس الولاية، وبناء على هذا فولاية الله تعالى للعبد أن يهديه إلى الايمان به، وإلى معرفته وطاعته ومحبته، ونصرة دينه فيعمل العبد بذلك، ويقرب به من ربه عز وجل حتى يحبه، فاذا أحبه قربه، وتولى أموره، ونصره، وحفظه، فكان بذلك وليه، كما قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ (٢)

وولاية العبد للرب تبارك وتعالى أن يؤمن به، ويتقيه، ويتقرب إليه بطاعته، ويوافقه فى محابه، ومكارهه، ويوالى من يوالى، ويعادى من يعادى، وينصر دينه وأولياءه، وبذلك يكون ولياً لله تعالى.

قال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٣)

١- راجع / لسان العرب مادة «ولى»

٢- سورة البقرة، آية ٢٥٧

٣- سورة يونس، آية ٦٢ - ٦٤

***الحال الجامعة** : وتكون الحال الجامعة بين الله تعالى الولى الحميد، وبين العبد المؤمن التقى هى الموافقة فى الحب والبغض، والقرب، والمناصرة والموالاة والمعاداة .

* ومن هذا يستخلص أصل الولاية وشرطها.

* **فأصلها** : الإيمان والتقوى.

* **وشرطها** : الموافقة التامة فى الحب والبغض، والموالاة والمعادة، ومتابعة الرسول ﷺ فى كل ما جاء به، ودعا اليه من أصول العقائد، والعبادات، والآداب، والأخلاق، متابعة يتجرد فيها العبد لله، ويخلص فيها، إذ لا تتم محبة الله للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول ﷺ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١]

وهذا لأن المتابعة فى سبيل طهارة الروح، وزكاة النفس، ومن طهرت روحه وزكت نفسه بالإيمان والعمل الصالح، مع البعد عن الشرك، والمعاصى كان أهلاً لحب الله تعالى، وموالاته عز وجل[٢]

الفرق بين الولايتين : إن هناك فرقًا بين ولاية الله تعالى للعبد، وبين ولاية العبد لله عز وجل، تجب ملاحظته وهو أن الله تعالى لا يوالى عن افتقار للعبد، واحتياج إليه، وإنما يوالى إكرامًا لـلعبد، وإنعامًا عليه، لغناه تعالى عن ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه تعالى، وهذا من معانى اسمه «الصمد» وقد نفى الله تعالى فى كتابه العزيز – أن يكون له ولى من الذل : فقال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾[٣].

وأما العبد فإنه يوالى – إن وفقه الله تعالى – لفقره وحاجته إلى ربه إذ هو دائمًا فى حاجة إلى نصرة ربه ومعونته، ومحبته ورضاه، وادنائه منه، وتقريبه إليه، إذ لا يسعد

١– سورة آل عمران، آية ٣١.
٢– عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى ص ١٦٩ – ١٧١.
٣– سورة الإسراء، آية ١١١.

العبد إلا فى جوار مولاه، ولا ينعم إلا إذا تغمده ربه برحمته وخلع عليه فضلا منه رضوانه. فالمنة إذا لله تعالى على موالاته لعبده وقبوله له وليًا، وأما العبد فلا منة له بحال، وليس له أن يُدلّ على الله تعالى. ولو أذاب نفسه فى طاعة الله، وأوقف كل حياته عليه، وحتى لم يبق له هم ولا هوى سوى الله عز وجل.

* هذا هو الفرق بين ولاية الرب تعالى للعبد. وبين ولاية العبد للرب سبحانه وتعالى، فليعلم، فإنه مهم وجدير بالفهم والمعرفة.(١)

ب – **معنى الولى:** إننا بعد معرفتنا للولاية سيسهل علينا – إن شاء الله – معرفة الولى.

إن لفظ «الولى» وجمعه « أولياء» يكون اسم فاعل بمعنى المتولى غيره، المولى له.

ويكون اسم مفعول بمعنى الذى يواليه غيره ويتولاه، فالله تبارك وتعالى وهو الولى الحميد، ولى عبده المؤمن بمعنى أنه هداه للإيمان، ووفقه للطاعة وأدناه منه، وقربه إليه، وأحبه، ونصره، فهو مولاه ووليه.

قال تعالى :﴿ إِنَّ وَلِيِّـۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾(٢)

والمؤمن ولى الله تعالى بمعنى أن الله تعالى هداه وتولاه، وبمعنى أن المؤمن والى الله تعالى فآمن به واتقاه وأحبه، وأطاعه، ووافقه فى محابه ومساخطه، فوالى من يوالى، وعادى من يعادى، وأحب ما أحب ومن أحب، وكره ما كره ومن كره، فكان بذلك عبده ووليه، قال تعالى فى إثبات هذه الولاية وذكر كرامتها : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾(٣).

*وقد تقدم هذا المعنى واضحًا فى بحث الولاية فازداد وضوحًا وتقريرًا،وبالجملة فإن ولى الله تعالى من عباده هو مؤمن أكرمه الله تعالى بهدايته، فآمن به واتقاه، وتقرب

١– عقيدة المؤمن ص ١٧٣ بتصرف
٢– سورة الأعراف، آية ١٩٦
٣– سورة يونس، آية ٦٢ – ٦٤

إليه بالصالحات ، ووافقه فيما يحب وما يكره من الذوات والصفات ووالى من يوالى، وعادى من يعادى، فوالاه الله تعالى لذلك، وتولاه، وأكرمه بكرامات، فكان إذا دعاه استجاب له، وإن استعاذه أعاذه وإن سأله أعطاه.(١)

ولذلك كان المعادى لولى الله هو المعادى لله عز وجل لأنه عادى من تابع أوامر الله واجتنب نواهيه، لهذا السبب بخصوصه، فكأنه عادى من أصدر هذه الأوامر والنواهي، فى هذا كله. ولهذا ورد فى الحديث القدسى عن أبى هريرة رضى الله عنه «يقول الله من عادى لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة، وما تقرب عبدى بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه »(٢)

مراتب الأولياء : للأولياء أربع مراتب : عليا وعالية، ودنيا ووسطى

فالعليا : هى مرتبة الأنبياء والمرسلين، وكراماتهم يصرفونها لله تعالى الذى مّن بها عليهم، فتكون معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى على الناس.

والعالية : وهى مرتبة السابقين المقربين من أتباع الرسل عليهم السلام، وهم متفاوتون فيها تفاوت الرسل فيما بينهم، فى تسامى الدرجات، وعلو المنازل.

والوسطى : وأهلها هم أهل الايمان والتقوى من أصحاب اليمين المقتصدين

ودنيا : وهى مرتبة أهل الضعف فى الإيمان والتقوى، وهم الظالمون لأنفسهم المذكورون فى قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ

١- عقيدة المؤمن ص ١٧٤

٢- أخرجه البخارى «باب التواضع» كتاب الرقاق (١٣١/٨) إلا أنه ليس فيه «ولا بد له منه»

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾(١).

والشاهد فى هذه الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر ثلاثة أصناف من الناس، وهم الظالمون لأنفسهم، والمقتصدون والسابقون بالخيرات، وحكم على جميعهم بأنهم يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، فدل ذلك على أن أهل الضعف فى الإيمان والتقوى هم كذلك أولياء لله تعالى، وإن ظلموا أنفسهم بترك بعض الواجبات، أو بفعل بعض المحرمات، غير أن درجتهم دون درجة السابقين ولم تصل إلى درجة المقتصدين، فهم فى منزلة دون ذلك ، وذلك لضعف إيمانهم وتقواهم.

* ويلاحظ هنا أن أهل هذه المراتب على اختلافها، متفاوتون فى العدد قلة وكثرة، فأهل المرتبة العليا أقل عدداً من أهل المرتبة العالية، وأهل المرتبة العالية، أقل عدداً من أهل المرتبة الوسطى وأهل الوسطى أقل عددا من أهل المرتبة الدنيا، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج الى أكثر من تنبيه إليه (٢).

ويلاحظ أن الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لا عصمة لهم، فقد يخطئون، ويغلطون غير أن الغالب فى أحوالهم الحفظ مما يدنس شرف الولاية، ويخل بمقامها، وإن وقع أن أحدثوا ذنباً لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة، على الفور، فيقبلها الله تعالى منهم بعد أن وفقهم لها، فيسلم بذلك مقامهم من التداعى والسقوط، ومنزلتهم من النزول والهبوط(٣)

فكيف يقال إن الأولياء أفضل من الأنبياء، عند من يهرف بمثل هذا ؟ ! !

* ويقول ابن تيمية : . . ولكن الولاية قسمان : ولاية عامة تشمل جميع المؤمنين، وهى مأخوذة من قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٤) وولاية خاصة أعظم قدرا من الأولى، وهى مأخوذة من الآية الكريمة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ

١- سورة فاطر، الآيات (٣٢ - ٣٥).
٢- عقيدة المؤمن ص ١٧٧ و ١٧٨.
٣- عقيدة المؤمن ص ١٧٩.
٤- سورة المائدة، آية ٥٥.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(١) وهى الواردة فى الحديث القدسى السابق ذكره «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب - الحديث»، فهذه أى الولاية الخاصة - تزيد عن التى قبلها بمسألة التقوى، وهذه الولاية الخاصة لاتحصل إلا لمن كان من أهل الولاية العامة، ثم زاده الله من طاعته ومحبته له حتى بلغ درجة المحبة التى ذكرها الله عز وجل فى الحديث القدسى المذكور سابقًا (٢)

ولذلك صح قول القائل، كل الناس أولياء، إما أولياء للرحمن أو أولياء للشيطان. ومن كان وليًا للرحمن كان عدوًا للشيطان، ومن كان عدوًا للرحمن كان وليًا للشيطان.

إلا أنه لا يطلق لفظ الولاية بصريح العبارة على أصحاب الولاية العامة، أو أصحاب الدرجة الدنيا الظالمى لأنفسهم وإن كان معهم أصل الولاية، كما لا نطلق لفظ الإيمان المطلق على كل المؤمنين، وإن كان معهم مطلق الإيمان، أو أصله، فهذه تقاس على تلك.

فكيف يقال : من زعم لنفسه الولاية فهو كافر وإن الولاية لا تكون إلا لأصحاب الكرامات أو لا تكون إلا لمن مات من أصحاب الأضرحة والقباب ومن يقصدهم الناس بالحاجات.

* **طرق الوصول إلى الولاية** :إذا كانت ولاية الله ومحبته هما الغاية التى يسعى إليها كل مؤمن، فإن الوصول إلى هذه الغاية لا يتأتى إلا بأحد طريقين لاثالث لها

الطريق الأول : طريق الاجتباء، وهى المذكورة فى الآية الكريمة ﴿اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾(٣) .

الطريق الثاني : طريق الإنابة وهى المذكورة فى كمال الآية السابقة ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٤)

١- سورة يونس، آية ٦٢ و ٦٣

٢- موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ١٩٥ بتصرف

٣- سورة الشورى، آية ١٣

٤- تمام الآية السابقة

قال العلامة الشيخ صديق حسن خان : و«الاجتباء» الاختيار، والمعنى يختاره لتوحيده والدخول فى دينه

واجتباء الله العبد : تخصيصه إياه بفيض إلهى لتحصل له أنواع النعم بلا سعى منه.

وقال أيضا فى تفسير قوله تعالى﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾« أى يوفق لدينه ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته أو يقبل إلى عبادته»(١)

ويترجم الصوفية هذه المعانى الواردة فى الآية الكريمة والتى حددت طريق الوصول إلى محبة الله تعالى وموالاته، بقولهم : « إن من عباد الله من يسمى مراداً، وهو المقصود بالاجتباء، ومنهم من يسمى مريداً، وهو المقصود بالإنابة»(٢)

وبالنسبة لمعنى الإجتباء، نقول : لاشك أن الله سبحانه تعالى هو الملك المتصرف فى الكون، وأن له أن يختار من عباده من يشاء ويصطفيه ويفضله على غيره من الخلق. وقد اصطفى آدم ونوحًا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين، كما جاء فى الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣)

فمن آل إبراهيم من كان نبيًا ورسولاً، ومنهم من كان وليًا لله ولم يصل إلى درجة النبوة وهم بقية الصالحين من آل إبراهيم ومن آل عمران مريم بنت عمران التى ثبتت لها الولاية لله عز وجل، ولم تثبت لها نبوة ولا رسالة.

ومضمون هذه الطريقة : أن الله سبحانه وتعالى له أن يختار من عباده من يلهمه الصلاح والتقوى والعلم وما إلى ذلك من خصائص أوليائه فيبادره بذلك قبل أن يصل إلى مرحلة التكليف والإختيار التى قال الله عز وجل فيها ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٤)

وأما بالنسبة لمعنى الإنابة : فمن المعلوم أن الهداية درجات، وأن جميع درجات

١- فتح البيان، لصديق خان جـ ٨ ص ٣٦١ بتصرف
٢- عوارف المعارف للسهرودى ص ٤٨
٣- سورة آل عمران، آية ٣٣
٤- سورة الإنسان، آية ٣

الهداية إنما هى نعم من الله عز وجل على العباد، فمن نعمه عز وجل على عباده أن يوفقهم للإيمان، قال تعالى : ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1]

والمؤمنون بعد أن يشتركوا جميعا فى الإيمان ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، وضحتها آية سورة فاطر وسورة الواقعة، وهم السابقون بالخيرات فى الدنيا، السابقون إلى الجنة فى الآخرة، والمقتصدون فى الدنيا، أصحاب اليمين فى الآخرة، والظالمون لأنفسهم فى الدنيا بتقصيرهم أو قصورهم هم أقل الدرجات ولاية فى الدنيا، ومنزلة فى الآخرة، ولعل قائلا يقول : ألا يستحق أهل الظلم لأنفسهم العذاب عقوبة ظلمهم ؟ فنقول : إن الظالم قد يعذب إن لم يغفر الله عز وجل له. ولكنه بعد تطهيره من ذنوبه بالعذاب مصيره الجنة، وبهذا حكمت الآية بعد ذكرهم ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾[2].

والسابقون الذين سلكوا الطريق إلى الله – بعد الإيمان – بأداء الفرائض واجتناب النواهى، ثم يكثرون من النوافل، والبعد عن المتشابهات، والالتزام بالورع، هم أعلى درجات الولاية بعد الأنبياء.

وسلوك هذا الطريق لابد فيه أن يبتدئ بالتعليم وقراءة القرآن، وحفظ الحديث الشريف، ومعرفة الحلال والحرام ونحو ذلك من العلوم الضرورية والكمالية. ولا عبرة بقول من قال: إنه لا يشغل فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل فى تفسير ولا يكتب الحديث ولا غيره.

ولا تكون بهذه الخلوات المبتدعة التى ظنها الصوفية أنها شبيهة بالاعتكاف، وليست كذلك. ولا تكون بمجرد الإقتصار على تخلية القلب من كل مشاغله وافراغه من كل ما فيه من الشواغل والأفكار ما عدا ذكر الله، كما ادعى الشيخ « أبو حامد

١- سورة الحجرات، آية ١٧

٢- سورة فاطر، آية ٣٣

الغزالى»[١]

فإن من ظن أن مجرد الخلوة والتجرد من المشاغل الفكرية والبدنية توصل إلى ولاية الله الخاصة التى هى أمل كل مؤمن، فهذا خطأ لاشك فيه، إذ لا يقبل الشرع ولا العقل أن ينطوى الإنسان على الجهل، وينعزل عن العالم ويبتعد عن حلقات الدرس وعن ممارسة الحياة لكى ينتقل من مرحلة الجهل إلى مرحلة خصوصية العلم والولاية دفعة واحدة.

ولا شك أن هذه فكرة غريبة عن الإسلام بدليل أن الإمام الغزالى نفسه الذى شرح هذ الطريقة، بدأ ذلك بقوله : «وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية . . الخ»[٢]

فقوله : (زعموا) دليل على أنه غير واثق من صدق هذا القول، وأنه قول غير مستند إلى أدلة شرعية من الكتاب والسنة.

وكما قالوا : «الزعم مطية الكذب» ا. هـ [٣]

ومن الولاية إلى الكرامة

١- الإحياء للغزالى جـ ٣ ص ١٩ .

٢- إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٣ ص ١٩

٣- انظر / موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ١٩٦.

معنى الكرامة :

* **الكرامة** : الاسم من كرم، والجمع كرامات، وهى ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الافضالات، (وهى عامة وخاصة).

فالعامة : هى ما كرم الله به بنى آدم، وفضلهم به على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية، ومن ذلك اعتدال القامة والخلق فى أحسن تقويم، والعقل، والمنطق، وتدبير المعاش واصلاحه، وتسخير الكون لهم، والانتفاع به، إلى غير ذلك من الإفضال والإنعام، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(١)

والخاصة : وهى أفضلهما : ما يكرم الله تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات، وترك المنهيات، فهذه الإستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات، وأهلها هم أصحاب اليمين المذكورون فى قول الله تعالى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾(٢)

وفى قوله : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾(٣)

وهم المقتصدون المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(٤)

وهم المبشرون بالجنة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٥)

١- سورة الإسراء آية ٧٠. ٢- سورة الواقعة، آية ٢٧ ٣- سورة الواقعة، آية ٩٠ و ٩١
٤- سورة فاطر، آية ٣٢ ٥- سورة الأحقاف، آية ١٣ و ١٤

وأخص من هذه الكرامة – كرامة الإيمان والإستقامة – ما يكرم الله تعالى به بعض عباده زيادة على الإيمان والتقوى، من الورع والتقليل من المباحات والإكثار من نوافل العبادات من صلاة، وصدقات، ورباط وجهاد، وصيام، وحج وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين والسابقين فى قول الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾(١)

وفى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾(٢).

وهم المعنيون بقول الله تعالى فى حديث البخارى : « من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلىّ عبدى بمثل آداء ما افترضت عليه . ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه . . . » (٣)

فهؤلاء فى أعلى مرتبة من مراتب الولاية، إذ يعرفون باستقامتهم، واستجابة ربهم لهم فيما يسألونه ويطلبونه، فلو سألوه زوال جبل لزال، ولو أقسموا عليه تعالى لأبرهم، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات كتكثير القليل، وشفاء العليل، وكإكساب المعدوم، والانقاذ من الهلاك المحتوم.(٤) أو خوض البحار، وعدم الاحتراق بالنار ونحو ذلك.

ماهية الكرامة : « هى ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة(٥) ويعتمد كثير من الناس على الكرامات كشاهد يثبت وصول صاحبها إلى درجة عظيمة فى الولاية لله عز وجل ولكن هذا المسلك أدى إلى الخلط بين الأولياء الحقيقيين الذين تحصل لهم كرامات حقيقية، وبين الأدعياء الدجالين الذين يظهرون

٦- سورة الواقعة، آية ١٠ – ١٤
٢- سورة فاطر، آية ٣٢ و ٣٣
٣- سبق تخريجه
٤- عقيدة المؤمن ص ١٧٥ و ١٧٦ بتصرف
٥- التعريفات للجرجانى ص ١٦١ ط القاهرة ١٣٥٧ هـ

بعض المخاريق الشيطانية على أنها «كرامات» وهى ليس كذلك.

وقد نشأ الخلط من اشتراك الكرامة مع غيرها فى خرق العادة.

وقد اختلف فى جواز خرق العادة من عدمه على أراء كثيرة، الراجح منها أن خرق العادة جائز، فكل ما خرق لنبى من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين، بل ومن السحرة والكهان أيضًا، لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوى النبوة وهو التحدى والإعجاز، فهذه تكون معجزة للأنبياء وإن كانت قبل النبوة فهى الإرهاص، وإن كانت غير مقرونة بالتحدى، خالية من دعوى النبوة فهى الكرامة لخاصة الأولياء، أو تكون بمعنى المعونة لعامة المؤمنين.

أما ان كانت فى معرض المعارضة للأنبياء، فهى الاستدراج للكفار ومن فى حكمهم، أو الاهانة لمدعى النبوة من الكذابين(١)

قال: «ابن تيمية»: ما حاصله أن كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء من جنس واحد بلا ريب، ولكن كرامات الصالحين لا تبلغ مثل معجزات الأنبياء والمرسلين، كما أنهم لايبلغون فى الفضيلة والثواب إلى درجاتهم، ولكن قد يشاركونهم فى بعض أعمالهم. والمعول عليه فى الشهادة على صدق الأنبياء فى نبوتهم معجزاتهم الكبرى، وهذه لايظهر مثلها على يد أحد سواء من المعارضين أو الموالين.

أما التوابع والنوافل التى لايعتمد عليها استقلالاً فى الشهادة على صدق الأنبياء فيجوز أن يظهر مثلها على يد الأولياء كرامة لهم ودلالة على صدق النبى الذى اتبعوه، وهذا لايطعن فى صدق الأنبياء بل يؤيده. أما ما يروى من أمور كبار حدثت على يد بعض الصحابة رضى الله عنهم كما صارت النار بردًا وسلاما على« أبى مسلم الخولانى »ونحو ذلك، فقد خرجها «ابن تيمية» على أنها ليست مجرد كرامات لهؤلاء الصحابة، بل هى من معجزات النبى ﷺ المتأخرة عنه بمنزلة الإرهاصات التى تتقدم مبعثه(٢)

١- موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٢٢٧ و ٢٢٨ بتصرف.

٢- النبوات لابن تيمية ص ٢ - ٤ بتصرف

وبهذا يكون «ابن تيمية» قد وضع قواعد واضحة للتمييز بين المعجزة والكرامة، فالمعجزة شيء عظيم لا يحدث إلا لنبى دلالة على صدقه، أما الكرامات فإنها وإن كانت من جنس المعجزات لأن مصدرها واحد هو الله عز وجل، ولأنها خارق حقيقى للقوانين والنواميس الكونية بقدرة الله، وليست كالسحر والشعوذة، كما سيأتى التفريق بينها وبينهم، إلا أن الكرامة من التوابع والنوافل، التى لا تصل إلى حد المعجزات الكبرى.(١)

ويشارك «ابن تيمية» المعتزلة فى القول بأن ما حدث من أمور كبيرة على يد الصحابة إنما هو من المعجزات الخاصة بنبى هذه الأمة وإن جرى على يد تابعه، فلا يصح ضمه إلى جملة الكرامات، إلا أن المعتزلة تعمم ذلك فى ما يحدث من خوارق للأولياء وتتخذ من ذلك ذريعة لمنع الكرامات، أما «ابن تيمية» فيخصصه بما كان منها فى درجة المعجزات التى جرت للأنبياء فعلاً.

ولقد رد« ابن تيمية» على المعتزلة إنكارهم للخوارق عدى المعجزات، بأن هذه موجودة مشهورة لمن شهدها متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء.

الفرق بين الكرامات وغيرها من أنواع السحر والشعوذة :

يستتبع موضوع البحث فى الكرامة من جهة نبوتها ومنزلتها بالنسبة للمعجزة أن تميز بينها وبين السحر والشعوذة، ونكتفى هنا بما بذله «ابن تيمية» من جهد مشكور لإظهار الفرق بين الكرامة وبين السحر والشعوذة، بشكل لم أجد له مثيلاً فى الدقة والوضوح عند غيره.

فابن تيمية يتخذ من النبوة أساساً للتمييز بين ما يسمى معجزات وكرامات وبين ما يسمى سحر أو شعوذة وكهانة.

فآيات الأنبياء وبراهينهم. ومنها كرامات الصالحين – لاتوجد إلا مع النبوة والإيمان

١– موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٢٣١ بتصرف.

بها، ولا توجد مع ما يناقضها أبدًا.

أما خوارق الكهان والسحرة والمشعوذين فلا توجد إلا مع ما يناقض النبوة، لأن السحر والكهانة والشعوذة تناقض النبوة بلا شك.

والناس رجلان : رجل موافق للأنبياء، ورجل مخالف لهم، فالمخالف مناقض وإذا كان كذلك فيقال جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر بل وعن مقدور جنس الحيوان.

وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان مقدور لجنس الحيوان أو الجان أو الإنسان، فآيات الأنبياء وكرامات الأولياء مما لا يختص غير الرب بالقدرة عليه، لأن فيه خرق حقيقى للقوانين الكونية قد يصل إلى تغيير جنس إلى جنس آخر.

أما خوارق الكهان وغيرهم فهى لا تصل إلى هذا الحد، بل لا تتعدى ما هو فى مقدور الإنس أو الجن فهى إما تصرف فى أعراض الحى بالحركة أو الموت أو المرض أو إخبار بأمور غائبة عمن أخبر بها بينما هى لا تكون غيبًا بالنسبة لمن حضرها من الجن الذين ينقلونها مع الكذب فيها.

وأما ما يخبر به الرسل من الأمور البعيدة والكبيرة مفصلاً، فهذا لا يقدر عليه جن ولا إنس. والحاصل أن «ابن تيمية» ينبه إلى أن خوارق السحرة والكهان والمشعوذين ليست فى الحقيقة إلا أمور مقدورة لبعض المخلوقات دون البعض الآخر.

بينما لا تكون آيات الأنبياء وما فى حكمها ككرامات الصالحين من هذا القبيل مطلقًا.

وأخيرا يمكن أن يقال إن الكرامات مسألة دينية، لايقف فى سبيلها اعتراض ولا إبطال، فقد كان العمدة فى إبطالها التباسها بالمعجزات فكان فى اثباتها تشويش على معجزات الأنبياء وطعن فى صدق دعواهم أو اشتباهها بالسحر والكهانة، ولكن بما حققه الإمام ابن تيمية اندفع هذا الإشكال بشكل حاسم.

وفوق هذا كله انتفاء المانع من الكرامات فقد ثبت بما يشبه التواتر كرامات كثيرة

لكثير من الصـالحين فى العصر الأول وما يليه عـن الثقات الذين لا يتطرق إلى رواياتهم الشك ولا التكذيب(١)

* نماذج من الكرامات عند أهل الحـق :

نقل «ابن تيميـة» فى رسالته «الفرقـان بين أولياء الرحمن وأولياء الشـيطان» وغيرها، كثيراً من الروايات الـصحيـحة التى تذكـر أنواعًا من الكرامـات للأولياء والـصالحين. ومنها :

* ما حـدث للأنبـياء والمرسلين، من مـعجـزات هو لهم من الله كرامـة، فإن كـانت مقـترنة بالتـحدى فـهى المعجـزة قولاً واحدًا، وأمـا إن كانت غير مـقرونة بالتـحدى والإعجاز فهى وإن كانت فى ظاهر الأمر مـعجزة، إلا أنها إلى الكرامة أقرب، إذ ليس فيهـا تحدى أو إعجاز، كما هـو شأن المعجزة، وذلك لأنها تبعًا لولاية النبى، إذ – كما عرفت – كل نبى ورسـول ولى، وليس كل ولى نبيًا أو رسـولاً، وكل رسول نبى ولى، وليس كل نبى رسـولاً، فالرسول نبـى ولى، ورسالته مـتضـمنة لنبوته، ونبـوته متـضمنة لولايته، واذا قدروا مجرد إنباء الله إياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع، فإنه حال إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا وليًا لله ولا تكون مجردة عن ولايته، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلاً للرسول فى ولايته.(٢)

فأفـضل أولياء الله هم أنبـياؤه، وأفضل أنبـيائه هم المرسلون منهم، وأفـضل المرسلين أولوا العزم، وأفضل أولى العـزم محمد ﷺ خاتم النبـيين، وإمام المتقين، وسـيد ولد آدم أجمعين.(٣)

* ومن ذلك مـا حـدث للنبى مـحمـد ﷺ : مثـل تسبـيح الحصا فـى كفه، وإتـيان الشـجرإليه، وحنين الجذع إليه، وتكثير الطعـام والشراب مرات كثيرة، كما أشبع – فى الخندق – العسكر من قـدر طعام وهو لم ينقص، فى حديث أم سلمـة المشهور، وروى العسكر فى غزوة خيـبر من مزادة ماء ولم تنقص، وملأ أوعيـة العسكر «عام تبوك» من

١- موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٢٣٢ و ٢٣٣

٢- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٥٣ بتصرف.

٣- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٦ و ٧ بتصرف.

طعام قليل، ولم ينقص ، وهم نحو ثلاثين ألفًا، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه كما كانوا فى غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة، ورده لعين أبى قتاده حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل «كعب بن الأشرف» فوقع فانكسرت رجله فمسحها فبرئت، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلاً كلا منهم حز له قطعة، وجعل منها قطعتين، فأكلوا منها جميعهم ثم فضل فضله، ومثل هذا كثير[1] ا. هـ [2]

* ومثاله ما حدث لبقية إخوانه من الأنبياء، كما امتن الله عز وجل على الخليل إبراهيم عليه السلام، بالنجاة من النار، وإكرامه بإنجاب الولد بعد أن بلغ وزوجته من الكبر عتيًا، فضلاً عن عقم زوجه، وكذلك ما أكرم الله به زكريا عليه السلام من الولد بعد كبر سنه ومع عقم زوجه أيضًا.

وما أكرم الله به يونس عليه السلام بإخراجه من بطن الحوت، وما مَنَّ الله به على يوسف عليه السلام فنجاه الله من كيد إخوته، ومن مكر امرأة العزيز ومن كيد نسوة المدينة، فصرف عنه السوء والفحشاء.

وما أكرم الله به «مريم البتول» من الرزق الذى جاءها بغير أسباب، وتساقط الرطب الجنى عليها بشىء من الأسباب، ونطق عيسى عليه السلام فى المهد ليبرئها من اتهام اليهود.

وما حدث لأهل الكهف من آيات كانت عجبًا، وبعثهم بعد نومهم بسنين عددًا، وما وقع لعزير إذ دخل القرية الخاوية على عروشها، فحدثت له آية عجيبة، كما ذكر ذلك فى القرآن مفصلاً [3]

***وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدًا، مثل :**

* ما حدث لأبى بكر الصديق رضى الله عنه لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربى من أسفلها أكثر منها، فشبعوا وصارت أكثر مما هى قبل

١- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٨٧ و ٨٨ بتصرف

٢- راجع نصوص الأحاديث فى الصحاح.

٣- راجع الآيات بنصها وشروحها.

ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته، فإذا هي أكثر مما كانت فرفعها إلى رسول الله ﷺ وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا»(١)

وما حدث لعمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يخطب على منبر رسول الله ﷺ بالمدينة، فإذا به يقول : يا سارية الجبل، يا سارية الجبل - يوجه قائد معركة يقال له : سارية - فسمع سارية صوته، وانحاز الجيش إلى الجبل، فكان فى ذلك نصرهم، وانهزام أعدائهم من المشركين، ورجع سارية فأخبر عمر والصحابة بما سمع من صوت عمر رضى اللّه عنه .(٢)

وعمر رضى الله عنه، قال فيه النبى ﷺ : «قد كان فى الأمم قبلكم مُحَدَّثون، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر منهم»(٣)

وقال ﷺ : «لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر» وفى حديث آخر «إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه»(٤)

وأيضا : «لو كان نبى بعدى لكان عمر» وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر، وقال ابن عمر : ما كان عمر يقول فى شىء : إنى لأراه كذا. إلا كان كما يقول، وعن قيس بن طارق قال : كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك(٥)

وكان عمر يقول : «اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة».

وهذه الأمور الصادقة التى أخبر بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنها تتجلى للمطيعين هى الأمور التى يكشفها الله عز وجل، فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات، وأفضل هؤلاء فى هذه الأمة بعد «أبى بكر»« عمر بن الخطاب» رضى الله عنهما.

فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.(٦) وكم من مرة يوافق عمر رضى

١- متفق عليه
٢- الفرقان ص ٣٧
٣- متفق عليه
٤- رواه الترمذى وغيره
٥- الفرقان ص ٣٧ بتصرف
٦- الفرقان ص ٣٨ .

الله عنه فيها القرآن، فـيدل على أنه مُحَدَّثٌ فى هذه الأمة، ومع هذا فليس هو بمعصوم رضى الله عنه، فقد خالف النبى ﷺ فى صلح الحديبية، وأنكر موت النبى ﷺ ثم رجع عنه، وخالف الصديق فى قتال مانعى الزكاة ثم عدل عنه.

* وقال عثـمان رضى الله عنه : لو طهرت قلوبنا لما شبـعت من كلام الله عز وجل، ودخل عليـه «رضى الله عنه» رجلان، فـقال : مـا لى أرى فى أعـينكما أثر الزنا، وقـد نظرا إلى امرأة أجنبية قبل الدخول عليه، ثم قالا : أوحى بعد رسول الله ﷺ؟ قال : لا، ولكن سمعت النبى ﷺ يقول : «اتقـوا فراسة المؤمن فـإنه ينظر بنور الله»[1] وقد تقدم الحـديث الصحـيح الذى فى البخـارى وغـيره قـال فيـه : «لايزال عبـدى يتقـرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتـه كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى، ولئن سألنى لأعطـينه، ولئن استعـاذ بى لأعذينه، وما ترددت فى شـىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه»

* وما أوتى على رضى الله عنه من قـوة فى فتح حصن خيـبر، وقد كان بعينه رمد، فبرأ منه بإذن الله. وما قاله ﷺ : «إن لله رجالاً لو أقسموا على الله لأبرهم»[2]

وفى قوله ﷺ : كانت امرأة ترضـع ولدها فرأت رجلاً على فرس فـاره، فقالت : اللهم اجعل ولدى مـثل هذا، فالتـفت إليه الطفل وهو يرضع، وقال : «الـلهم لا تجعلنى مثله»[3] فنطق الرضـيع كـرامة لـلولد والوالد. وفى قـوله فى« جريج» الـعابد وأمـه، إذ قالت أمه : «اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، فاستجاب الله لها كرامة منه تعالى لهـا. وقال ولدها جـريج لما اتهمـوه بأن ولد البغـى منه، قال للولد الرضـيع :من أبوك ؟ فقال : راعى الغنم. فنطق الرضيع كرامة لجريج العابد، وقال عن نفسه– وهو يتسم –:

١– رواه الترمذى وقال حديث حسن

٢– متفق عليه.

٣– متفق عليه .

«أصابتنى دعوة أمى»[1]

وقوله ﷺ فى أصحـاب الغار الثلاثة الذين انـطبقت عليهم الصـخرة حتى خـرجوا سالمين كرامة لهم [2]

وقوله فى حديث الراهب والغلام، إذ جاء فيه : إن الغلام رمى الدابة التى كانت قد منعت الجمـاهير من المرور بحجر فماتت ومر الناس، فكانت كرامة للغلام، كـما أن الملك حاول قـتل الغلام بشتى الوسـائل فلم يفلح حتى رماه من جبـل شاهق ولم يمت، وقذفه فى البحر فخرج منه يمشى ولم يمت، فكان ذلك كرامة للغلام المؤمن الصالح[3]

* ومن أمثلة الصحابة رضى الله عنهم أيضًا : أن الملائكة كانت تسلم على «عمران ابن حصين » رضى الله عنه، وأن« سـلمان الفارسى» و«أبا الدرداء» رضى الله عنهـما كانا يأكلان فى صحفة فسبحت الصحفة أو الطعام فيها. وهذا ما يشهد له قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[4]

وإن« خبيبًا »رضى الله عنه كـان أسيرا عند المشركين بمكه فكان يؤتى بعنب يأكله، وليس بمكه مـن عنب. وهذا يشـهـد له قـوله تعـالى : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5]

وأن «البراء بن عـازب » رضى الله عنه كان إذا أقسم على الله فى شىء اسـتجاب الله له حتى كان يـوم القادسية أقسم على الله أن يمكّنَ المسلـمين من رقاب المشركين، وأن يكون أول شهيد فى المعركة فكان كما طلب.

ويشهد له حديث النبى ﷺ : «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»[6]

وإن «العلاء بن الحـضرمى» رضى الله عنه كان يقول فـى دعائه : يا عليم يا حكيم،

١- أخرجه البخارى .
٢- متفق عليه
٣- أخرجه البخارى
٤- سورة الاسراء، آية ٤٤
٥- سورة آل عمران آية ٣٧
٦- متفق عليه.

يا علىٍّ يا عظيم، فيستجاب له حتى إنه خاض البحر بسرية معه فلم تبتل سروج خيولهم»(١).

وإن «الحسن البصرى» دعا الله على رجل كان يؤذيه فخر ميتا فى الحال.

وإن «عامر بن فهيرة» قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما قتل رُفع فرآه «عامر بن الطفيل» وقد رفع، وقال عروة : فيرون الملائكة رفعته.

وخرجت «أم أيمن» مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسًا على رأسها فرفعته، فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها .

«وسفينة» مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده .

«وسعد بن أبى وقاص» كان مستجاب الدعوة ما دعا قط إلا استجيب له، وهو الذى هزم جنود كسرى وفتح العراق.

و«خالد بن الوليد» حاصر حصنًا منيعًا ، فقالوا : لا نسلم حتى تشرب السم فشربه فلم يضره .

ولما عذبت «الزبيرة» على الإسلام فى الله، فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها قال المشركون : أصاب بصرها اللات والعزى، قالت : كلا والله، فرد الله عليها بصرها(٢)

ومنها : أن «أسيد بن حضير» رضى الله عنه «كان يقرأ سورة الكهف، فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج، وهى الملائكة نزلت لقراءته»(٣)

١- صحيح.

٢- راجع : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٨٨ - ٩٠ بتصرف.
وموقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٢٣٣ - ٢٣٤ بتصرف.
ومنهاج المسلم لأبى بكر الجزائرى ص ٦١ - ٦٣ بتصرف.

٣- متفق عليه.

ويؤيد هذه الرواية قول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾(١)

* وإن «عباد بن بشر» و«أسيد بن حضير» خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما»(٢).

* ودعا «سعيد بن زيد» على أروى بنت الحكم، فأعمى الله بصرها، لما كذبت عليه، فقال : اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واقتلها فى أرضها، فعميت ووقعت فى حفرة من أرضها فماتت.

* وما جرى لأبى مسلم الخولانى الذى ألقى فى النار، فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهى ترمى بالخشب من مدها ثم التفت إلى أصحابه فقال تفقدون من متاعكم شيئًا حتى أدعو الله عز وجل فيه ؟ فقال بعضهم : فقدت مخلاة، فقال اتبعنى، فوجدها قد تعلقت بشىء فأخذها، وطلبه «الأسود العنسى» لما ادعى النبوة فقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : ما أسمع، قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم، فأمر بنار فألقى فيها، فوجدوه قائما يصلى فيها، وقد صارت عليه بردًا وسلامًا، وقدم المدينة بعد موت النبى ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، وقال الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم خليل الله. ووضعت له جاريته السم فى طعامه فلم يضره، وخببت امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت، وجاءت وتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها.(٣)

* هذا وقد ذكر شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله مزيداً من تلك الكرامات التى صحت والتى تتفق مع ما قرره الدين، قال، وهذا باب واسع، قد بسط الكلام على كرامات الأولياء فى غير هذا الموضع.(٤)

١- سورة فصلت، آية ٣٠ ٢- صحيح البخارى جـ ٢ ص ٣١٣

٣- أغلب هذه الكرامات فى الصحيح والسنن الصحيحة والآثار المنقولة المتواتره

٤- راجع بتوسع :الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وكذلك مجموع الفتاوى، وكلاهما لابن تيمية

ويقول : وأما ما نعرفه نحن عيانًا ونعرفه فى هذا الزمان فكثير، ومما ينبغى أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا إحتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوى إيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيًا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور فى التابعين أكثر منها فى الصحابة بخلاف من يجرى على يديه الخوارق لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة.(١)

*كما يعلم أن هذه الكرامات التى يظهرها على يد بعض أوليائه ليست شرطًا فى ثبوت الولاية، ولا فى نفيها، ولما كانت تنقص من درجة من يظهرها الله تعالى على يديه،لأنها بمثابة تعجيل الجزاء على الايمان والتقوى فى الدنيا كان بعض الأولياء يتوبون منها الى الله تعالى، ويستغفرون لأجلها(٢).

*وهذه الكرامات - التى ذكرناها - بخلاف الأحوال الشيطانية، مثل : حال «عبد الله بن الصياد» الذى ظهر فى زمن النبى ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبى ﷺ فى أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال. لكنه كان من جنس الكهان، فقال له النبى ﷺ : قد خبأت لك خبئًا قال : الدخ الدخ. وقد كان خبأ له سورة الدخان، فقال له النبى ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك» يعنى إنما أنت من إخوان الكهان، والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما هو فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره أن النبى ﷺ قال : «إن الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضى فى السماء فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم».

وفى الحديث الذى رواه مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال :« بينما النبى ﷺ فى نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار، فقال النبى ﷺ :«ما كنتم تقولون لمثل هذا فى الجاهلية إذا رأيتموه ؟ قالوا: كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم،

١- الفرقان ص ٩٣

٢- عقيدة المؤمن ص ١٧٩ بتصرف

قال رسول الله ﷺ فإنه لايُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا ؟ فيخبرونهم ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا وتخطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون. وفى رواية قال معمر قلت للزهرى : أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال نعم ولكنها أغلظت حين بُعث النبى».

* «والأسود العنسى» الذى ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين كفره فقتلوه.

وكذلك «مسيلمة الكذاب» كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور.

وأمثال هؤلاء كثيرون مثل «الحارث الدمشقى» الذى خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة، وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يُرى الناس رجالاً وركبانًا على خيل فى الهواء : ويقول : هى الملائكة، وإنما كانوا جنًا، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك : إنك لم تسمّ الله فسمى الله، فطعنه فقتله.

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسى، فإنه قد ثبت فى الحديث الصحيح، فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه لما وكله النبى ﷺ بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبى ﷺ « ما فعل أسيرك البارحة» فيقول زعم أنه لا يعود، فيقول : «كذبك وأنه سيعود» فلما كان فى المرة الثالثة، قال : دعنى حتى أعلمك ما ينفعك ، إذا آويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ

ٱلْقَيُّومُ﴾ الى آخرها فانه لن يزال عليك من الله حافظ ولايقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبى ﷺ قال : «صدقك وهو كذوب» وأخبره أنه شيطان.

ولهذا اذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها مثل من يدخل النار بحال شيطانى، أو يحضر سماع المكاء والتصدية فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلامًا لا يعلم وربما لا يفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما فى قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة كما يتكلم الجن على لسان المصروع، والإنسان الذى حصل له الحال لا يدرى بذلك بمنزلة المصروع الذى يتخبطه الشيطان من المس ولبسه وتكلم على لسانه فاذا أفاق لم يشعر بشىء مما قال. ولهذا قد يضرب المصروع، وذلك الضرب لا يؤثر فى الانس ويخبر اذا أفاق أنه لم يشعر بشئ لأن الضرب كان على الجن الذى لبسه.

ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون فى ذلك الموضع، ومنهم من يطير بهم الجن إلى مكة، أو بيت المقدس أو غيرها، ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من ليلته فلا يحج حجًا شرعيًا، بل يذهب بثيابه، ولا يحرم إذا حاذى الميقات، ولا يلبى، ولا يقف بمزدلفة ولا يطوف بالبيت، ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمى الجمار، بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته.

وهذا ليس بحج، وقد قال أحدهم ألا تكتبونى ؟ فقالوا لست من الحجاج يعنى حجًا شرعيًا.

*** وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة**

منها إن كرامات الأولياء سببها الايمان والتقوى، والأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله. كما تحصل بما يحبه الشيطان، وبالأمور التى فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوقات، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهى من الأحوال الشيطانية لامن الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزل عليه شيطانه حتى يحمله فى الهواء، ويخرجه من تلك الدار، فاذا حضر رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط، كما جرى هذا لغير واحد.

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حى أو ميت سواء كان ذلك الحى مسلمًا أو

نصرانيًا أو مشركًا، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ،ويقضى بعض حاجة ذلك المستغيث، فيظن أنه ذلك الشخص أو هو مَلَكٌ على صورته، وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين . ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ويقول له أنا الخضر، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب.

يموت لهم الميت فيأتى الشيطان بعد موته على صورته وهم يعتقدون أنه ذلك الميت ويقضى الديون ويرد الودائع ويفعل أشياء تتعلق بالميت، ويدخل إلى زوجته ويذهب، وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما تصنع كفار الهند، فيظنون أنه عاش بعد موته، ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه فقال إذا أنا مت فلا تدع أحدا يغلسنى فأنا أجئ وأغسل نفسى فلما مات رأى خادمه شخصًا فى صورته فاعتقد أنه جاء وغسل نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غسله أى غسل الميت غاب، وكان ذلك شيطانًا، وكان قد أضل الميت، وقال إنك بعد الموت تجئ فتغسل نفسك، فلما مات جاء أيضا فى صورته ليغوى الأحياء كما أغوى الميت من قبل ذلك.

ومنهم من يرى عرشًا فى الهواء وفوقه نور ويسمع من يخاطبه ويقول أنا ربك، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره، واستعاذ بالله منه، فيزول. ومنهم من يرى أشخاصًا فى اليقظة يدعى أحدهم أنه نبى أو صديق أو شيخ من الصالحين، وقد جرى هذا لغير واحد.

ومنهم من يرى فى منامه أن بعض الأكابر، إما الصديق رضى الله عنه أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقيته أو ثوبه، فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصر، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه.

* وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة، وهم درجات والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وهم على مذهبهم، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ، فإن كان الإنسى كافرًا أو فاسقًا أو جاهلاً دخلوا معه فى الكفر والفسوق والضلال، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم، ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه

بالنجاسة أو بقلب فاتحة الكتاب، أو سورة الاخلاص أو آية الكرسى أو غيرهن ويكتبهن بنجاسة فيغورون له الماء، وينقلونه بسبب ما يرضيهم به من الكفر، وقد يأتونه بما يهواه من امرأة أو صبى إما فى الهواء وإما مدفوعاً ملجأ إليه.

إلى أمثال هذه الأمور التى يطول وصفها، والايمان بها إيمان بالجبت والطاغوت، والجبت السحر، والطاغوت الشياطين والأصنام، وإن كان الرجل مطيعًا لله ورسوله باطنًا وظاهرًا لم يمكنهم الدخول معه فى ذلك أو مسالمته[١]

فكرامات أولياء الله لابد أن يكون سببها الإيمان والتقوى، فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان، فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء، وانما تحصل عند الشرك مثل دعاء الميت والغائب، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات كالحيات والزنابير والخنافس والدم وغيره من النجاسات، ومثل الغناء والرقص لاسيما مع النسوة الأجانب والمردان. وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان فيرقص ليلاً طويلاً، فاذا جاءت الصلاة صلى قاعداً أو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه،ليس له فيه محبة ولاذوق ولا لذة عند قراءته ووجد ، ويجب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد.

فهذه أحوال شيطانية وهو ممن يتناوله قوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[٢]

فالقرآن هو ذكر الرحمن، قال الله تعالى :﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[٣]

يعنى تركت العمل بها، قال ابن عباس رضى الله عنهما : تكفل الله لمن قرأ كتابه

١- راجع بتوسع «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص ٩٤ - ١٠٠

٢- سورة الزخرف، آية ٣٦

٣- سورة طه، آية ١٢٤ ، ١٢٦ .

وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، ثم قرأ هذه الآية »أ . هـ [١]

* الفرق بين الولي الصادق والدعي الكاذب.

ومما يتعلق بتمييز الكرامة عن غيرها من خوارق العادات التمييز بين الولى الذى يجوز أن تحدث له الكرامة وبين من هو أعلى منه منزلة وهو النبى، أو من يدعى مثل منزلته كذبًا وبهتانًا وهو المشعوذ والساحر وغيرهم.

فأما الفرق بين النبى والولى من جهة الخارق الذى يجرى على يد كل منهما، فقد علمنا أن النبى تجرى على يده المعجزات وهى نوعان – سماها «ابن تيمية» معجزات كبرى وهى دليل صدقه، ونوع من التوابع والنوافل سماها معجزات صغرى

والولى تحدث على يده الكرامات وقد تشتبه بالمعجزات الصغرى أو تماثلها ولكن النبى يختص بالعصمة دون الولى، فالمعجزة للنبى دليل على عصمته من الخطأ فيما أرسل من أجله وهو التشريع.

أما الولى فكرامته إنما تدل على صدق النبى الذى آمن به هذا الولى واتبعه فى شريعته ولا تدل بحال على عصمته هو من أن يخطئ فى بعض أعماله أو عباداته أو توجيهاته لأنه لم يرسل ويصطفى من الله عز وجل لهذا الغرض كالنبى. وإنما هو مجتهد فيه، أما النبى فقد اصطفاه الله من عباده لهذا الغرض.

ومن هنا وجبت طاعة النبى مطلقًا، بينما لاتجب طاعة الولى مطلقًا إلا فيما عليه دليل شرعى واضح. وفارق آخر بين المعجزة والكرامة هو أن الكرامة تحدث بحسب حاجة الولى، فإذا احتاج إليها لتقوية ايمانه جاءه منها ما يكفيه لتقوية إيمانه أو احتاج إليها لفك ضيق عليه أو على من يدعو له جاءه من ذلك ما يفرج كربته ويجيب دعاءه بخلاف المعجزات فإنها لا تكون إلا لحاجة الخلق وهدايتهم.[٢]

ويقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» ما نصه : (وكرامات الصالحين تدل على صحة

١– الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٠٩ و ١١٠

٢– الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٧٧

الدين الذى جاء به الرسول ولا تدل على أن الولى معصوم ولا على أنه يجب طاعته فى كل ما يقوله.

ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم، فإن الحواريين مثلاً كانت لهم كرامات كما تكون الكرامات لصالحى هذه الأمة فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الأنبياء، فصاروا يوجبون موافقتهم فى كل ما يقولون وهذا غلط[١]

والحقيقة أن كثيراً من المسلمين أيضًا قد وقع فيما وقع فيه النصارى من الخطأ الذى ذكره ابن تيمية، فبمجرد أن يشتهر شخص بشىء من الكرامات ترتفع درجة الثقة فى أقواله وتوجيهاته وأوامره ونواهيه إلى حد أن أكثر الناس لايقبل فيها جدلاً بتاتاً ولايعرضها على ما جاء فى الكتاب والسنة أو لربما كان الرجل واهما فى بعض أموره ولم يتحقق من صحتها مع صلاح نيته ولكن هذا الصلاح فيه لا يوجب إقراره على الخطأ إذا علم فيه كما لا يمنع من الرد عليه اذا لزم الأمر.

ولكننا اذا رجعنا إلى الصوفية نجد أن كثيرا منهم يقيسون منزلة الولى الدينية بمقدار ما يجرى على يديه من كرامات، ومن هنا نجدهم يتسابقون فى تخصيص كل واحد من مشائخهم بنوع من الكرامات لا ينافسه فيه غيره، كاختصاص الرفاعية بإمساك الثعابين وعدم التأثر بسمها – الخ[٢]

وقد وصل الأمر ببعضهمإلى إدعاء أمور كبيرة لا يجوز أن تحدث لنبى من الأنبياء فضلا عن الولى، كما يحكى الشعرانى عن «على الخواص» أنه كان محل كشفه اللوح المحفوظ [٣]

فهذا وإن كان محض افتراء ممن قال به وتكذبه الآيات القرآنية، كقوله تعالى : ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ

١- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٢٩

٢- أقطاب التصوف الثلاثة – صلاح عزام

٣- طبقات الصوفية للشعرانى ج٢ ص ١٣٥

يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[١]

لكن هذا الافتراء يبين لنا مدى ما وصل إليه حال بعض الصوفية من إعتماد على الكرامات كوسيلة توصلهم إلى درجة مرموقة من الولاية عند الجماهير

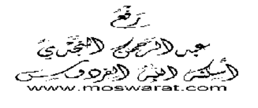
وما كانت مثل هذه الأمور لتنطلى على بعض المسلمين لولا اشتباه الأمر عندهم فى خصائص الأولياء، بحيث اعتقدوا أن من تحدث على يديه الكرامات يكون معصومًا كأنه من الأنبياء، فكل ما يقوله أو يأمر به يجب تصديقه وطاعته فيه.

وأما تمييز الولى الصادق الذى قد تجرى على يديه الكرامات من الدعى الكاذب الذى يموه على الناس ويخدعهم، فإنما يكون ذلك بحسب صلاحه وتقواه من قيامه بالفرائض والنوافل واتقائه الكبائر والصغائر واتصافه بالصفات الكريمة واستدامته عليها، فان اتصف شخص بكل هذه الصفات الطيبة وعرفت عنه ثم حدث على يديه شىء من الخوارق فيما لا يخالف الشرع فيجوز أن يطلق على ذلك الخارق اسم «كرامة»

أما إن كان الرجل على خلاف ذلك مشتهراً بالفسق والفساد والضلال وغير ذلك فان كل ما يجرى على يديه لا يعتد به بالغًا ما بلغ والله أعلم»[٢]

١- سورة الجن، آية ٢٦

٢- موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٢٣٦ و ٢٣٧.



* أنواع من الكرامات، عند الصوفية

يزعم المناوي أن للصوفيين أنواعًا من الكرامات:

النوع الأول : إحياء الموتى، وهو أعلاها، فمن ذلك أن أبا عبيد اليسرى،غزا ومعه دابة، فماتت، فسأل الله أن يحييها، فقامت تنفض أذنيها، وأن «مفرج الدماميني» أحضر له فراخ مشويه، فقال: طيرى بإذن الله تعالى، فطارت. ووضع الكيلانى يده على عظم دجاجة أكلها، وقال لها: قومى بإذن الله فقامت.

ومات لتلميذ «أبو يوسف الدهانى» ولد، فجزع عليه، فقال له الشيخ: قم بإذن الله، فقام، وعاش طويلاً، وسقط من سطح «الفارقى» طفل، فمات، فدعا الله، فأحياه[1].

ويقول الكلاباذى: أجمعوا على اثبات كرامات الأولياء كالمشى على الماء وكلام البهائم، وطى الأرض، وظهور الشيء فيغير موضعه[2].

ومن كرامتهم «التصرف العام والحكم الشامل العام فى جميع المملكة الإلهية، وله بحسب ذلك الأمر والنهى والتقرير والتوبيخ والحمد والذم»[3].

وهكذا تدين الصوفية بأن من أوليائها من يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى نفس المعجزات التى منّ الله بها على إبراهيم وعيسى، وعلى الذى مر على قرية وهى خاويه على عروشها.

وتزعم الصوفيه أن شيوخها يقولون للشىء: كن فيكون، فهم يملكون كلمة التكوين،

فيتحدث أحدهم عن الولى الذى استخلفه الله، فيقول: «إنه خليفة يملكه الله كلمة التكوين، متى قال للشىء كن، كان من حينه»[4].

ويقول أبو السعود: «إن الله أعطانى التصرف منذ خمسة عشر سنة،وتركناه تظرفًا» ويعلق «ابن عربى» على هذا بقوله «وأما نحن، فما تركناه تظرفًا، وإنما تركناه لكمال

١- الكواكب الدرية لعبد الرؤوف المناوى ص ١١ ط ١٩٣٨.

٢- التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ٤٤ ط ١٩٣٣.

٣- جواهر المعانى جـ٢ ص٧٩ .

٤- جواهر المعانى لعلى بن حرازم جـ٢ صـ٨.

المعرفة»[١].

ترى ماذا كان يعمل الله، وأبو السعود يتصرف فى الوجود؟ هكذا يجعل الصوفية أولياءهم شركاء الله»[٢].

ويعدد «ابن عربى» أنواع الكرامات فيقول: « ومنها سماع نطق الجمادات على مراتب نطقها فى العوائد وخرقها»[٣].

ومنها: مكالمته للملأ الأعلى ومحادثته لهم[٤].

ومنها: طوافه بالملكوت، يخاطب صوفى ربه بقوله: «إن قومًا طلبوك فأعطيتهم طى الأرض والمشى على الهواء، وكنوز الأرض، فانقلبت لهم الأعيان » ثم يتحدث عما أنعم عليه به ربه فيقول: «أدخلنى فى الفلك الأسفل، فدورنى فى الملكوت السفلى فأرانى الأراضين، وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلنى فى الفلك العلوى فطوف بى فى السموات، وأرانى ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم إوقفنى بين يديه،فقال لى: سلنى أى شىء رأيت حتى أهبه لك، فقلت، يا سيدى ما رأيت شيئا استحسنه فأسألك إياه»!![٥].

ومن الكرامات أيضًا- عندهم- أنهم يخاطبون الموتى. وأنهم يملكون الجنة والنار، يزعم الدسوقى هذا فيقول «أنا بيدى أبواب النار أغلقتها، وبيدى جنة الفردوس فتحتها، من زارنى أسكنته جنة الفردوس، وما كان ولى متصلاً بالله إلا وهو يناجى ربه، كما كان موسى يناجى ربه»[٦].

*** نماذج من الكرامات، عند الصوفية:**

إذا ما قدر لك أن تطلع على كتاب: طبقات الصوفية الكبرى «للشعرانى» فإنك ستجد من عجيب الكرامات الصوفيه الكثير والكثير، مما يبشر به صاحب الكتاب ويكافح فى سبيل الدعوه إليها .

١- فصوص الحكم لابن عربى جـ١ ص ١٢٩.

٢- هذه هى الصوفية ص ١٤١- ١٤٤ بتصرف

٣-مواقع النجوم لابن عربى صـ٧٥ طـ١٣٢٥ هـ.

٤- مواقع النجوم لابن عربى صـ٨١.

٥- قوت القلوب لأبى طالب المكى صـ ١٠٣ طـ ١٣٥١هـ.

٦- ترجمة الدسوقى فى الطبقات للشعرانى.

وعجيب أن ترى «الشعراني يعقب على ذكر كل اسم صوفي- بعد ذكر كرامته ولو تمثلت في فاحشة أو كبيرة - بقوله: «رضي الله عنه» اسمع إليه وهو يبشر بهتك العورة على أنها كرامة!!

* يقول: «ومنهم الشيخ إبراهيم العريان، وكان يطلع المنبر، ويخاطبهم عرياناً، فيقول: السلطان، ودمياط، وباب اللوق، بين الصورين، جامع طولون، الحمد لله رب العالمين، فيحصل للناس بسط عظيم»(١).

أمن رفيف الروحانية بعبير القدسية منَّ الولي على حشد محشود بعورة مكشوفة وهذيان مخبول؟

تخيل مشهد الولي يبارك المصلين بهتك عورته، تصور وهو يصعد إلى المرقاة الأخيرة من المنبر في يوم الجمعة، حتى إذا أنعم الشهود فيه الأبصار، وحدقوا إليه الأفكار، ورنوا إليه بالقلوب ابتغاء العظة الهادية، هتك الستر عن عورته فضلاً منه ونعمه!! وبدلاً من أنه يعظهم بموعظة تصلهم بأسباب السماء، وهو يسمعهم ذلك الهراء المخبول، وهو متهتك السوءة «باب اللوق- الخ».

إنا نعرف من كتاب الله أن الآدمية عوقبت على ذنبها الأول بكشف السوءة ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾(٢) فماذا يريد الشعراني من دين؟.

وهل غاب عن هؤلاء الأقطاب قول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾(٣).

أولا يؤمنون هؤلاء الأولياء بقول الله سبحانه: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾(٤).

أما علموا أن رسول الله ﷺ كان يلبس للجمعة أحسن ثيابه(٥). ويمضي الشعراني في تمجيد شيخه العريان، فيقول: «وكان يخرج الريح بحضرة الأكابر، ثم يقول: هذه ضرطة فلان، ويحلف على ذلك، فيخجل ذلك الكبير منه»(٦).

١- الطبقات للشعراني جـ ٢ صـ ١٢٩ ط ابن شقرون

٢- سورة الأعراف، آية ٢٢.

٣- سورة الأعراف، آية ٢٦.

٤- سورة الأعراف، آية ٣١.

٥- هذه هي الصوفية صـ ١٢٦ و ١٢٧ بتصرف.

٦- الطبقات جـ ٢ صـ ١٢٩.

وتعجب من هذا الصوفى الذى يقدس الصوفية خطاياه، ويجعلون من كرامته بهت البرىء بذنب افترى هو جريرته، أو بخطيئة «ذوقية» يمجها حتى ذوق الخنفساء! هذا مع استحلال الكذب المفضوح العريان، مقسماً بالله على صدقه!!

وتحتال فى كشف العورات بما يقوله الدباغ : «إن غير الولى إذا انكشفت عورته نفرت منه الملائكة الكرام، والمراد بالعورة: العورة الحسية والعورة المعنوية التى تكون بذكر المجون وألفاظ السفه .

وأما الولى فإنها لا تنفر منه إذا وقع له ذلك، لأنه إنما يفعل ذلك لغرض صحيح فيترك ستر عورته لما هو أولى منه»(١).

فلقد جعل «الشعرانى» هذه الكرامة خاصة بالعريان، أما الدباغ فيجعل من كشف العورة دستوراً فى الولاية الصوفيه!!

أما «الكمشخانلى» فيقول: «والرحمانيون وهم ثلاثة أيضاً، وهم عند الوحى يجلسون عرايا، ويسمعون الوحى ويفهمون المراد منه»(٢).

فتأمل هذا، وتعجب من كرامات الصوفية!!

ومن كرامتهم أيضاً: يقول الشعرانى عن الغمرى: «ودخل عليه سيدى محمد بن شعيب، فرآه جالسا فى الهواء، وله سبع عيون» ويقول عن الشيخ أبو على: «تدخل عليه تجده جندياً، ثم تدخل عليه، فتجده سبعاً ثم تدخل عليه فتجده فيلا وكان يقبض من الأرض ويناول الناس الذهب والفضة»(٣).

كما زعم الشعرانى أن ذلك الشيخ المتطور إلى فيل وسبع قد قطعه بعض الناس بسيوفهم، وأخذوه فى «تليس» ثم أصبحوا، فوجدوا الشيخ حياً جالساً»(٤).

١- الإبريز للدباغ جـ٢ صـ ٤٣ طـ ١٢٩٢هـ
٢- جامع الأصول في الأولياء صـ ١٣٣ .
٣- الطبقات جـ٢ صـ ٨٠ و٨١.
٤- الطبقات جـ٢ ص ٨٠.

بل هناك خطايا وجرائم تفسد الصبى على أمه الطهور، وتستحى البغى أن تهمس به في حانتها المعربدة، يعده الصوفية كرامات للأولياء عندهم، فاقرأ ما سجله الشعرانى من كرامات «علي وحيش وأبو خوذه» وغيرهما فيقول عن أبي خوذه: وكان رضى الله عنه إذا رأي امرأة أو أمرداً راوده عن نفسه، وحسس على مقعدته سواء كان ابن أمير أو ابن وزير ولو كان بحضرة والده أوغيره ولا يلتفت إلى الناس»[1].

كما كان يزعم أن « على وحيش» كان يرغم صاحب الدابة على أن يستذلها له عند اقتراف الجريمة .

فكيف تكون هذه العظائم كرامات؟ ولماذا حرمها الله إذن؟ ولماذا عاقب قوم لوط؟!!

وقد قال يوسف بن الحسين الخراز: «نظرت فى آفات الخلق، فعرفت من أين أتوا، ورأيت آفة الصوفية فى صحبة الأحداث ومعاشرة الأضداد، وأرفاق النسوان»[2] وإنه ليعترف بعدها بتلك الخطايا فيقول: «كل ما رأيتمونى أفعله فافعلوه إلا صحبة الأحداث، فإنه أفتن الفتن»[3] ويقول: «عاهدت ربى أكثر من مائة مرة، ألا أصحب حدثًا، ففسخًا على أحسن الخدود، وقوام القدود ، وغنج العيون، وما سألنى الله تعالى معهم عن معصية»[4].

ويقص «الخراز» أنه رأى إبليس فى النوم، فقال له: «تركتُ لى فيكم لطيفة، قلت: ما هى؟قال:صحبة الأحداث،قال أبو سعيد:وقل من يتخلص من هذا بين الصوفية»[5]

ويقول الدباغ: «رأيت ولياً بلغ مقاماً عظيماً، وهو أنه يشاهد المخلوقات الناطقة والصامتة والوحوش، والحشرات، والسموات ونجومها والأرضين، وكرة العالم بأسرها

١- الطبقات جـ٢ صـ١٢٢ و١٣٢.
٢- طبقات الصوفية للسلمى صـ١٩٠.
٣- طبقات الصوفية للسلمى صـ١٨٩.
٤- طبقات الصوفية للسلمى صـ ١٩١.
٥- طبقات الصوفية للسلمى صـ ٢٣٢

تستمد منه، ويسمع أصواتها وكلامها فى لحظة واحدة، ويمد كل واحد بما يحتاجه ويعطيه مايصلحه من غير أن يشغله هذا عن ذاك»[١].

يصف عبدًا بصفات الربوبية والألوهية، وبهذا جعل «صاحب الإبريز» وليه إلهًا»[٢].

ويقول البسطامى: رفعنى «أى الله» فأقامنى بين يديه، وقال لى: يا أبا يزيد: إن خلقى يحبون أن يروك، فقلت: ربنى بوحدانيتك، وألبسنى أنانيتك، وارفعنى إلى أحديتك، حتى إذا رآنى خلقك، قالوا: رأيناك لتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك»[٣]!!!

ويحكى الشعرانى – مرة أخرى – كرامات سيده العجمى فيقول: «وقع بصره على كلب، فانقادت إليه جميع الكلاب، وصار الناس يهرعون إليه فى قضاء حوائجهم، فلما مرض ذلك الكلب، اجتمع حوله الكلاب يكون، فلما مات أظهروا البكاء والعويل؛ وألهم الله تعالى بعض الناس فدفنوه، فكانت الكلاب تزور قبره حتى ماتوا، فهذه نظرة إلى كلب، فعلت ما فعلت، فكيف لو وقعت على إنسان»[٤]!!!

ويزعم الشعرانى كذلك: أن العجمى إذا خرج من خلوته، فكل من وقع عليه نظره، انقلبت عينه ذهبًا خالصاً»[٥]!!

وهذا معناه أنه رجل شديد الخطورة على الإنسانية فكيف يكون ولياً من يكون سببًا فى حرمان الناس من نعمة البصر؟ وكيف يكون وليًا وهو نكبة على المجتمع؟ ثم كيف يحدث هذا الأمر الخارق والخطير فى غيبة كتب التاريخ الموثوق بها مع أنها سجلت أحداثًا أقل شأنا؟!![٦].

ويزعم طاغوت التيجانية الأول ما يأتى: «أخبرنى سيد الوجود يقظة لا منامًا أن كل من أحسن إليك بخدمة أوغيرها وكل من أطعمك يدخلون الجنة بلا حساب وبلا

١- الإبريز للدباغ جـ٢ صـ ٧٣.
٢- هذه هى الصوفية للسلمى صـ١٣٦ و ١٣٧.
٣- اللمع للطوسى صـ ٣٨٣.
٤- الطبقات (ترجمة العجمى) جـ٢ صـ ٦١.
٥- الطبقات (ترجمة العجمى) جـ٢ صـ٦١.
٦- هذه هى الصوفية (هامش) ص ١٨٣ و١٣٩

عقاب فسألته لكل من أحبنى، ولكن من أحسن لى بشىء من مثقال ذرة، ومن أطعمنى طعامه، كلهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب، وسألته لكل من أخذ عنى ذكرًا، وأن تُغفر لهم جميع ذنوبهم، ما تقدم منها، وما تأخر، وأن يرفع الله عنهم محاسبته على كل شىء، وأن يكونوا آمنين من عذاب الله من الموت إلى دخول الجنة، وأن يكونوا كلهم معى فى عليين فى جوار النبى، فقال لى ﷺ: ضمنت لهم هذه ضمانة لا تنقطع حتى تجاورنى أنت وهم فى عليين»(١) سبحان الله– الله سبحانه يقول للنبى محمد ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(٢).

ويقول النبى محمد ﷺ لابنته فاطمة: «اعملى فإنى لن أغنى عنك من الله شيئا»(٣) وتشهد امرأة جليلة لصحابى عند موته بقولها: «أشهد أن الله قد أكرمك، فيقول لها رسول الله معاتبًا، يضع الصواب مكان الخطأ: «وما يدريك أن الله قد أكرمه؟ وإنى لأرجو له الخير، والله إنى لرسول الله ولكنى لا أدرى ما يفعل بى غداً»؟(٤).

أما التيجانى– لقد قرأت قوله– فبم تحكم عليه؟غير إنى أضع إصبعك على قوله: «وكل من أطعمك» لأريك مبلغ حرص الصوفية على انتهاب أقوات الناس(٥).

ويقول البسطامى: «لو أن العرش، وما حواه مائة ألف ألف مرة فى زاوية من زوايا قلب العارف، لما أحس به، فقلب العبد الخصوصى بيت الله، وموضع نظره، ومعدن علومه، وحضرة أسراره، ومهبط ملائكته، وخزانة أنواره، وكعبته المقصودة وعرفاته المشهودة»(٦).

والدباغ الفاطمى يقول: «إنى أرى السموات السبع، والأرضين السبع والعرش

١– جواهر المعانى في فيض التيجانى لعلى حرازم جـ١ صـ ٩٧ و٩٨.
٢– سورة القصص، آية ٥٦.
٣– صحيح البخارى . ٤– صحيح.
٥– هذه هى الصوفية صـ ١٤٨ و١٤٩ بتصرف
٦– فصوص الحكم جـ٢ صـ ١٢٠ ومواقع النجوم صـ ١٤١

داخلة وسط ذاته، وكذا ما فوق العرش من السبعين حجاباً(١)

ويفترى الدباغ هذا البهتان فيقول: «كل ما أعطيه سليمان فى ملكه، وما سُخر لداود، وما أكرم به عيسى، أعطاه الله وزيادة لأهل التصرف من أمة النبى ومكنهم من القدرة على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى»(٢).

وأبى «الدباغ» إلا أن يفضح أقطابهم بهذه الكرامة- كرامة السرقة خلسة فيقول: «إن الولى صاحب التصرف، يمد يده إلى جيب من شاء، فيأخذ منه ما شاء من الدراهم، وذو الجيب لا يشعر»(٣).

فهل مثل هذا يعد كرامة، أجيبونا عباد الله؟!!

وإذا أردت مزيداً من الكرامات فارجع إلى ما ذكرته لك من مصادر تجد العجب العجاب، مما استحييت من ذكره، وما تركته خشية الاطالة والملل.

خزي صوفي

ولقد سجل هذا الخزى والعار مستشرق إنجليزى صاحب الصوفية فى مصر، فأعطته العهد، ثم مضى- بعد اختيارهم- يسجل عليهم مخازيها، ويرمى بها المصريين جميعًا فى كتابه «المصريون المحدثون» للمستشرق «لين».

فيقول: «ويزور المصريون الأضرحة معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات، وإما بقصد التماس البرء من المرض، أو طلب النسل، ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله، ويقدمون لهم النذور»(٤).

١- الابريز للدباغ جـ٢ صـ٧٣.
٢- الأبريز للدباغ ج٢ صـ ١٢.
٣- الأبريز للدباغ ج٢ صـ١٤.
٤- المصريون المحدثون للمستشرق «لين» ص ١٦٧ و ١٦٨.

ويقول: «وقد جرت العاده أن يقوم المسلمون[1] كما كان يفعل اليهود بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها وتغطية التركيبة أو التابوت أحيانًا بغطاء جديد، وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعل اليهود».

ويقول جولدزيهر- وهو يتحدث عن بدعة الموالد: «وكان علماء المسلمين لا يزالون حتى القرن الثامن الهجرى يعدونه- أى الاحتفال بمولد النبى ﷺ- مخالفًا للسنة، ونهت عنه غالبيتهم على اعتبار أنه بدعة مستحدثة فى الإسلام. وتنطبق هذه الحالة أيضًا على أعياد دينية أخرى، نشأت فى القرون المتأخرة، واضطرت أن تجاهد، لكى يقرها العلماء بعد أن وصموها دهرًا طويلاً بأنها من البدع الدخيلة»[2].

ويقول جوتييه: «وتقديس الأولياء إلى درجة قد تقرب من العبادة الذى نراه انتشر بعد فى جميع الأقطار الإسلامية يشير فى الحقيقة إلى رد فعل من الأمم والشعوب التى فتحها الإسلام ضد العقلية الإسلامية التى لا تسلم بوسطاء أو شفعاء لدى الله، إنه لم يثر ضد إجلال الأولياء والرسول إلى ما يقرب من العبادة أى ضد هذا التغيير الخطير فى العقلية الاسلامية الأولى إلا الطائفة الوهابية»[3].

لا يسوءنا أن يسجل هذه المخازى أولئك المستشرقون، ويحملونها على المسلمين جميعًا، ولكن الذى يجب أن نخزي به، وهو أن ندع هؤلاء الصوفية يقترفون هذه الجرائر، وينفثون سمومها، فيكيد للإسلام بها عدوه، ويرمى المسلمين جميعًا بالحماقة والغباوة وعباد الأساطير، ويقول فى كل كتاب: هذا هو الإسلام!!

وهم يوقنون أنه دين الصوفية، لا دين الله، ولكنهم عدو يهتبل الفرصة ليمحق بها عدواً له، ربما أخذتنا العزة ضد هؤلاء المستشرقين وحدهم، بيد أن الواجب هو أن

١-يحمل على المسلمين أوزار الصوفية ، فما يفعل هذا مسلم ولكنها الصوفية .

٢-العقيدة والشريعة ، للمستشرق جولد زيهر ص ٢٢٧.

٣-المدخل لأبف جوتييه ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى

تأخذنا العزة بالحق فنجتث الصوفية من أصولها وكفاها أن جعلت عدو الإسلام يحمل كل خزى لها عليه!! ليس أولئك المستشرقون هم عدونا الأول، وإنما عدونا من ملّكهم هذا السلاح يقاتلوننا به، وليس غير الصوفية[١]!!

وبعد– فلقد أنكر الله تعالى على الناس اتخاذ أولياء من دونه، فى كثير من آى القرآن الكريم، ومنها ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ ﴾[٢].

فلا يحل لمؤمن ولا مؤمنة أن يتخذ له ولياً دون ربه عز وجل ، فيلجأ إليه فى الشدائد، ويستغيث به عند المخاوف،ويستعيذ به من المكاره، أو يعبده ويتوكل عليه، ويوالى فيه ويعادى فيه، إذا هذا معناه اتخاذ آلهة من دون الله وهو شرك وكفر والعياذ بالله.[٣] ا.هـ[٤].

ب– أقطاب الصوفية:

الأقطاب جمع قطب، والقطب لغة : ما عليه مدار الشيء، ومنه قطب الرحى، وفى اصطلاح المتصوفة: القطب هو سيد الوجود فى كل عصر[٥].

وهو للوجود بمنزلة الروح للجسد، فكما أن الجسد لا قيام له إلا بالروح فكذلك الوجود كله قائم بالقطب، فإذا زالت روحانية القطب من الوجود انعدم الوجود كله، وهذه القوة للقطب يقولون إنها لتحمله لسر الاسم الأعظم.

ويقولون فى كيفية وصول القطب إلى مرتبته القطبانية يترتب فى كمال المعرفة والمشاهدة والمراقبة حتى يصل له التحقيق بالله فى كل مرتبة وبذلك يكون سيداً للوجود.

هذا وما نقرره هنا أمور منها:

١–هذه هى الصوفية ، عبد الرحمن الوكيل ص١٤٠ و١٤١ .

٢– سورة الرعد ، آية ١٦ .

٣–عقيدة المؤمن ص ١٨٠ بتصرف.

٤– انظر بتوسع موضوع « الوسيلة والتوسل».

٥–الجواهر والرماح للتجانية.

١- أن القوم يكذبون- وأمرهم مبنى على الكذب- ثم هم فى نفس الوقت يدعون أنهم لا يحيدون عن الكتاب والسنة قيد أنملة، ويتبجحون بذلك بلا حياء ولا خجل أرأيت لو قيل لهم: فى أى آية أو فى أى سنة جاء ذكر القطب وصفاته وخصائصه، ومراتب ترقياته، حتى وصل إلى مرتبة القطبانية فأصبحت له السيادة على الوجود كله؟

قطعا إنهم لا ينطقون، ونحن نقول: اللهم إنه لا يوجد للقطب ذكر فى كتاب ولا سنة، وإنما يوجد ذكره وصفاته ومراتب ترقياته فى كتب الزنادقة من غلاة الباطنية الناقمين على الإسلام والمسلمين.

٢- إذا كان الكون والوجود كله قائماً بروحانية القطب، فماذا بقى لله تعالى؟ وما معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[1] إذا كانت القيومية للأقطاب فى كل شىء وعلى كل شىء؟؟

٣- لو سألناهم عن كيفية تحمل القطب لسر الإسم الأعظم، فهل يقدرون على الاجابة ؟

اللهم لا، يفترون الكذب، والله لا يهدى القوم الكاذبين.

وسؤال آخر: كيف عرف أقطابهم بسر الاسم الأعظم دون سائر عباد الله؟

إن الأحاديث النبوية الصحيحة تكاد تجمع على أن اسم الله الأعظم لا يخرج عن كونه «الله أو الحى القيوم» وأن خاصيته ليست فى إدارة الملك والملكوت والتصرف فى الكائنات، وإنما هى فى أن العبد إذا سأل به ربه أعطاه من الممكنات ما كتبه له وقضى به أزلاً وقدرة.

وعلى شرط أن لا يتعدى فى الدعاء فإن الله تعالى حرم ذلك بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[2] ومن الاعتداء أن يسأل مالم تجر به سنن الله تعالى فى هذا الوجود، ومن ذلك أن يسأل الله أن يجعله متصرفًا فى الكون.

١- سورة البقرة من آية ٢٥٥ وسورة آل عمران .آية ٢ .

٢- سورة الأعراف، آية ٥٥ .

هذا ومن أغرب ما يسمع عن القطب والقطبية ادعاء «الشيخ أحمد بن محمد التيجانى أنه خاتم الأولياء والأقطاب فلا ولى بعده ولا قطب أبدًا، كما أن الرسول ﷺ لا نبى بعده ولا رسول أبدًا[١] ما أبعد هذه المقارنة وما أغربها؟!![٢].

القطب وأعوانه: أسطورة خرافية، تنزع إلى تجريد الله من الربوبية والإلهية، وخلعهما علي وهم باطل، سمى فى الفلسفة «العقل الأول» وفي المسيحية «الكلمة» وفي الصوفية «القطب»!!

والقطب : هو أكمل إنسان متمكن فى مقام الفردية، أو الواحد الذى هو موضع نظر الله فى الأرض فى كل زمان، وعليه تدور أحوال الخلق، وهو يسرى فى الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح فى الجسد، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وقد يسمى «الغوث» باعتبار التجاء الملهوف إليه[٣].

والقطب عند الصوفية نوعان: أحدهما: حادث أو حسى وهو ما سبق الحديث عنه. **والآخر** : قديم أو معنوى، وهو الحقيقة المحمدية. يقول القاشانى: «وهو- أى القطب- إما قطب بالنسبة إلى ما فى عالم الغيب والشهادة من المخلوقات يستخلف بدلاً منه عند موته من أقرب الأبدال منه، أو قطب بالنسبة إلى جميع المخلوقات فى عالم الغيب والشهادة، ولا يستخلف بدلاً من الأبدال، ولا يقوم مقام أحد من الخلائق، وهو قطب الأقطاب المتعاقبة في عالم الشهادة لا يسبقه قطب، ولا يخلفه آخر، وهو نوع الروح المصطفوى المخاطب بلولاك لما خلقت الكون»[٤].

مع هذا، فقد زعم ابن الفارض لنفسه أنه القطب القديم وقطب الأقطاب فقال:

فبى دارت الأفلاك، فأجاب لقطبها الـ ـمحيط، والقطب مركز نقطة
ولا قطب قبلى عن ثلاث خلفته وقطبية الأوتاد عن بدلية

١- راجع: الرماح والجواهر للتجانية.
٢- انظر/ إلى التصوف ياعباد الله،فإن المؤمن لايلدغ من جحر مرتين للشيخ أبي بكر الجزائرى
٣-انظر جامع الأصول للكمشخانلى ، والتعريفات للجرجانى تحت مادة «قطب»
٤-كشف الوجوه الغر للقاشانى جـ٢ صـ١٠٣.

فالقطب المحيط يعني نفسه، والوتد والبدل، ألقاب في مملكة التصوف، وهى دون القطب، إن الصوفية متأثرة إلى حد كبير بنظرية المثل الأفلاطونية»(١).

ويقول كاهن التيجانية الأكبر أحمد: إن حقيقة القطبانية هى الخلافة العظمى عن الحق مطلقًا فى جميع الوجود جملة وتفصيلاً، حيثما كان الرب إلهًا كان هو خليفة فى تصريف الحكم وتنفيذه فى كل من له عليه ألوهية لله تعالى فلا يصل إلي الخلق شيء كائنًا ما كان من الحق إلا بحكم القطب، ثم قيامه فى الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرات الوجود، فترى الكون كله أشباحًا.. لا حركة لها، وإنما هو الروح القائم فيها جملة وتفصيلاً، ثم تصرف في مراتب الأولياء، فلا تكون مرتبة فى الوجود للعارفين والأولياء خارجة عن ذوقه، فهو المتصرف في جميعها، والممد لأربابها، وبه يرحم الوجود، وبه يتقي الوجود في بقاء الوجود رحمة لكل العباد، وجوده في الوجود حياة لروح الكلية وتنفس نفسه يمد الله به العلوية والسفلية، ذاته مرآة مجردة يشهد فيها كل قاصد»(٢) كان هذا عن حقيقة القطب، فماذا عن علمه؟

يقول التيجانى أيضاً : ومما أكرم الله به قطبه أن يعلمه علم ما قبل وجود الكون، وما وراءه وما لانهاية له وأن يعلمه علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات، وأن يخصصه بأسرار دائرة الإحاطة وجميع فيوضه، وما احتوى عليه (٣)

ثم يقول عن القطب : «قطب الأقطاب فى كل وقت لا تقع بينه وبين الرسول حجابية أصلاً، وحيثما جال رسول الله من حضرة الغيب ومن حضرة الشهادة، إلا وعين قطب الأقطاب متكمنة من النظر إليه لا يحتجب عنه فى كل لحظة من اللحظات(٤).

وحسبك هذا من تلك الأسطورة التى ألهتها الصوفية، وجعلت منها ربًا أكبر يعبد، ويخشى ويرهب!!

١-هذه هى الصوفية صـ١٥٢.

٢-جواهر المعانى صـ ٨١ وما بعدها.

٣-جواهر المعانى جـ ٢ صـ٧٩.

٤-جواهر المعاننى صـ٦٣ .

فماذا عن أعوان القطب ؟

أولاً:-

الإمامان: وهما بمنزلة الوزيرين له، أحدهما لعالم الملك، والآخر لعالم الملكوت.

ثانياً:

الأوتاد الأربعة : وقيل هم ثلاثة، كلما مات قطب الوقت أقيم مكانه واحد منهم، وعلمهم فيض من قطب الأقطاب. وإن ماتوا فسدت الأرض.

ثالثاً:

الأبدال: والأبدال حقيقة روحانية تجتمع إليها أرواح أهل ذلك الموطن الذى رحل عنه وليه، وعددهم أربعون، اثنان وعشرون منهم بالشام، وثمانية عشر بالعراق.

رابعاً:-

النجباء : وهم دون الأبدال، ومسكنهم مصر: وعملهم أن يحملوا عن الخلق أثقالهم وعددهم سبعون.

خامسا:

النقباء وعددهم ثلثمائة، وقيل خمسمائة، وهم الذين يستخرجون خبايا الأرض[١].

تلك هى مملكة الأساطير التى ابتدعتها خرافات الصوفية الحمقى وخيالاتهم المخبولة، ليستعبدوا الخلق لما يشتهون، وليجعلوا منهم أحلاس رهبة منهم،وخوف مذعور.

تلك هى المملكة التى ابتدعها أوهام الصوفية ازاء ملكوت الله، ليغصبوا بها من الأحياء أقواتهم وإيمانهم!! ومن الموتى أكفانهم!!

أترى ما بقى لله وملائكته ورسله؟!!

الله أكبر. له الملك فى الدنيا وفى الآخرة[٢].

١-جامع الأصول للكمشخانلى ص٩٣.

٢-هذه هى الصوفية ص١٥٥.

* الديوان الصوفي:

للصوفـية أسطورة تزعم أن فى الوجود ديوانًا بـاطنيًا، يحكم فيه القطب الأكـبر بما يشـاء، ويُصرَّف- هو ومن معهمن أقـطاب صغـار- أقـدار الوجـود. إنه عند الصـوفيـة محكمـة عليا يحـاكم فيهـا الأقطاب أقدار الله، دون أن تسـتطيع أية قدرة إلهـية نسـخ حكم لها. وقد وصف الدبا غ هذا الديوان، وفصل مهماته، فلنترك الحديث له.

يقول الدبا غ [1]: «الديوان يكون بغـار حراء، فيـجلس الغوث خـارج الغار ومكة خلف كتفـه الأيمن، والمدينة أمام ركبتـه اليسرى، وأربعة أقطاب عن يمينه، وهـم مالكية على مـذهب مـالـك بن أنس، وثلاثة أقطاب عن يسـاره، واحــد من كل مـذهب من المذاهب الثلاثة. والوكيل أمامه، ويسمى: قاضي الديوان، ومع الوكيل يتكلم الغوث.

الدبا غ مغـربي، لمذهب مالك السيطرة فى المغـرب، فكان لابد من هذه العصبية التي جـعلت الدباغ يزعم أن الأربعة الأقطاب كلهم مـالكية!! ترى علـى أى مذهـب كان أولئك الأقطاب قبل مالك؟!! ولو أن المتكلم كان حنفياً لقال: إنهم حنفيون!!

«أهل التصريف والذين يحضرون الديوان ولغتهم».

«والتـصرف للأقطاب السـبعـة على أمر الغـوث، وكل واحد من الأقطاب الـسـبـعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته ويحضره النساء وصفوفهن ثلاثة، ويحضره الكُمَّل من الأمـوات، ويكونون في الصفـوف مع الأحـياء، والأمـوات حاضـرون في الديوان ينزلون إليه مـن البرزخ يطيرون طيـراً ، بطيران الروح، وتحضـره الملائكة والجن، وفى بعض الأحيان يحضره النبى وكلامه مع الغوث

وأما ساعة الديوان، فهى الساعة التى ولد فيها النبى ﷺ ، والأنبياء يحضرون فى ليلة واحدة، وهى ليلة الـقدر، فيـحضره فى تلك الليلة الأنبـياء والمرسلون، ويحـضره الملأ

---

١ -الإبريز للدبا غ جـ ٢ صـ٢-٩ مختصرا:بتصرف.

الأعلى من الملائكة المقربين، ويحضره سيد الوجود مع أزواجه الطاهرات[١]، ولغة أهل الديوان هى السريانية[٢] لاختصارها، ولأن الديوان يحضره الأرواح والملائكة، والسريانية هى لغتهم، والصغير من الأولياء يحضره بذاته!!.

وأما القطب الكبير فلا تحجير عليه، فإنه يدبر على رأسه، فيحضره، ولا يغيب عن داره، لأن الكبير يقدر على التطور على ما شاء من الصور، ولكمال روحه تدب له إن شاء ثلثمائة وستة وستين ذاتًا[٣]،!!

وقد يغيب الغوث عن الديوان، فلا تحضره، فيحصل بين أولياء الله من أهل الديوان ما يوجب اختلافهم، فيقع منهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضا[٤] وإذا حضر سيد الوجود مع غيبة الغوث، فإنه يحضر معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وفاطمة، وتجلس فاطمة مع جماعة من النسوة اللاتى يحضرن الديوان.

وأهل الديوان إذا اجتمعوا فيه، اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد، فهم يتكلمون فى قضاء الله تعالى فى اليوم المستقبل والليلة التى تليه[٥] ولهم التصرف فى العوالم كلها السفلية والعلوية، وحتى فى الحجب السبعين، فمنهم الذين يتصرفون فيه، وفى أهله، وفي خواطرهم، وما تهجس به ضمائرهم، فلا يهجس في خاطرهم واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصرف[٦] وإذا كان هذا فى عالم الرقا الذى هو فوق الحجب السبعين التى هى فوق العرش فمابالك بغيره من العوالم؟!!

١-هكذا وسط الرجال تكون زوجات النبى الطاهرات؟!!

٢-تدبر الكيد الخفى للغة العربية، لغة القرآن الكريم.

٣-أى بعدد أيام السنة الكبيسة، فله فى كل يوم إذن جسد جديد.

٤-يسفكون الدم ظلمًا، ومع هذا فهم أقطاب كبار يتصرفون فى أقدار الوجود، والله يقول ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾«المائدة ٣٢».

٥- والله يقول ﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا﴾« الأحزاب ٣٤».

٦- لقد وصف الله نفسه بأنه عليم بذات الصدور، وقد وصف الصوفية أقطابهم بهذا وأكثر منه فماذا تقول فيهم ؟

«**انعقاد الديوان في غير الغار**» ويكون الديوان في موضع آخرغيرغار حراء مرة في العام فى موضع يقال له: زاوية أسا، خارج أرض سوس، بينها وبين أرض غرب السودان، فيحضره أولياء السودان، ويجتمعون فى غير هذين الموضعين السابقين، لأن الأرض لا تطيقهم» ا.ه.

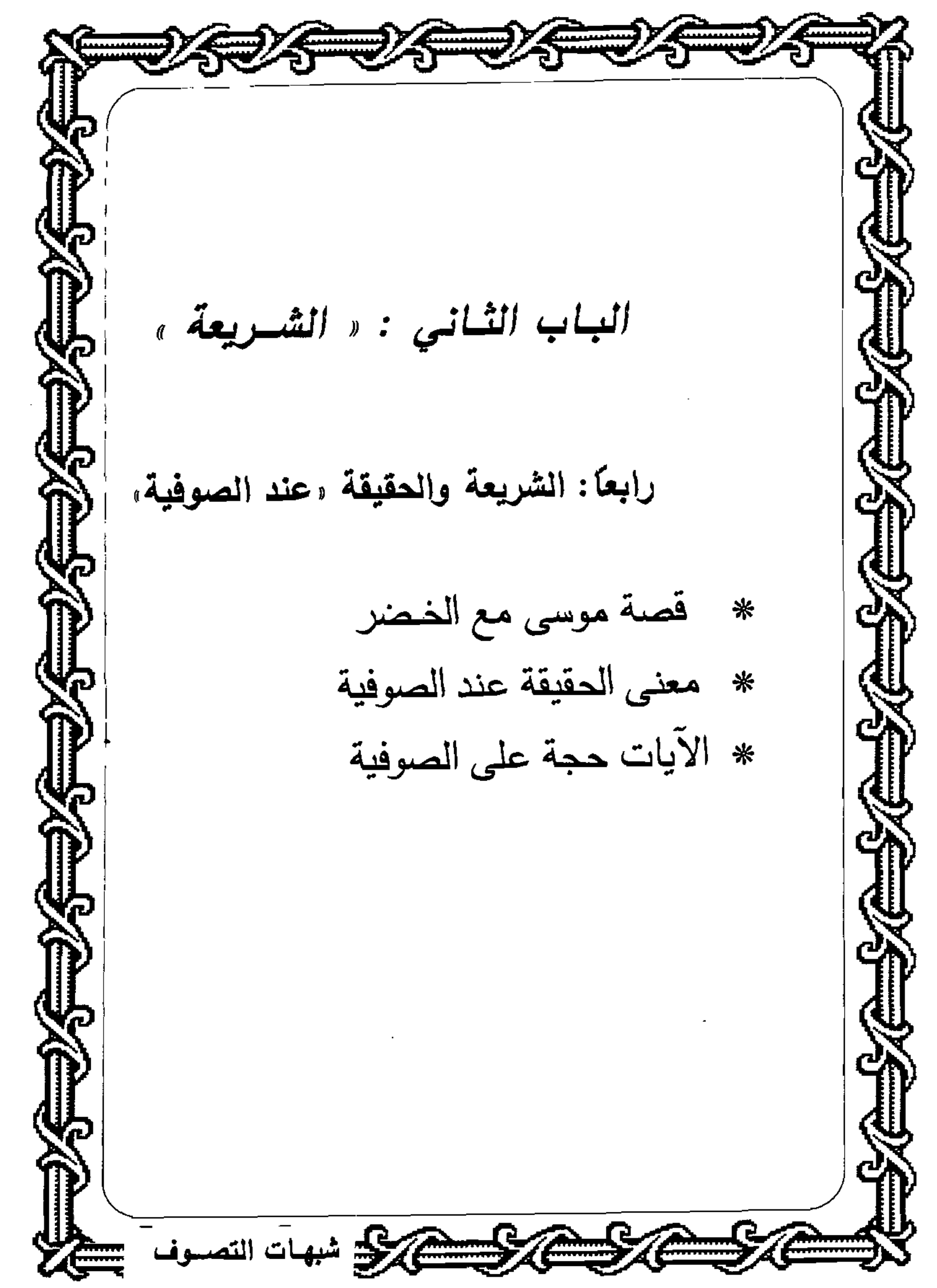
هذا هو الديوان الصوفى، كما وصفه كاهن صوفى كبير نقلته بلفظه نفسه، بل قل: هذه هى أسطورة الوثنية المخبولة الحمقاء

يقول نيكلسون في كتابة «الصوفية فى الإسلام»[1] وللأولياء حكومة باطنة يرون أن عليها يتوقف نظام العالم، ورأس هذه الحكومة الأعلى، ويسمى: القطب، وهو أرفع صوفية عصره، وإليه رئاسة الاجتماعات التى يعقدها فى انتظام مجلس شوراه الموقر!! وأعضاء هذا المجلس لا يعوقهم عن الحضور حواجز الزمان والمكان وإنما يأتون من أرجاء الأرض في لمحة طرف العين يعبرون البحار والجبال والصحارى فى يسر بالغ، ودون القطب درجات مختلفة من الأولياء، وقد عدها الهجويرى في ترتيب تصاعدى كما يلى: الأخيار الـ ٣٠٠ فالأبدال الـ ٤٠، الأبرار الـ٧، فالأوتاد الـ٤، فالنقباء الـ٣ وهؤلاء جميعا يعرف الواحد منهم الآخر، ولا يعمل الواحد منهم إلا برضى الباقين، وعمل الأوتاد الطواف حول الأرض جميعًا في كل ليلة، فإن كان هناك مكان لم تقع أعينهم عليه، بدت فيه فى اليوم الثانى شائبة نقص، فيخبرون القطب حتى يجعل همه إلى ذلك المكان المشوب، فيبرأ عما أصابه بفضل القطب» اـ هـ.

وكم للصوفية مثلها من أساطير، قتلة سفاحون وسفاكون للدماء و ينعتهم الدباغ بأنهم يتصرفون في أقدار الله وملكوته؟!! فماذا بقى للرب الصوفى، وهذا ملكه فى قبضة السفاكين[1]؟!!

***

١-هذه هى الصوفية ١٥٩-١٦٤ بتصرف.



الباب الثاني : « الشريعة »

رابعاً : الشريعة والحقيقة « عند الصوفية »

* قصة موسى مع الخضر
* معنى الحقيقة عند الصوفية
* الآيات حجة على الصوفية



رابعاً: «الشريعة والحقيقة» عند الصوفية

إن من أصول المتصوفة، وقواعد طرقهم البدعية تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن والدين الاسلامي إلى شريعة وحقيقة، وأضافوا إلى الدين الاسلامي (الطريقة) وقالوا: الطريقة هى الوسيلة، والثمرة هي الحقيقة

وهذا التقسيم للعلم والشريعة، وتلك الإضافة للدين لا شك أنه من أكبر الإحداث فى دين الله تعالى، وسبحان الله كيف يتصرفون فى دين الله وكأنهم مأذون لهم بالزيادة والنقصان؟ وكأنهم عموا عن قول الرسول ﷺ: «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»(١).

وقوله: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٢).

وسبحان الله كيف لا يتورعون عن الكذب عن أئمة الإسلام فينسبون إليهم شر البدع وأسوأها، ولنستمع ما يقولون عن مالك- إمام دار الهجرة- رحمه الله تعالى، القائل: من ابتدع فى الاسلام بدعة فرأها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(٣).

إنهم قالوا إن مالكاً رحمه الله تعالى قال: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق».فانظر كيف يفترون على «مالك» الكذب وهو السيف المسلط على رؤوس المبتدعة، وهم يعلمون، ليبرروا بكذبهم ما وضعوا من أصول وقواعد لم ينزل الله بها من سلطان وكأنهم على وفاق مع واضعى قاعدة: «الغاية تبرر الوسيلة» وهم اليهود. وإلا فقل لى بربك: كيف يكذبون على إمام جليل من أئمة الاسلام مثل هذا الكذب الفاضح الممقوت.

فهل من المعقول أن يقول عالم بشريعة الله، قائم بنشرها وتعليمها والذب عنها، كمالك رحمه الله تعالى: إن من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق أى صار طالباً للفسق

١-أخرجه الترمذى . ٢-أخرجه البخارى ومسلم.

٣-سورة المائدة أية٣.

قائماً به، والرسول ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»[١].

وهل التصوف عرف على عهد مالك وأصبح ذاشأن حتى يقول «مالك» ما قالوا من الكذب والباطل؟ اللهم لا، لا، إن التصوف لم يظهر ولم يعرف بين المسلمين إلا بعد انقراض أهل القرون المفضلة، وأخذ الشر والفساد ينتشران فى بلاد المسلمين.

والذى لا شك فيه أن للقوم من وراء وضع هذا الأصل أهدافًا يهدفون إليها ويريدون تحقيقها والوصول إليها، وهى تتلخص فى النقاط الآتية:-

* تحويل أمة الاسلام إلى أمة سلبية، لا تبدى ولا تعيد، تعيش على الفقر والتزهد والإتكال حتى تبيد وتفنى، وهذا هو الهدف الرئيسى الذى من أجله وضع التصوف، وشارك فى وضعه ونشره والدعوة إليه أكبر خصوم الإسلام وأعدائه من زنادقة اليهود وساعدهم على ذلك أغرار المسلمين وجهالهم مع شديد الأسف .

* استباحة المحرمات وغشيان كبائر الإثم والفواحش وبخاصة المشائخ المربين من رؤساء الطرق تستراً تحت شعار قولهم: الحقيقة غير الشريعة،إذ يجوز لصاحب الحقيقة ما لا يجوز لصاحب الشريعة فى حكمهم وما تقتضيه أصولهم[٢].

* صرف المسلمين عن العلوم الشرعية وتزهيدهم فيها، وشغلهم بما يسمونه بالعلوم الباطنية الخيالية، ويدل على صحة هذا القول الجنيد- وهو إمام المتصوفة فى زمانه: أحب للمبتدىء- المريد- أن لا يشغل قلبه بهذه الثلاث وإلا تغير حاله: الكسب، وطلب الحديث، وأحب أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه، فما معنى لا يقرأ ولا يكتب؟

أنه لا يتعلم، فإذ لم يتعلم فكيف يعبد الله تعالى عبادة تزكى نفسه وتؤهله لولاية الله تعالى، كأنهم يقولون، إن المريد ليس فى حاجة إلى العلم ولا إلى العبادة.،إذا يكفيه الذكر والأوراد يلازمها حتى يصبح من أهل الكشف والعلم اللدنى، وبذلك يستغنى بعلم الباطن عن العلم الظاهر، وبعلم الحقيقة عن الشريعة[٣].

١-متفق عليه.

٢- إلى التصوف يا عباد الله ، فإن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين صـ٣٢ و ٣٣.

٣- إلى التصوف ياعباد الله صـ ٣٤.

* وهذه حقيقة قصة موسى مع الخضر. التى بنى الصوفية منها قاعدة الشريعة والحقيقة المزعومة- وقد وضحتها الأحاديث الصحيحة من خلال تفسير الآيات الواردة فى سورة الكهف

أخرج البخارى عن أُبىٍّ بن كعب «رضى الله عنه» أنه سمع سول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل، فسئل أى الناس أعلم، قال أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال: يارب وكيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوته فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاة يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جريه الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغداة قال موسى لفتاه ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به، قال له فتاه، ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾. قال فكان للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا، فقال ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾. قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنىَّ بأرضى السلام، فقال أنا موسى، فقال موسى نبى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾. يا موسى إنى على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه.

فقال موسى ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

قال له الخضر ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينه فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا السفينة لم يفاجئا إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح

السفينة بالقدوم، فقال له موسى قد حملونا بغير نول (أجر)، فعهدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ (فكانت الأولى من موسى نسيانًا) قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر..»(١).

وحقيقة هذا الأمر- كما تزعم الصوفية على لسان «ابن عجيبه» يقول: «وأما واضع هذا العلم «يعنى الصوفية» فهو النبى ﷺ علمه الله بالوحى والإلهام، فنزل جبريل أولاً بالشريعة فلما تقرر، نزل ثانياً بالحقيقة، فخص بها بعضًا دون بعض، وأول من تكلم فيه، وأظهره سيدنا على «كرم الله وجهه» وأخذه عنه. «الحسن البصرى»(٢).

*وإنها لفرية جائرة الإفك على رسول الله، وبهت له بجريمة ملعونة، جريمة كتمان العلم، وأى علم؟ إنه علم الحقيقة فى دين الصوفية؟!!

أفيكتم الرسول الحق وعلمه ودلائله، وقد توعد كاتم العلم بعقاب شديد من الله «من كتم علمًا يعلمه الله إياه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار»(٣).

ثم وراء هذا البهتان إتهام صريح لأبى بكر وعمر وعثمان، ومعهم خيار الصحابة من السابقين، بأنهم كانوا على ضلالة وجهالة مما يعرج بالروح إلى محبة الله. وراء محاولة حقود مصممة على تجريد الجماعة الاسلامية من خيار سلفها وخيار خلفها من صفة الإيمان الحق، وحسب الصوفية أن تبوء هى وحدها بما تبهت به الصديقين والشهداء»(٤).

١-تفسير ابن كثير جـ٣ صـ٩٢ و٩٣.

٢-نقلا عن هذه الصوفية من إيقاظ الهمم فى شرح الحكم لابن عجيبة حـ١ ط ١٩١٣م.

٣-حديث صحيح أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان والحاكم وصححه وقال الترمذى : حسن صحيح

٤-هذه هى الصوفية صـ٣٣.

ليس هذا فقط، بل ذهب الصوفية إلى أنه من لم يعرف الحقيقة فهو زنديق فقالوا-: «فى الحِكَمْ» من تشرع ولم يتحقق فقد تزندق، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تفسق».

وبما أن الشريعة تخالف الحقيقة فى مخبرها وجوهرها. فلا يعاب على العصاة منهم، المخالفين لظاهر الشريعة، وقد أنشد واحد منهم قائلاً:

وإن كنت فى عالم الشريعة عاصياً فأنا فى عالم الحقيقة طائع

«وأحيانا يعبر عن هذه القضية باسم (الظاهر والباطن) ويعتقدون أن للقرآن ظاهراً وباطناً كما هو معروف فى تفسير ابن عربى المزعوم «التفسير الباطني للقرآن الكريم».

ويعنون بالظاهر: الاسلام المتمثل في نصوص الوحى. ويعنون بالباطن: التصوف الذى ينفلت من أى قاعدة أو قانون إنما يطلق حسب قاعدة باطن كل متصوف، وحسبما يحس به من المواجيد، وأحيانا يقول: «حدثنى قلبى عن ربى بكذا وكذا» أوأنه يعصى باسم اطلاعه على اللوح المحفوظ فيقول جهلة الصوفية - يسوغون فجورهم ومروقهم من الشريعة - : إننا متحققون لا متشرعون».

وقولهم: إننا سابحون فى بحار الشطحات، ثملون بخمرة الغيبة، ومن كان هذا شأنه لا يسأل عن صلاة ولا صوم لأن التكليف رفع عنه»[١].

وذلك برغم أن موسى خالف الخضر، والخضر قد ارتكب المعاصى في ظاهر الأمر، ولكنه كان فى الحقيقة طائعًا، مفضلاً على موسى الذى عَلِمَ عِلْمَ الشريعة فقط، وفاتهم أن الله قد علم كل منهما علمًا لم يعلمه الآخر، كما فاتهم أيضا أن الخضر كان على شريعة بخلاف شريعة موسى، ونسوا أن هذا الذى فعله «الخضر» كان بوحى من الله. وعن علم من عند الله، وبأمر الله. كما أشارت الآيات: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ و ﴿مَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فدل ذلك على نبوة الخضر على الصحيح».

١-التصوف فى الميزان .د/مصطفى غلوش صـ ١٥٢ و١٥٣ بتصرف.

* قصة « موسى مع الخضر ».

وكيف يحتجون علي هذا الباطل بخرق الخضر عليه السلام للسفينة، وقتله للغلام الزكى، واقامته لجدار اليتيمين، وإنكار موسى عليه ، ذلك أن موسى كان من أهل الظاهر، فأنكر، والخضر من أهل الباطن فأقر، وما دَرَوْا أن الخضر فعل ما فعل بأمر الله ووحيه إليه حسب شريعته التى تعبده الله تعالى بها وأن موسى أنكر لأن ما فعله الخضر لا يجوز فى شريعة موسى التى تعبده الله تعالى بها، كما علمت.

ولهذا لما قال له الخضر: إنى على علم مما علمنى الله، وأنت على علم مما علمك الله، فسكت موسى واطمأن، إذ كانت الشرائع تتعدد بتعدد الرسل، ولم تجتمع الشرائع إلا فى شريعة الإسلام حيث نسخ الله كل ما سبقها من الشرائع التى جاءت بها الرسل قبل النبى خاتم الأنبياء محمد «ﷺ»، وبذلك بطل العمل بغير شريعة الإسلام التى ظاهرها هو باطنها، وباطنها هو ظاهرها، شريعة واحدة لا ثانية لها ولا ثالثة.

وبناء على هذا فإنه لا حجة لهم على تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن، والدين الإسلامى إلي شريعة وحقيقة[1].

ويقول شيخ الاسلام «ابن تيمية»: إن قصة الخضر مع موسى عليه السلام، ليس فيها خروج عن الشريعة، وإن أمثال هذه القصة تقع كثيراً للمؤمنين كأن يختص أحد شخصين بعلم سبب يبيح له ذلك والآخر لايعلم ذلك السبب وإن كان أفضل منه.

وضرب لذلك شخصين دخلا بيتًا لشخص ثالث، وكان أحد الشخصين يعلم طيب نفس صاحب البيت بالتصرف فيه، إما بإذن لفظى له أو بغير ذلك، والآخر لا يعلم ذلك، فالأول إن تصرف فى البيت فقد أتى مباحًا فى الشريعة، والآخر لا يتصرف فيه بهذا السبب. أى حتى لا يأتى محظوراً فى الشريعة، فخرق السفينة وقتل الغلام وغيره كان من هذا الباب»[2].

١- إلى التصوف يا عباد الله صـ٣٣ و ٣٤.

٢-مجموع الفتاوى «ابن تيمية» جـ١ صـ ٤٢٦ بتصرف .

هذا وقد وردت قصة الخضر وموسى عليهما السلام في القرآن الكريم فى سورة «الكهف» وقد أوضحت هذه القصة معنى تفرد الله عز وجل بالملك والحكمة والإرادة والعلم، وأنه ما من ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا علمه محدود، وملكه محدد وإرادته محدودة، فلا يجوز ولا يمكن لأحد أن يتعدى حدود ما أعطاه الله من علم أو إرادة، فإن لله عز وجل أن يهب من يشاء ما يشاء من ذلك كيف ومتى شاء»[1].

فهل تدين الصوفية بهذا، وبذلك تعتقد؟

إن القصة فيها حجة على الصوفية، لا لها، ليس فيها الزعم بأن الولى يأتى بما ينكره الشرع باسم الحقيقة، أو ترك الشريعة باسم «العلم اللدنى» فهل ورد هذا اللفظ في القرآن أو السنة.

إن كلمة «العلم اللدنى» المأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[2] لا تعدو أن تكون بمعنى «عند». «من لدنا» أى «من عندنا» وقد ورد فى القصة نفسها ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أى من عندى. والقصة ليس فيها خروج على الشريعة. كما بين الشيخ «ابن تيمية» وأن أمثالها يحدث كثيراً لمجرد أن اطلع شخص على أمر من الأمور دون أن يطلع عليه الشخص الآخر، وإن كان ذلك أمراً معلوماً عند بقية الناس.

وأما بالنسبة للشرع الإسلامى اليوم فليس يخفى على عامة المؤمنين وخاصتهم شىء منه...

وإن جهله شخص أو أكثر فلا عبرة بإنكارهم إن أنكروا ما يعلمه عامة المؤمنين وعلماؤهم من الدين.

أما أن يأتى شخص أو جماعة ما ينكره جماعة المسلمين وعلماؤهم متأولين شيئا من الدين أو مدعين أن عندهم علما خاصاً بهم دون جماعة المسلمين.

١- موقف «ابن تيمية» من التصوف والصوفية ٣٣ و٣٤.

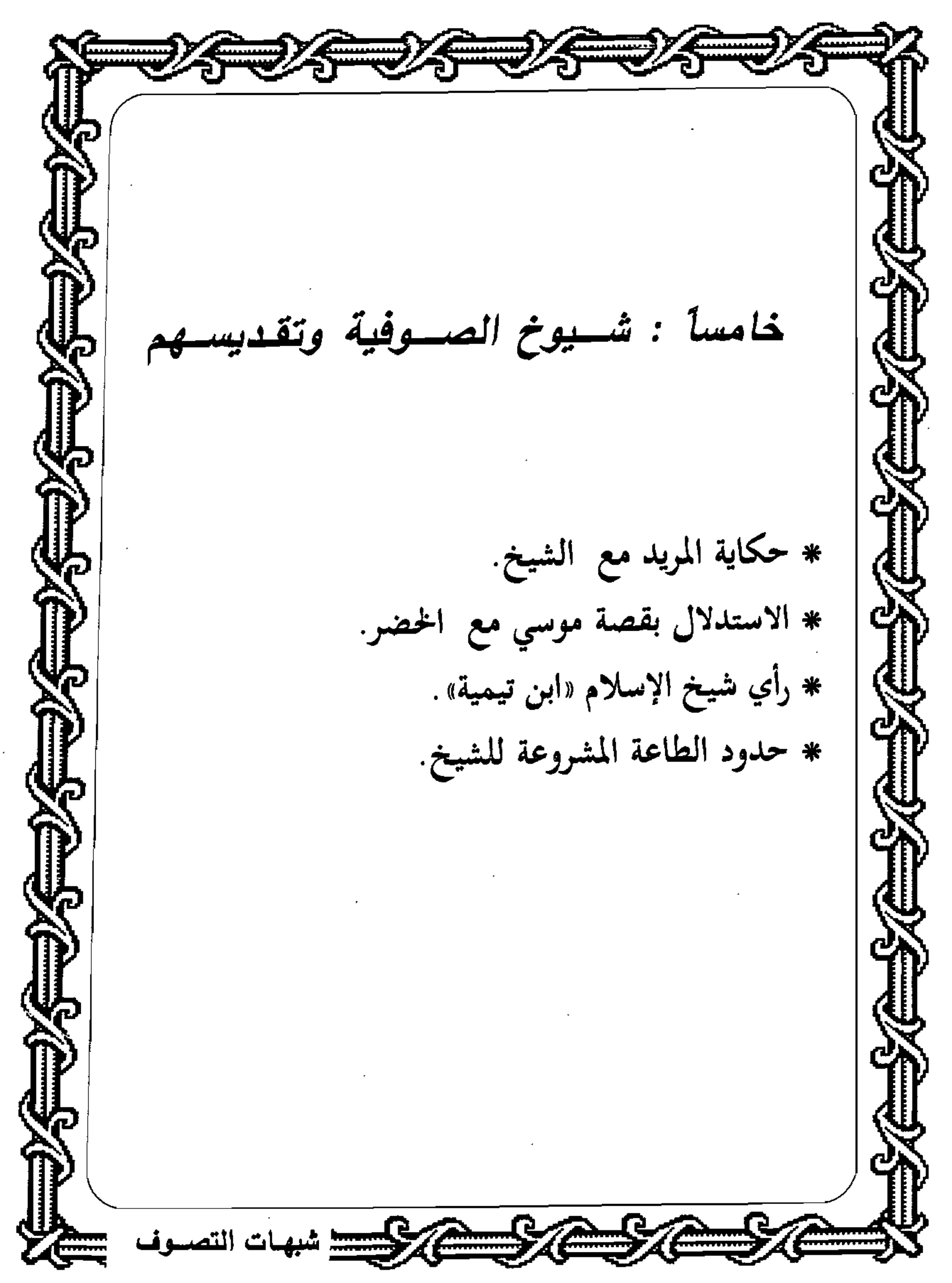
٢-سورة الكهف ، الآية ٦٥ .

فهذا لا يسلم لهم إطلاقًا، فقد ثبتت قواعد الدين، وختمت الرسالات برسالة محمد «ﷺ» وكملت الرسالة فى حياته «ﷺ». كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[1] أ.هـ[2].

***

١ - سورة المائدة الآية ٣ .

٢ - موقف الإمام إبن تيمية من التصوف والصوفية ص٢٢٢.



خامساً : شيوخ الصوفية وتقديسهم

* حكاية المريد مع الشيخ.
* الاستدلال بقصة موسي مع الخضر.
* رأي شيخ الإسلام «ابن تيمية».
* حدود الطاعة المشروعة للشيخ.

خامساً:

* شيوخ الصوفية وتقديسهم «حكاية المريد مع الشيـخ».

ما ألحفت الصوفية فى شىء إلحافها فى الدعوة إلى اتخاذ شيوخها أرباباً من دون الله، ففرضت على «الدرويش» أن يكون وطاء «ذليلاً» لشيخه مُستَعبَدَ الفكرة سليب الإرادة، كجثة الميت فى يد الغاسل، وجعلت هذه العبودية الممتهنة أولى الدلائل على طاعة المريد لشيخه، وعلى حبه له، وعلى أنه يرقى معارج الوصول إلى حظائر القدس، اسمع إلى «طيفور البسطامى» يقول: «من لم يكن له أستاذ، فإمامه الشيطان»[١] وإلى صاحب «لطائف المنن» يزعم. «من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو فى هذا الشأن لقيط لا أب له، دعىٌّ لا نسب له»[٢].

وإلى «محمد عثمان» يقرر آداب المريد مع شيخه: «ومشاهدتك له فى كل حال وَرَدَ عليك أنه بواسطته إليك يأتى، ومنها أن تجلس جلوس الصلاة عنده، وأن تفنى فيه، وألا تجلس فوق سجادته، ولا تتوضأ بإبريقه ولا تتكىء على عكازه، واسمع ما قال بعض الأصفياء: من قال لشيخه: لم؟ لا يفلح، ولتكن محضره فى قلبك وخيالك، فإن غفلت عنه وقتا، فهذا من مقتك، واجتهد فى أن تنال مقام الفناء فيه، فمن ثم ترقى إلى مقام البقاء به»[٣].

وقد نظمها مصطفى البكرى. فى «بُلغةِ المريد» فقال:

وسَلِّـــم الأمـر، لا تعترض ... ولو بعصيان أتى أذىً فُـرض
وكـن لــديه مـثل ميت فان ... لدى مـغسل، لتـبق دانـــى
ولا تــطأ له علـــى سجـــادة ... ولا تنم له علـى وســادة[٤].

وقد سبقه الجيلى بهذا، فقال:

١-الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية صـ ١٤٧ ط١٣ ١٩١ م.
٢-المصدر السابق صـ١٤٦ .
٣-الهبات المقتبسة لمحمد عثمان ط١٩٣٩م
٤-بلغة المريد للبكرى .

وكن عنده كالميت عند مغسل : يقلبه كيف شاء وهو مطاوع[١].

وتحتم الصوفيه على المريد ألا يعصى شيخه فى أمر أو نهى، وإن رآه يخالف السنة المحمدية[٢].

ولكى يظل «الدرويش» تحت قبضة الشيخ يستذل كرامته، ويغصبه ماله وعرضه، قررت الصوفية على لسان الشعرانى: «إن من أشرك بشيخه شيخاً آخر وقع فى الشرك بالله»[٣].

« وأن من أخذ الطريق على غير شيخه، كان على غير دين»[٤].

وكتب الصوفية طافحة بمثل تلك المنكرات التى تهدر الكرامة والقيم الانسانية النبيلة، وتجعل من الانسان لقى طريح الذل والهوان، والصغار، وموطئا مستعبداً لكل نعل نجسة باغية الوطء ، تنزو بالرجس الحقير، وهذا سر ما ترى عليه الصوفية من انشطارها شطرين، شطر معبود، وآخر عابد، وسر ما يروعك إذ تبصر شيخًا كبيراً يلعق نعل طفل صغير ما زال يتعثر فى خراءته، ويتلطخ بنجاسة بوله!! لا لشىء سوى أنه حفيد مولاه شيخ الطريقة، ففيه سره، وفيه ربانيته!! وسر مخالفة الصوفية جميعا عن أمر الله لما يدينون به من أن شيوخهم لا يهمسون بهمسة إلا عن وحى من الله– فقلوبهم العروش التى استوى عليها برحمانيته، وسماوات كبريائه وجلاله وجماله. وأقداس وحيه التى يفيض منها هداه!![٥].

يقول القشيرى: «من صحب شيخًا من الشيوخ، ثم اعترض عليه بقلبه، فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة!!، على أن الشيوخ قالوا: حقوق الأستاذين لا توبة منها»[٦].

١–منحة الأصحاب للرطبى صـ ٧٥ .

٢–أنظر قواعد الصوفية ص١٣١

٣–قواعد الصوفية ص١٥٤

٤–لطائف المنن جـ٢ صـ١٠٣

٥–هذه هى الصوفية صـ١٢٣ و١٢٤

٦–الرسالة للقشيرى صـ ١٥١.

وتؤكد الصوفية على أن المريد لا يبلغ مبلغ الرجال ولا درجة الأولياء. إلا باتخاذه لشيخ يؤدبه.

يقول القشيرى أيضا: «لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام مؤدب»[١].

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود «ولا بد فى التصوف من شرط جوهرى هو التأثير الروحى، وبتعبير أدق «البركة».

وهى لا تأتى إلا بواسطة شيخ»[٢].

وتتمثل هذه البركة ومدى الحاجة إليها فيما روى عن الشيخ عبد القادر الجيلانى[٣] فى ترجمته فى الغنية،

قال المترجم: (كان رضى الله عنه يقول: عثر الحسين الحلاج، فلم يكن فى زمنه من يأخذ بيده، وأنا لكل من عثر مركوبه من أصحابى ومريدى ومحبى إلى يوم القيامة، آخذ بيده، ياهذا فرسى ملجم، ورمحى منصوب، وسيفى شاهر وقوسى موتر، أحفظك وأنت غافل»[٤].

فانظر إلى ما وصل إليه بعض الصوفية من المبالغات فى إظهار مدى الحاجة من المريد للشيخ حتى لم يتورعوا عن إدعاء أنه يحفظه وهو غافل، كأنه قد شارك الله عز وجل فى ملكه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ولا شك أن إثبات النص هنا لا يدل على أن الشيخ قاله فعلاً، ولكن يدل على مدى ما وصل إليه بعض الصوفية من مبالغة فى تصوير حاجة المريد إلى الشيخ سواء صح ذلك عنه أم لا[٥].

١-الرسالة للقشيرى صـ٤٤.

٢-المنقذ من الضلال، عبد الحليم محممود ص٢٥٧

٣-هو أبو صالح عبد القادر بن موسى بن عبد الله، المتوفى عام ٥٦١ ببغداد.

٤-الغنية ، عبد القادر الجيلانى ص٣(مقدمة المترجم)

٥-موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص٢١١ و ٢١٢ .

كما اعترف بعض الصوفية فى تصوير درجة الطاعة المطلوبة من المريد للشيخ، واشتهر ذلك عنهم. كما رأيت، ومما ورد عنهم أيضًا فى المبالغات قولهم: أن الشيخ لا يقبل مريده حتى يخضعه للامتحان والتجربة مدة قد تصل إلى ثلاثة أعوام، أى بعد فترة من الامتحان طويلة جدًا»(١).

ويقول الإمام القشيرى: «فمن رده قلب شيخ من الشيوخ فهو الشقى المحروم»(٢).

ويقول السهروردى: «وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار، لا يتصرف فى نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره»(٣).

وهذه قصة أخرى يرويها الإمام القشيرى فى رسالته، فى باب «حفظ قلوب المشائخ وترك الخلاف عليهم» تؤكد شدة المبالغة فى هذا الباب عندهم. فقال: «إن شقيقا البلخى وأبا تراب النخشبى قدما على أبى يزيد، فقدمت السفرة، وشاب يخدم أبا يزيد، فقال له: كل معنا يا فتى، فقال: «أنا صائم» فقال أبو تراب: كل ولك أجر صوم شهر، فأبى، فقال شقيق: كل ولك أجر صوم سنة، فأبى، فقال أبو يزيد: «دعوا من سقط من عين الله تعالى»- ثم يكمل القصة الإمام القشيرى فيقول: «فأخذ الشاب فى السرقة بعد سنة فقطعت يده»(٤).

وهذا هو الغرض من إيراد القصة ، أى لبيان عاقبة من ترك طاعة شيخه ولو أمره بإفساد طاعة الصوم التى دخل فيها،وهكذا يصل الأمر عندهم إلى حد أن من قال لشيخه: لا، لا يفلح أبدا.

فكل هذه مبالغات قد تؤدى إلى مفاسد كثيرة ، أقلها الإقرار بالمنكر إن ظهر من أحد الشيوخ التزاما بهذه الآداب الغريبة ، وبذلك يهدم المبدأ الإسلامى العظيم « مبدأ

١-الصوفية فى الإسلام ، نيكلسون ص٣٧

٢-الرسالة للقشيرى صـ ٣٢٠.

٣-عوارف المعارف للسهروردى صـ٤٠٣.

٤-الرسالة للقشيرى صـ ٢٥٩.

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»[١] .

هذا وإن من آدابهم أن لا يدخل المريد فى صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن هذا الشيخ أقوم بالتأدب من غيره ، ثم يترتب على هذا ، أن من كان عنده تطلع إلى شيخ آخر لا تصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ، ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ ، فالمريد يحب أن يوقن بتفرد شيخه بالمشيخة فتقوى محبته له ، فالمحبه هى الواسطة بين المريد والشيخ ، وليس العلم والتقوى ونحو ذلك[٢] .

وهذا يفسر لنا ما حدث بين أصحاب الطرق المختلفة من الصوفية من اختلافات لأنهم يعتقدون فى مشائخهم أنهم أعلم أهل الأرض ، فكل طائفة يجب أن تثبت ذلك لشيخها ، وحيث إن الرابطة بين المريد والشيخ هى المحبة والطاعة ، وليس طلب الحق ، فلذلك لا يمكن لفريق أن يقر بالحق إن كان فى جانب فريق آخر[٣] .

* استدلالهم بقصة الخضر مع موسى عليهما السلام :

وكما استدل الصوفية بقصة الخضر مع موسى عليهما السلام فى مسألة « الحقيقة والشريعة » استدلوا هنا بها على جواز مبالغتهم فى طاعة الشيخ ، يقول السهروردي:[٤]

« وينبغي للمريد أنه كلما أشكل عليه شئ من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى ، وإذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره ، فما ينكره المريد لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ ، فللشيخ فى كل شئ عذر بلسان الحكمة[٥] .

* رأي شيخ الإسلام « ابن تيمية » :

---

١ ـ موقف ابن تيمة من التصوف والصوفية صـ٢١٣

٢ ـ عوارف المعارف للسهرودى صـ ٤١٠ بتصرف

٣ ـ مرقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ٢١٤

٤ـ هو عبد القادر بن عبد الله السهرودى « صاحب كتاب « عوارف المعارف » .

٥ ـ عوارف المعارف للسهرودى صـ ٤٠٩

يخالف الشيخ ابن تيمية الصوفية فى النقاط التى تقدم ذكرها عند الصوفية من مبالغة فى تصوير حاجة المريد للشيخ ، ومبالغة فى تصوير درجة الطاعة الواجبة على المريد تجاه شيخه ، وما استدلوا به من قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ، ويبدى رأيه واضحا فى هذه النقاط كما يلى : -

* حاجة المريد إلى الشيخ « عند ابن تيمية » لا شك أن كل طالب علم مبتدئ محتاج إلى من سبقه فى مجال العلم الذى يطلبه ليتلقى عنه ذلك العلم ، وهذا يحصل بالتلقى المباشر عن المعلم أو قراءة الكتب المختصة بذلك العلم على يد معلم أو أكثر ، وهذا إتمام فى كل العلوم .

فإن كان طالب ذلك العلم ممن يملك القدرة على القراءة والفهم والتمييز بين الصحيح والسقيم ونحو ذلك وكانت مصادر ذلك العلم متوفرة ، فلا شك أن حاجته للمعلم تقل عن حاجة من لم يسبق له التعلم مطلقًا .

وإن كان الجميع محتاجين فى بدايتهم إلى المعلم (١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين : فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن ، كما تلقى الصحابة ذلك عن النبى ﷺ وتلقاه عنهم التابعون ، وبذلك يحصل اتباع السابقين ، الأولين بإحسان ، فكما أن المريد يحتاج إلى من يعلمه القرآن ونحوه فكذلك يحتاج إلى من يعلمه الدين الباطن والظاهر ، ولا يتعين ذلك فى شخص معين ولا يحتاج الإنسان فى ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين » (٢) .

بل يؤكد الشيخ ابن تيمية فى موقع آخر على أن من أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين فلا حاجة به إلى ذلك ، ولا يستحب له ذلك » (٣)

---

١ - موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ٢١٥

٢ - مجموع الفتاوى لابن تيمية صـ ٥١٢ جـ ١١

٣ - المصدر نفسه جـ : ١١ صـ ٥١٤

إذا فالحاجة إلى المعلم مرتبطة بدرجة العلم والفهم لدى المتعلم أكثر من ارتباطها بمسألة « البركة » التي يؤكد عليها الصوفية .

ويخص شيخ الإسلام « ابن تيمية » « علم السلوك » بأنه من أسهل مايمكن تلقيه من الكتاب والسنة مباشرة .

ويستدل الشيخ على ذلك بأن جميع الصحابة رضى الله عنهم كانوا يعلمون السلوك بدلالة الكتاب فى ذلك إلى فقهاء الصحابة ، ومع هذا لم يحصل بينهم نزاع فى ذلك كما تنازعوا فى بعض مسائل الفقه »[1]

وعلل الشيخ ابن تيمية ظهور الحاجة لدى بعض العباد والزهاد إلى تقليد شيخ معين فى السلوك ، بأن سبب ذلك هو ماحصل لهم من إعراض عن طلب العلم النبوى الصافى ، الذى يعرف به طريق الله ورسوله[2] .

أى أنهم حين أعرضوا عن قراءة الكتاب والسنة احتاجوا إلى تقليد الشيوخ فى بداياتهم ، ثم فى أذكارهم وشكل عبادتهم وعددها وأوقاتها . وهذا كله موجود فى القرآن الكريم والحديث الشريف باستفاضة بل إن الشيخ ابن تيمية يؤكد على أن مسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة فى الكتاب والسنة ، وأن كل ماتنازع فيه الشيوخ من مسائل السلوك يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب فيه مايفهمه غالب السالكين ، وإنما يعوز هؤلاء الإقبال على الطريق المشروع . وتجنب طريق البدع حتى لا يقع فيهم الخلاف »[3] .

* حدود الطاعة المشروعة للشيخ من المريد:

حدد شيخ الإسلام ابن تيمية طاعة المريد المشروعة لشيخه بما حاصله ، أن المسلمين قاطبة لهم مرجع يرجعون إليه ، لا يخالفونه قيد أنمله ، وذلك المرجع هو الكتاب والسنة

١ـ مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٩ صـ ٢٧٣

٢ـ المصدر نفسه جـ ١٩ صـ ٢٧٣ بتصرف .

٣ـ مجموع الفتاوى لابن تيمية صـ ٢٧٤ بتصرف .

فإن كان الشيخ - مهما علا أمره وارتفع شأنه - يملى على مريديه مايوافق الكتاب والسنة فنعمت الطريقة ونعم المسلك ، وإن كان ما يمليه عليهم مخالفًا للكتاب والسنة . فالواجب رفضه ، فإنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وليس أحدًا معصومًا إلا رسول الله ﷺ وهذا فى الشيخ الذى ثبتت معرفته بالدين وعمله به وأما إن كان مبتدعًا بدعة ظاهرة ، أو فاجراً فجوراً ظاهرًا فهذا يجب الإنكار عليه فى بدعته وفجوره لا أن يطاع فيما يأمر به (١) .

ويقول الشيخ ابن تيمية : « وإن أمر أحد من الشيوخ أو غيرهم بما أمر الله به ورسوله وحيث طاعه الله ورسوله . فإن طاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد فى كل حال ، ولو كان الآمر بهما كائنًا من كان (٢) .

أما مسألة محبة الشيخ المستوجبة لطاعته العمياء - التى سبق أن عرضنا لها عند الصوفيه - فهذه مسألة قد أظهر الحق فيها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال : «وأما من أحب شخصًا لهواه أو أن يحبه لدنيا يصيبها منه أو لحاجة يقوم له بها ، أو لمال يتأكله به ، أو لعصبية فيها ، ونحو ذلك من الأشياء ، فهذه ليست محبة لله ، بل هذه محبة لهوى النفس ، وهذه المحبة هى التى توقع أصحابها فى الكفر والفسوق والعصيان»(٣) .

ثم يقول الشيخ « وما أكثر من يدعى حب مشائخه لله ، ولو كان يحبهم لأطاع الله الذى أحبهم لأجله فإن المحبوب لأجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير (٤) .

* ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية : أن قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ليس فيها خروج عن الشريعة - كما وضحنا ذلك - وليس فيها كذلك ما يفيد - كما تزعم

١ - المصدر نفسه جـ١٩ صـ٢٧٣ بتصرف
٢ - مجموع الفتاوى جـ١١ صـ ٥١٧ بتصرف .
٣ - مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ٥٢٠
٤ - نفس المصدر حـ ١١ صـ ٥٢١

الصوفية أيضًا ـ أن المريد يجب أن يطيع الشيخ طاعة عمياء ، وأنه كلما أشكل عليه شئ من حال الشيخ لا يعترض عليه أو ينكره ، وإنما يتذكر حال الخضر مع موسي عليهما السلام ، كما ذكر ذلك السهروردى .

وهذا قياس باطل من وجوه :

أولاً : القياس الذى جاء فى كلامهم بين ما يجب للشيخ منهم ، وما جاء فى قصة الخضر قياس مع الفارق ، فإن الشيخ الذى أوجبوا على المريد طاعته شخص عادى مكلف بما جاء به النبى ﷺ أما الخضر «عليه السلام » فهو شخص منحه الله تعالى من عنده رحمة ،علمه من لدنه علما « كما جاء فى النص الكريم » فأين شيخ الصوفية من هذا الشخص الذى ميزه الله تعالى وأوحى إليه وأمره بذلك ، وأنزل فيه آية فى كتابه الكريم ، وأخبر أنه غير مأمور بشريعة موسى ، بل علمه من الله مباشرة.

ثانياً : بعد هذا الفرق العظيم بين الخضر عليه السلام وبين غيره من المشائخ فإن موسى عليه السلام لم يكن مطيعًا طاعة عمياء ، كما هو مطلوب من المريد فى التصوف ، بل كان يعارضه ويناقشه فيما جاء ليتعلمه منه . كما جاء فى الآيات وبعد هذا ، فلم يترك موسى الخضر حتى نبأه بالحكمة فيما أتاه من أعمال ، فهل كان موسى فى هذه القصة مطيعًا للخضر الطاعة العمياء التى يطلبها الصوفية من المريد ؟ فأين الحجة فى طلب الطاعة العمياء من المريد للشيخ فى هذه القصة ؟ .

إلا إذا قلنا إن موسى عليه السلام كان مخطئًا فى كل مافعله مع الخضرعليه السلام ، وهذا مالم يقله القرآن ، وحاشا أن يتكرر الخطأ من النبي بهذه الصورة ـ إن كان ذلك خطأ فعلا ـ والدليل من القرآن الكريم أن الخضر عليه السلام قال لموسى عليه السلام فى أول صحبتهما ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ [1] .

أى أنه كان يعرف أن موسى عليه السلام لتمسكه بالشرع الذى أنزل الله إليه سيندفع إلى إنكار مايراه منكرًا ، ولو صدر من الخضر نفسه ، لأن هذا هو الوضع

---

١ ـ سورة الكهف آية ٦٧ .

السليم للمؤمن الحق .

ولكن حين يعرف سر العمل الذى أنكره ويعلم أنه صادر من الله تعالى ، لا من عبد مثله لا يملك ضرا ولا رشدا ، هنا يرتفع الإنكار ويحل محله الاستسلام والطاعة ، لذلك قال الخضر لموسى عليه السلام فى نهاية صحبتهما ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[١]

وبعد هذا الشرح يتضح لنا أن القصة فيها حجة على الصوفية ، لا لها ، وإن طرح كلام الصوفية يؤدى إلى التسليم بأن الشيخ والولى يجوز أن يأتى بما ينكره الشرع ، ويجب على المريد حينئذ أن يتبعه فى ذلك بدون إنكار عليه ، وهذا غاية الفساد والضلال والعياذ بالله [٢] .

١ ـ سورة الكهف ، آية ٨٢

٢ ـ موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ٢٢٠ ـ ٢٢١ بتصرف .

الباب الثالث : « الأخلاق »

سادسا : المقامات والأحوال

* مقام الفقر
* مقام الزهد
* مقام التوكل
* مقام التوبة
* مقام الفناء

* سادساً : مقامات الصوفية وأحوالهم

أ ـ المقامات :

المقامات فى اللغة جمع مقام وهو موضع القيام ، وهو إما أن يراد به أمر حسى كما قال تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [١] قال المفسرون : مقام إبراهيم : الحجر الذى فيه أثر قدميه والموضع الذى كان فيه الحجر [٢] فهذا مقام حسى .

وقد يراد بالمقام أمر معنوى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [٣] قال فى تفسير الجلالين : « وهو مقام الشفاعة فى فصل القضاء » [٤] فهذا مقام معنوى .

المقام عند الصوفية : استعمل الصوفية كلمه مقام لتدل على مرحلة من مراحل التعمق فى العبادة ، وفى ذلك يقول الجرجانى فى التعريفات « هو ما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف [٥] .

وقد شرح هذا المعنى بعبارة أوضح « أبو نصر السراج » فقال :

« فإن قيل ما معنى المقامات » ؟

يقال : معناه مقام بين يدى الله عز وجل وفيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات ، والانقطاع إلى الله عز وجل [٦] .

وهذا يعنى أن الصوفية استعملوا كلمة مقام بمعناها المعنوى ، فالسالك عندهم يبدأ بمعام التوبة مثلا ، وهو مقام معنوى ، ثم قد ينتقل إلى مقامات أخرى كالتوكل والصبر والشكر ، ونحو ذلك وكلها من المقامات المعنوية [٧] .

١ـ سورة البقرة آيه ١٢٥ .
٢ ـ تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ١ . صـ ٣١٠.
٣ ـ سورة الإسراء آية ٧٩.
٤ ـ تفسير الجلالين ،بهامش المصحف الكريم صـ ٢٢٥ ط بمصر عام ١٣٧٠ هـ
٥ ـ التعريفات للجرجانى ص ٢٠٣
٦ ـ اللمع ، أبو نصر السراج صـ ٦٥
٧ ـ موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٠٧،١٠٨.

ب ـ الأحــوال :

الأحوال جمع حال ، والحال فى اللغة ، ما عليه الإنسان من خير أو شر [١] وقد استعمل الصوفية هذه الكلمة للدلالة على ما يمر بالسالك من صفات متغيرة كالخوف والرجاء والحزن والطرب ونحو ذلك .

يقول أبو نصر السراج (وأما معنى الأحوال فهو ما يحل بالقلب أو تحل به القلوب من صفاء وكدر) [٢] .

ويقول القشيرى (هو معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب) [٣]

وهذا يوضح لنا أن المراد بالأحوال عندهم معانى ترد على السالك من غير تكلف منه ولاتعمد ، خلافا للمقامات التى سبق أن عرفنا أنها مراحل من التعمق فى العبادة يصل إليها المرء بجهده ومثابرته ، وهذا هو معنى قولهم « الأحوال تأتى من عين الجود . والمقامات تحصل ببذل المجهود » [٤] .

تعدد المقامات والأحوال وتداخلها :

فى الواقع أن المقامات والأحوال ليس متفق على عددها عند الصوفية . كما أنها قد تتداخل بحيث يصعب التمييز بينهما ، وذلك لأن القواعد التى وضعوها للتمييز بين المقامات والأحوال هى فى الحقيقة غير مضطردة فيما ذكروه من الأحوال والمقامات ، مثال ذلك أنهم يقررون أن المقامات لها صفة الديمومة بينما الأحوال لها صفة التغيير المستمر .

يقول القشيرى : « وصاحب المقام ممكن فى مقامه ، وصاحب الحال مترقٍ عن حاله»[٥] ،مع هذا فإن منهم من أشار إلى بقاء الأحوال ودوامها . كما قال القشيرى

---

١ – منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل جـ ١ صـ ٦٢٥ الرابعة عام ١٣٨٤ هـ.
٢–اللمع ، أبو نصر السراج صـ ٦٦
٣– الرسالة للقشيرى صـ٥٤
٤– نفس المصدر السابق والصفحة
٥ ـ نفس المصدر السابق والصفحة

نفسه ، « وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ودوامها » [١] .

ثم إن قولهم إن المقام له صفة الديمومة معارض بقولهم : إن المرء يترقى من مقام إلى مقام ، وبهذا تنتفى صفة الثبات المذكورة .

وأيضا نرى أن بعض الصوفية يعتبر بعض الأمور كالخوف من المقامات ، كما ورد ذلك عن « أبى طالب المكى » [٢] بينما يعتبره غيره من الأحوال . كما ورد ذلك عن أبى نصر السراج » [٣] واعتبر القشيرى «الرضا » من ضمن الأحوال [٤] بينما اعتبر « أبو نصر السراج » الرضا من ضمن المقامات [٥] .

والرأى الجامع للرأيين السابقين هو أن الحال كان فى بدايته معنى يطرأ ويزول ، فلا استقرار له ، ولكنه بالتكرار قد يصير معنى راسخًا لا يزول .

ومن هنا يمكن أن يصبح ذلك المعنى مقاما عند صاحبه فى النهاية، مع أنه كان فى بدايته حالاً يطرأ ويزول وقد مثلوا لهذا بحال المراقبة الذى يطرأ ويزول مرات عديدة عند السالك ثم يصبح مقامًا لصاحبه، وذلك حين يغلب عليه مراقبة الله فى جميع أعماله وأحواله ، وهذا هو الرأى السديد الذى يحل المشكلة من أساسها وقد ذكره السهروردى ، وأبو الفيض المنوفى [٦].

١- نفس المصدر السابق والصفحة
٢- قوت القلوب ، لأبى طالب المكى جـ١ صـ٣٦٤
٣- اللمع ، للسراج صـ ٨٩
٤- الرسالة للقشيرى صـ٥٤
٥- اللمع ، للسراج صـ ٦٥
٦- راجع/ موقف ابن تيمية صـ١٠٨ و ١٠٩

المقام الأول : « الفقــر »

ومن أهم المقامات عند الصوفية وعلى رأسها « مقام الفقر » إذ هو بداية الطريق وأساس التربية والصلاح ، فلا بد أن يتجرد الصوفى من ماله ، ويخرج عن دنياه.

فقد زعم كثير من الصوفية أن الفقر محمود لذاته ، وأنه مقام شريف من مقامات الوصول إلى الولاية [١] حتى قال الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء (بيان فضيلة الفقر مطلقًا) [٢] .

والفقر فى اللغة يطلق على قلة المال وعدمه ، كما يطلق ويراد به افتقار المخلوق لخالقه جل وعلا ، فإن أراد الصوفية تمجيد الفقر بالمعنى الأول ، وهو قلة ذات اليد ، فهذا خطأ على إطلاقه ، لأن الفقر نازلة تنزل بالعبد كغيرها من النوازل ، فمن صبر عليها وشكر نال الأجر والثواب . وكان فقره سببًا فى ارتقاءه أعلى الدرجات ، ولكن لا يقال هنا أن المحمود هو الفقر بل هو حسن الصبر عليه وعدم إظهار الضجر منه واحتساب ذلك كله عند الله ، وقد مدح الله هذا الصنف من الفقراء ،، فقال تعالى ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾[٣] فالممدوح فى هؤلاء الفقراء هو كونهم متعففون يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، وليس المحمود هو اتصافهم بالفقر مطلقًا ، كما قال بعض الصوفية ، وهذا أمر واضح لمن كانت له بصيرة .

وإن أرادوا تمجيد الفقر بالمعنى الثانى ، وهو افتقار المخلوق إلى خالقه هذا أيضًا لا يؤخذ على إطلاقة ، لأن جنس الافتقار موجود عند جميع المخلوقات سواء اعترفوا به أو لم يعترفوا به حتى الجماد والحيوان مفتقر فى خلقه واستمرار وجوده إلى خالقه.

١- الرسالة للقشيرى صـ٢٠٩

٢- إحياء علوم الدين للغزالى جـ٤ صـ ١٨٩ ط مكتبة زهران

٣- سورة البقرة آية ٢٧٣

فهذا الافتقار من حيث هو ليس بموضع مدح ولا ذم .

ولكن المحمود هو استشعار هذا الفقر وتذكر نعمة الله دائماً .

أما الكافر فلا يشعر بافتقاره إلى الله عز وجل فيطغى ويتكبر ، كما قال تعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾(١)

ولنأخذ مثالاً واحداً من حياة الصحابة رضى الله عنهم وهو « أبو هريرة رضى الله عنه » ـ الذى كان من أفقر الصحابة رضى الله عنهم حتى يربط على بطنه الحجر من الجوع ، ثم لما فتح الله الرزق على المسلمين تولى الإمارة فى عهد « عمر بن الخطاب »(٢) وإن كان توليه الإمارة لا يعنى أنه انكب على الدنيا انكباباً ، ولكن لا يدل على بقائه على حالة الفقر التى كان فيها . بل يدل دلالة على أن تلك الحالة كانت طارئة غير مطلوبة لذاتها ، أما شعوره هو وغيره من الصحابة بالإفتقار إلى الله عزوجل هذا مالا يحب أن يتخلى عنه المؤمن لحظة واحدة .

بل فى هذا سر الخشوع والطاعة التى تظهر على المؤمنين ، وتمتلئ بها قلوبهم .(٣)

* هل الفقير الصابر أفضل أم الغني الشاكر ؟

يقول ابن تيمية رحمه الله : إن الأغنياء والفقراء كانوا يستوون فى مقاعدهم عند النبى ﷺ ، وفى الاصطفاف خلفه فى الصلاة ، وفى غير ذلك من الأمور ، وأن من أغنياء الصحابة كعثمان وطلحة والزبير وسعد بن معاذ ونحوهم من له منزلة ليست لغيرهم من الفقراء (٤) .

وهذا هو العدل والقسط الذى جاء به الكتاب والسنة ، كم يراه الشيخ ابن تيمية ، ويحكيه عن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، والليث بن سعد وابن المبارك ومالك وأحمد ابن حنبل وغيرهم فى معاملتهم للأغنياء والفقراء (٥)

١- سورة العلق آية ٦ ، ٧

٢- أسد الغابة فى حياة الصحابة «ترجمة أبى هريرة»

٣- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ١١٤ ، ١١٥

٤- مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ١١ صـ١٢٥ و ١٢٦

٥- المصدر نفسه والصفحة

وليس هذا هو رأى الكثير من الصوفية ، فإن أكثر الصوفية يقررون أن الفقر مقام شريف ، وأن الفقراء أفضل من الأغنياء على كل حال ونحو ذلك [١]

وقال الشيخ ابن تيمية أيضًا : وهؤلاء الفقراء قد يكون فيهم من هو أفضل من كثير من الأغنياء ، وقد يكون من الأغنياء من هو أفضل من كثير منهم ، وقد تنازع الناس فى أيهما أفضل ؟ الفقير الصابر أو الغنى الشاكر ؟

والصحيح : أن أفضلهما أتقاهما ، فإن استويا فى التقوى استويا فى الدرجة ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع ، فإن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة لا حساب عليهم ، ثم الأغنياء يحاسبون ، فمن كانت حسناته أرجح من حسنات الفقير كانت درجته فى الجنة أعلى ، وإن تأخر عنه فى الدخول ، ومن كانت حسناته دون حسناته ، كانت درجته فى الجنة دونه »[٢]

ولقد نبه الشيخ إلى موقع الالتباس فى هذه المسألة فبين أن الزهد يكثر عند الفقراء فعلاً، وهذا ما دفع الناس إلى الاعتقاد بأن الفقر مقام شريف كما يدعون .والحقيقة أن الزهد يكثر فى الفقراء لأن من العصمة أن لا يجد المرء ما يدفعه إلى حب الدنيا ، ولكن الحقيقة عند الشيخ ابن تيمية أن الزهد عند الأغنياء، كما هو عند الفقراء ، بل هو عند الأغنياء أكمل منه عند الفقراء وإن كان عند الفقراء أكثر منه عند الأغنياء ، فليس للفقر أى مميزة على الغنى ، ولا شك أن هذا الذى قرره الشيخ ابن تيمية صحيح ، لأن الفقر ابتلاء ، وليس مقامًا من المقامات ، مثله مثل الغنى ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ .[٣]

هذا هو الحق الواضح ، وأنه لا فضيلة للفقر على الغنى ، وليس الفقر مقامًا من المقامات، كما زعمه كثير من الصوفية »[٤]

١- اللمع لأبى نصر السراج صـ٧٥.
٢- الصوفية والفقراء لابن تيمية صـ٣١ ، ٣٢.
٣- سورة الفجر ، آية ١٥ - ١٧
٤- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ١١٣ ، ١١٤ .

المقام الثانى: « الزهد »

ومما له صلة وثيقة بالمقام الأول « الفقر » هذا المقام وهو « الزهد » وهو من أهم المسائل فى التصوف .

إذ الفقر انزواء الدنيا عن الإنسان ، والزهد انزواء الإنسان عن الدنيا ، وعلى كل من الحالتين ، فالخير كله والسعادة والنجاة فى الانقطاع عن الدنيا والبعد منها ، وبغضها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات. (١)

يقول الإمام أبو نصر السراج : والزهد مقام شريف ، وهو أساس الأحوال المرضية والمراتب السنية ، وهذا أول ماقدم للقاصدين إلى الله عز وجل » (٢)

ويقول أيضًا: « فمن لم يحكم أساسه فى الزهد لم يصح له شئ مما بعده » (٣) ومن هنا يحب على الباحث فى التصوف أن يتبين الزهد الصحيح من الزهد الزائف حتى يكون الراغب فى التصوف (المريد) على بصيرة من أمره، فى الخطوة الأولى والأساس الأول ، فيتبين الصحيح من غيره .

فإن الزهد عند الصوفية أخذ صورًا متفاوتة فى البعد والقرب عن المنهج الإسلامى .فمن أقواله الحسنة فى ذلك قولهم : « الزهد عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف»(٤)وقولهم أيضا: « الزهد خلو القلب مما خلت منه اليد(٥) فهذا تصوير الزهد بمعنى حسن هو عدم اشتغال القلب بالدنيا والتكلف بها.

وأما ما يروونه من مبالغات فى هذا الشأن مثل قولهم عن أبي علي الدقاق « الزهد أن تترك الدنيا كما هي لا تقول ابنى رباطا أو أعمر مسجدا » (٦)

ومثل قولهم على لسان يحيي بن معاذ حين سأله رجل (متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك فى

١- الإحياء للغزالى جـ١٨٥ بتصرف.
٢- اللمع للسراج صـ ٧٢.
٣- نفس المصدر والصفحة .
٤- الرسالة للقشيرى صـ٩٤
٥- المصدر نفسه والصفحة.
٦- الكواكب للمناوى جـ٢ صـ١٨

السر إلى حد لو قطع الله الرزق ثلاثة أيام لم تضعف نفسك ، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ، ثم لا آمن عليك أن تفتضح »(١) فإن فى الرواية الأولى من المبالغة فى الزهد إلى حد ترك الخيرات وعمارة المساجد ونحو ذلك فلا يقتصر حد الزهد على ترك المعاصى أو المباحات ونحو هذا ، بل يصل إلى ترك الحسنات ، وهذا مذموم .

وفى الرواية الثانية دعوى من لم يبلغ من الجهد والمصابرة والصبر على الجوع مدة ثلاثة أيام مع عدم إظهار ما هو فيه من مشقة فإنه لا يبلغ حد الزهد وليس هذا بصحيح لأن الزهد يصدق على ترك القليل كما يصدق على ترك الكثير ولا يجب أن يشترط لتحققه مثل هذه الشروط القاسية(٢) .

رأي ابن تيمية في الزهد : يرى شيخ الإسلام « ابن تيميه » أن الزهد منه مشروع ومنه غير مشروع ، فالزهد المشروع (ترك مالا ينفع فى الدار الآخرة)(٣)

وأما ترك كل ما يستعين به العبد على طاعة الله ، فليس ذلك من الزهد المشروع(٤)

إذا فالإمام ابن تيمية يحدد : المعنى الصحيح ، خلافًا للمتطرفين من الصوفية الذين يغربون فى معنى الزهد ، ولا يضعون حدًا فاصلاً بين الزهد الصحيح المشروع وغير المشروع ، وفيه ربط للزهد المشروع ، كما يتبين أن ما ذكره ابن تيمية فيه وضوح لحقيقة الزهد ، وفيه ربط للزهد بغاية شرعية ، حيث يقول عنه إنه ترك ما لا ينفع فى الدار الآخرة فقد ربط الزهد بغاية شرعية وهى الإفادة فى الآخرة مع وضوح العبارة وعدم المبالغة الذين لا تجدهم فى عبارات المتصوفة السابقة ، ويشهد لما قاله ابن تيمية أولا : قوله تعالى ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾(٥)

١- الرسالة للقشيرى صـ٩٦ .

٢- موقف ابن تيمية صـ ١٢٠

٣- مجموع الفتاوى جـ١١ صـ ٢٨

٤- موقف ابن تيمية صـ ١٢٠

٥- سورة القصص ، آية ٧٧ .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١)

فالزهد الصحيح ليس هو تحريم ما أحل الله لعباده لنهى الشرع عن ذلك، لكنه امتناع شخص وعزوف من النفس عما لا يفيد فى الآخرة، فإذا ما اضطر الشخص إلى شىء مما امتنع عنه من المباحات لعدم توفر غيرها أقدم عليها وأخذ منها ما يفى بحاجته منها.

وهنا فرق كبير بين الزهد الصحيح الاسلامى، وبين الزهد الباطل. (٢)

هل يجوز أن نترك الدنيا لأعداء الإسلام باسم الزهد، وأن نبقى فى مؤخرة الصفوف، وذيل الأمم ونتزوى إلى الخلوات، والبعد عن الساحة والجهاد باسم الزهد؟

هل يجوز أن نعادى الدنيا بأسرها، ونتركها برمتها، ونجعل منها ضرة للآخرة؟

لا، ثم ألف لا ــ إن دين الإسلام يأمر بالإعتدال والتوسط فى كل شىء، فلا إفراط ولاتفريط، والإسلام بالنسبة للزهد فى الدنيا وسط بين جشع اليهود وإفراطهم فى حب الدنيا، وبين أهل الرهبانية من النصارى الذين فرطوا فى الأخذ بالأسباب وقعدوا عن العمل والاكتساب.

والزهد إذا كان فى حدود الاتباع فهو ممدوح فى الإسلام، ولذلك كان النبى ﷺ أول الزاهدين فى متاع الدنيا، وكذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وكثير من الصحابة.

ولم يكن زهدهم فيه إهمال الكسب والعكوف فى الأربطة لانتظار ما يجود به عليهم الناس، بل ـ كانت الدنيا تأتيهم فينفقونها فى وجوه الخير، ولم يكونوا يتركون الطيبات إلا حينما تتعذر عليهم، فإذا وجدت تمتعوا بها، وكان النبى ﷺ يحب النساء والطيب ويأكل اللحم ويصوم ويفطر، ويقوم وينام، ويعمل، ويجاهد، ويحكم بين

١- سورة الأعراف آية ٣٢

٢- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٢٠ .١٢١ بتصرف.

المسلمين ويعلمهم القرآن والخير» (١).

وقد أنكر النبى ﷺ على بعض أصحابه ما سمعه عنهم. من أنهم أرادوا الصيام دائماً والقيام كاملاً، واعتزال الزواج، فقام ﷺ وخطب فى الناس. وأعلن عن منهجه وشريعته، وبين أنه أتقى الناس وأعلمهم بالله، ومع ذلك فهو صلى الله عليه وسلم يصوم ويفطر، ويقوم وينام، ويتزوج النساء، ثم قال: «فمن رغب عن سنتى فليس منى»(٢)

«ووجد فى الأئمة زهاد على الطريقة التى كان عليها رسول الله ﷺ، وهذا الزهد الذي كان عليه الرسول ليس واجباً على المسلمين، بدليل أنه له يرد فى القرآن ولا فى السنة الأمر به» (٣) .

اللهم إلا مرة واحدة فى القرآن فى قوله تعالى- يقص شأن السيارة الذين باعوا يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٤)

فمعنى الزهد تحقير الشىء والتهوين من شأنه، في اللغة التى شرفها الله فنزل بها كتابه.

تأمل هذه الكلمات «بخس، ودراهم، ومعدودة» ثم تأمل ورود كلمة «الزاهدين» بعدها لتدرك جيداً حقيقة معناها (٥) .

وإن فى الزهد-الذى تزعمه الصوفية- ما يصرف الهمم عن الجد والسعى فى سبيل الخير للفرد وللجماعة، والاستعمار القديم والحديث يعمل لنشر هذه الخرافة فى الشرق، وحمل أهله على الإيمان بها، ليعيش أهله أذلاء النفس. مهزولى القوى، يرضون باللقمة الشاغبة من فتات المستعمرين، عالة على مستعبديهم، يجرعون المسكنة

١- حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة صـ ٢١و٢٢
٢- راجع الحديث بنصه فى الصحيحين
٣- حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة صـ ٢٢
٤- سورة يوسف، آية ٢٠
٥- هذه هى الصوفية صـ ١٦٧ و١٦٨ بتصرف

والصغار، أشباحًا هزيلة، وظلالاً كابية لركام من الجيف!! وقد صدق الشرق في أحقاب من تاريخه خرافة الاستعمار الصوفي، فهوى من قمة المجد والقوة والحرية إلى حضيض المهانة والعبودية !! نبئوني ماذا يحدث لو اتخذ كل مسلم من الزهد الصوفي شريعة له؟ !! سيكون المسلمون-وقد حدث-فريسة هينة سهلة، لكل ناب باغية، ومضغة محتقرة يمجها كل طاغية، وهذا هو هدف الاستعمار[١].

إن المسلمين الأوائل، لم يكونوا كذلك، وما عزفوا عن الدنيا ليتركوها لأهل الكفر، بل بنو السوق بجوار المسجد، يعبدون الله في المسجد، ثم يخرجون إلى السوق حتى لا يذلوا- يوما ما- لليهود، بتحكمهم في اقتصاد المسلمين، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢].

ورضى الله عن «عثمان بن عفان» و«عبد الرحمن بن عوف» و«الزبير بن العوام» وقد كانوا يشتغلون بالتجارة ويجمعون الأموال، ثم تنفق في وجهها وفي الشدة يعطونها للمسلمين، يجهزون الجيوش، ويسدون المجاعة، وكان الأنصار لهم بساتين يشتغلون بها، فلم يمنعهم النبي ﷺ عن ذلك، بل ورد في الحديث «نعم المال الصالح للمرء الصالح»[٣] ودعا ﷺ لخادمه أنس بن مالك وكان في آخر دعائه «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له»[٤].

أما زهد الصوفية-فهو ترك التكسب من الحلال والعمل النافع والعكوف في الأربطة لانتظار ما يجود به الناس أو التكفف والاستجداء أو غشيان الحكام والتجار والتدجيل عليهم، ومدحهم لينالوا من فتات موائدهم وكذلك التكلف في الظهور بمظهر الفاقة في ملابسهم بلبس المرقعات البالية إظهاراً للتزهد والصلاح والولاية،

١-المصدر السابق صـ١٦٨ بتصرف

٢- سورة الجمعة، آية ١٠

٣- رواه أحمد بسند صحيح

٤- صحيح البخاري.

وبعضهم قد يكون صادقًا فى تقشفه، فيمكث الأيام الكثيرة لايأكل أو يأكل الخبز اليابس بالملح وهو قادر على أن يأكل من الطيبات مخالفًا لسنته ﷺ وقد قال «فمن رغب عن سنتى فليس منى» (١).

وقد كان النبى ﷺ يأكل اللحم ويحب الذراع من الشاة.

وبعض الصوفية يبالغ فيما يضره فقد يأكل بعضهم الرماد والتراب، ويتعمد شرب الماء العكر ويجتنب الماء الصافى والبارد، بحجة أنه لايستطيع أن يؤدى شكره، وهذه حجة واهية، فهل إذا ترك الماء البارد يكون قد أدى الشكر لله على بقية النعم؟ كالبصر والسمع والصحة وغير ذلك؟ بل من يفعل ذلك فهو آثم. (٢)

لأنه فعل ما يضر بجسمه ويؤدى به إلى الهلاك، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٣)

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (٤) وقد أباح للمسلم أن يفطر فى رمضان إذا كان مسافرًا أو مريضًا رحمة بنا فلله الحمد والمنة (٥)

وكان صلى الله عليه وسلم ينهى عن الوصال، كما كان يأمر أصحابه بالفطر فى مواطن الجهاد، ليكون ذلك أقوى لهم، فأين هذا مما تفعله الصوفية؟ !! وما هى عليه الآن هو أعجب !!

فقد كان التقشف المشار إليه فى أوائل المتصوفة، أما المتأخرون فصارت همتهم المأكل والشرب.

يقول ابن الجوزى فى «تلبيس إبليس»- بعد أن انتقد الصوفية فى تقشفهم وخروجهم عن الإعتدال فى الزهد إلى حد تعذيب أنفسهم، ثم قال: «وهذا الذى نهينا عنه من التقليل الزائد فى الحد قد انعكس فى صوفية زماننا-أى فى القرن السادس-فصارت

١- متفق عليه
٢- حقيقة الصوفية صـ ٢٢و٢٣ بتصرف
٣- سورة النساء، آية ٢٩
٤- سورة البقرة آية ١٨٥
٥- حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة صـ ٢٣

همتهم فى المأكل كماكانت همة متقدميهم فى الجوع؛ لهم الغذاء والعشاء والحلوى وكل ذلك أو أكثره حاصل من أموال وسخة، وقد تركوا الكسب فى الدنيا وأعرضوا عن التعبد وافترشوا فراش البطالة، فلا همة لأكثرهم إلا الأكل والشرب واللعب» (١)

وما حكاه ابن الجوزى هو حال صوفية زماننا هذا، بل زادوا عليه أضعافًا حتى صار زهدهم اليوم يصل إلى اغتصاب مال اليتيم والمسكين!! أيحسب زاهدًا من يسلب مال اليتيم؟!! أيحسب قانعًا من يغتصب قوت المسكين؟!! ليتخم به بطونًا تشكو البطنة!! ومن يغصب الفتات من الغارمين، ثم يأكله نارًا؟!! أو يجعله عمامة لضريح، أو طعمة لدراويش، أو ثمنًا لحشيش الذاكرين!!

أو ذلك التكالب الضارى على سحت الأضرحة، أنظر إلى من حولها، وأرنى فيهم من يمسه الزهد! (٢)

* إن من أعظم ما أحدثته الصوفية هو التفرقة بين الدنيا والآخرة، والعزوف عن الدنيا تمامًا مع أن الإسلام يَعُدُ الدنيا مزرعة الآخرة، فيصل بين الدنيا والآخرة برباط لاينفصل، يعمل للدنيا والآخرة فى نفس اللحظة، لم تكن الدنيا قط فى حِس المسلمين الأوائل-بالنسبة للآخرة كمعسكرين متناقضين، إما أن تسلك طريق الدنيا وتنبذ الآخرة، وإما أن تسلك طريق الآخرة، وتنبذ الدنيا، ولكن الصوفية صنعت ذلك، فجعلت من الدنيا والآخرة معسكرين متقابلين متضادين متنازعين، إما أن تعمل لهذه، وإما أن تعمل لتلك، وعندما توضع القضية على هذا النحو، فأيهما أغلى وأيهما يجب أن يحرص عليه، الدنيا أم الآخرة؟

الآخرة بطبيعة الحال، وبهذا الفهم الخاطئ أهملت الدنيا إهمالاً كاملاً فى زعمهم، ليتقربوا إلى الله، وتركوا كل ما يتصل بالدنيا من العلوم والتقدم والأخذ بأساليبه، والزراعة والصناعة، وعلوم الأرض كلها.

١- تلبيس ابليس لابن الجوزى صـ ٢٢٢ ط المتنبى

٢- هذه هى الصوفية صـ ١٧١ بتصرف

وحين فعل المسلمون ذلك حل بهم التأخر والجهل والفقر والضعف، وكان الأعداء بما تعلموه من علوم المسلمين تقدموا، ثم غاروا على بلاد المسلمين، يسلبونهم خيراتهم، ويحتلونهم، ويدنسون عقائدهم. !! (١)

* * *

١- عقبات في طريق الدعوة، بصوت الشيخ محمد قطب.

* المقام الثالث : (التوكل)

تعريف التوكل: عرف الإمام الغزالى التوكل فقال: التوكل مشتق من الوكالة، وهو عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده» [١] وعرفه الإمام ابن القيم فقال:

«والتوكل: حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله عز وجل والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير، والضر، والنفع، والعطاء، والمنع، وأنه ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، ومالم يشأ لم يكن وإن شاء الناس» [٢]

فمما تقدم يتضح لنا أن التوكل ليس هو نفس الإيمان بالقضاء والقدر، بل التوكل ثمرة هذا الإيمان ونتيجته. ولهذا فإن التوكل عقيدة تقترن بالعمل. فحين يعزم المرء على عمل ما وقد آمن بالقضاء والقدر يجد فى نفسه اعتماداً على الله عز وجل واستعانه به على انجاز ذلك العمل، وعدم خوف أو رهبة من غيره، لأنه يعلم أن غير الله عز وجل لايملك له ضراً ولانفعًا قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾[٣]

* التوكل: دلالة الكتاب والسنة عليه:

لقد أشار القرآن الكريم إلى التوكل كمبدأ إسلامى عظيم، ورفع من شأن المتوكلين فى كثير من الآيات الكريمة»

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[٤] وقرن التوكل بالإيمان المقبول عنده، قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[٥] وبين منزلة المتوكلين عنده، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾[٦] والقرآن ملئ بالحث على التوكل والإشادة بمن صدق من المتوكلين- وفى الحديث الشريف عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل

١- إحياء علوم الدين للغزالى جـ٤ صـ ٢٥٩
٢-مدراج السالكين لابن القيم جـ١ صـ٨٢
٣- سورة يونس، الآية ٤٩
٤- سورة الطلاق، آية ٣
٥- سورة يونس الآية ٨٤
٦- سورة آل عمران آية ١٥٩.

الجنة من أمتى سبعون ألفًا بغير حساب، هم الذين لا يسترقون ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» (١)

* المغالاة في التوكل عند بعض الصوفية :

لقد بين بعض أئمة التصوف أن التوكل مقام ينتظم ثلاثة أشياء : علم، وحال وعمل.

فالعلم هو الأصل، والعمل هو الثمرة، والحال هو المراد باسم التوكل. وقد ذكر هذا التفصيل الغزالي فى الإحياء (٢)

ولكن بعض الصوفية أثر عنهم عبارات غامضة لايفهم منها إلا تفسيرهم للتوكل بأنه أمر متناف مع العمل أو هو عمل سلبى أكثر من أى شىء آخر.

فمن ذلك قولهم: (التوكل أن يكون العبد بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء لايكون له حركة ولاتدبير) (٣)

فالتوكل عندهم يتعارض مع العمل، وإن كانوا لايخرجون غير المتوكل من عموم المؤمنين. ولكنهم يرون أن التوكل درجة يلتزم بها من يستطيعها من الصوفية بالطريقة السلبية المذكورة آنفا، وإن لم يستطع أن يلتزمها يجوز له الاتجاه إلى العمل والتكسب ولكنه فى هذه الحالة لايكون فى عداد المتوكلين.

توضح هذه الفكرة عند الصوفية النصوص التالية التى وردت فى الرسالة القشيرية

١- روى عن أبى تراب النخشبى أنه نظر إلى صوفى مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له : لا يصلح لك التصوف، إلزم السوق» (٤)

٢- قال بعضهم : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام : أنا جائع، فألزموه بالسوق ومروه بالعمل والكسب» (٥)

١- أخرجه البخارى ، كتاب الدعوات-جـ٤ صـ ١٢٥

٢- الاحياء لغزالي جـ٢ صـ ٢٤٥

٣- الرسالة للقشيرى صـ ١٢٩

٤- الرسالة للقشيرى صـ ١٣٤

٥- نفس المصدر والصفحة.

* والحق أنه لاتنافى بين التوكل ومزاولة العمل والتكسب، ونحو ذلك فقد أمر الله تعالى بالعمل كما أمر بالتوكل ولايمكن أن يأتى فى الكتاب الكريم والتشريع الإلهى العظيم ما فيه تناقض.

فإن الشخص إذا عمل يصح أن يشعر بأحد أمرين: إما أن يعمل ويعتقد أن العمل هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى النتائج. وإما أن يعمل ويعتقد أن العمل أمر دعا الله إليه، ولكنه لايوجب شيئا من النتائج بذاته. إنما النتيجة وحصولها مرهونة بإرادة الله وحده.

فالعامل فى الحالة الأولى غير متوكل على الله، إنما هو متوكل على عمله بحيث يعتقد أنه بجهده الخاص يستطيع أن يجلب لنفسه الخير ويبعد عن نفسه الشر وأن ذلك من ثمرات عمله الأكيدة، فهو بهذا يتجاهل حقيقة القضاء والقدر التى شملت كل حركة وسكون فى الكون، فليس فى الكون حركة ولا سكون إلا بتقدير الله عز وجل وتسهيله وتوفيقه، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وقد لاحظ الناس أن مثل هذا العامل كثيراً ما ينتج له عمله عكس ما ينتظره من نتائج وأنه يبوء فى النهاية بسوء العاقبة.

أما العامل فى الحالة الثانية: يعمل وهو لايعتقد أن العمل وحده هو المؤثر، إنما العمل أمر مطلوب منه شرعا، فهو يعمل امتثالاً لما أمر الله به من مباشرة للعمل. قال تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾(1) وقال أيضا ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (2).

فبهذا يكون قد جمع بين الإيمان بالقضاء والقدر وإيكال النتائج إلى الله عز وجل، وبين تنفيذ ما أمر الله به من العمل.

* وبهذا يتضح أن عقيدة التوكل عقيدة عملية وليست عقيدة سلبية. وأن العاملين صنفان : صنف غير متوكل، وصنف متوكل. أما من ترك العمل اطلاقا فهذا لم يفهم التوكل على وجهه الصحيح. ألا ترى أن من يملك أرضًا ويريد أن يحصل منها نتاج

١- سورة الكهف، الآية ١١٠

٢- سورة التوبة، آية ١٠٥

زراعى يحتاج إلى حرث الأرض وريها، وهكذا من سائر أعمال الفلاحة، فلو قعد فى بيته وهو لا يعمل شيئا ودعى الله تعالى أن يأتيه بالنتائج والمحاصيل الزراعية إلى بيته فهل يقر هذا الشرع أو العقل؟ إذًا فلابد للحصول على النتائج أن يذهب إلى الحقل فيشقه ويزرعه كما يشق الناس أرضهم ويزرعونها، ويتوكل على الله فى النتائج، فهذا هو الذى يقره الشرع والعقل، وهذا هو التوكل الحق.

وأخيرا نقول: إن الشريعة قررت فى جوهرها وكلياتها وجزئياتها وجوب العمل بالاضافة إلى ما أمرت به من لزوم الاعتماد على الله عز وجل فى النتائج والعواقب بالتوكل الصادق عليه» (١)

* بحث في قاعدة التوكل للمؤمنين :

لقد أثار الإمام ابن تيمية بحثًا طريفًا مفيدًا غاية الفائدة فى موضوع التوكل، يهدف هذا البحث إلى الدعوة إلى زيادة التمسك بالتوكل من قِبَلِ المؤمنين.

وموضوع هذا البحث هو الرد على الشبهة التى قد ترد فى ذهن بعض الناس فى أن التوكل لايستفاد منه بشىء فى تغيير ما قدر على المرء من خير أو شر وشقاء أو سعادة.

ويبين الشيخ ابن تيمية أن التوكل له فائدة عظمى لاتتحقق بدونه، يقول ابن تيمية : «وقد ظن طائفة ممن تكلم فى أعمال القلوب أن التوكل لايحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة. بل ما كان مقدوراً بدون التوكل فهو مقدر مع التوكل، ولكن التوكل عبادة يثاب عليها من جنس الرضا بالقضاء» (٢)

ويرد الشيخ على القائلين بذلك فيقول: (فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلا) علم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لايحتاج معه إلى غيره فى جلب المنافع ودفع المضار» (٣)

ومعنى ذلك أن الشيخ يرى أن التوكل أمر مختص بمن استعمله دون غيره، وإذا كان كذلك فكيف يكون حال من استعمله كحال غيره مع ما تقدم من تخصيص الله

١- موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ١٢٥-١٢٨

٢- مجموع الرسائل لابن تيمية صـ ٧٨

٣- نفس المصدر صـ٩٢ .

عز وجل للمتوكل بأنه سيكفيه فى جلب المنافع ودفع المضار ما لايكفى فيه غيره.

ويقرن الشيخ هنا بين التوكل والدعاء فى مسألة الاختصاص بالمنفعة فإن التوكل كالدعاء يختصان بمن يستعملها ولابد لمن استعملها من حصوله على منافع مختصة به دون من لم يستعملها.

يقول الشيخ موضحًا ذلك: (فلا يقال هو حسب غير المتوكل كما هو حسب المتوكل لأنه علق هذه الجملة تعليق الجزاء على الشرط. فيمتنع فى مثل ذاك أن يكون وجود الشرط كعدمه)(١)

ثم من الأدلة التى استدل بها الشيخ ابن تيمية على ما قدمه ما جاء فى القرآن الكريم من ترغيب فى التوكل. فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية ما لايحصل لغيره لم يكن ذلك مرغبًا فى التوكل (٢)

وفى تفسير قوله تعالى :﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٣) ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٤)

يبين الشيخ أن الحسب أمر مختص لامشترك، والتوكل سبب ذلك الاختصاص، والله تعالى إذا وعد على العمل بوعد أو خص أهله بكرامة فلابد أن يكون وجود ذلك العمل وعدمه فرقًا فى حصول تلك الكرامة، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٥)

فهذه الآية عقبت الجزاء والحكم على الوصف والعمل بحرف الفاء، وهى تفيد السبب فدل ذلك على أن ذلك هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل وأن هذا الجزاء على ذلك العمل. (٦)

١- مجموع الرسائل لابن تيمية صـ ٨٨.
٢- نفس المصدر والصفحة.
٣- سورة الزمر، آية ٣٨
٤- سورة الطلاق، آية ٣
٥- سورة آل عمران، آية ١٧٣، ١٧٤
٦- جامع الرسائل لابن تيمية صـ ٩٠

* الخلاصة : وخلاصة القول فى التوكل أن التوكل اعتقاد وعمل. فالاعتقاد هو أن الله عز وجل هو المالك والمتصرف الحقيقى فى الكون وحده وأنه هو الرازق، وهو النافع الضار وهو المحيى المميت وأنه لا أحد يملك فى هذا الكون مثقال ذرة ولا أقل من ذلك ولايملك أن يتصرف فى شىء منها من عند نفسه مالم يأذن الله فى ذلك وييسره له. قال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [1]

وهذا الاعتقاد يورث فى نفس صاحبه الثقة والقوة فى النفس فينطلق إلى ما يريد من أعمال وهو واثق كل الثقة من أن أمره بيد الله عز وجل وحده، وأن أحدا لايستطيع أن يضره ولا أن ينفعه إلا بإذن الله. وفى الحديث « من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله» [2]

فالتوكل يعطى المؤمن الجرأة على العمل. وكل من توكل على الله فى شىء من أمور دينه ودنياه كان أحرى أن يقدم على ذلك العمل بلا تهيب ولاتردد. وكان أجدر أن يحصل على ثمرة ذلك العمل. [3]

***

١- سورة الليل، الآية ٥-١٠

٢- فيض القدير للمناوى صـ ١٤٩ عن ابن عباس رضى الله عنهما.

٣- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٢٩-١٣١

* المقام الرابع : (التوبة)

التوبة فى اللغة الرجوع عن الذنب، وهى عند الفقهاء ندم وإقلاع وعزم أن لايعود وقد اتفقت أقوال العلماء على أن التوبة من أول المقامات الحميدة التى يعرفها السالك.

* ولكن هل مقام التوبة مقام عابر يمر به السالك ثم ينتقل عنه إلى غيره من المقامات؟ أو مقام يستمر مع السالك طول عمره؟.

قال بعضهم بالأول، وقال غيرهم: إن التوبة هى أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد السالك ولايزال فيها إلى الممات، وإن انتقل إلى مقام آخر انتقل بها واستصحبها[١].

ودليل أصحاب هذا الرأى الأخير، أولا: أن الله عز وجل خاطب أهل الإيمان وخيار خلقه بقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢] فهذه الآية من سورة مدنية هى سورة «النور» وقد خاطب الله فيها عباده بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم. فهذا يعنى أن التوبة تستمر مع المؤمن طول حياته مهما عمل من أعمال صالحة.[٣]

ثانيا : أن قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٤] فهذه الآية قد قسم الله عز وجل فيها العباد إلى تائب وظالم فقط، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب.

فهذا يعنى أن كل مؤمن تائب، وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فو الله إنى لأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[٥]

وكل ذلك دليل على استمرار التوبة[٦].

١- مدارج السالكين لابن القيم جـ ١ صـ ١٣٨
٢- سورة النور، آية ٣١
٣- مدارج السالكين لابن القيم جـ ١ صـ ١٧٨
٤- سورة الحجرات، آية ١١
٥- رواه البخارى ومسلم .
٦-مدارج السالكين لابن القيم جـ١ ص ١٧٨.

مناقشة الأدلة :

ويصح أن يناقش أصحاب هذا الرأى فى أدلتهم المذكورة السابقة :-

أولا :

أن قوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ليس فيه مطالبة باستمرار التوبة ولكن فيه مطالبة بفعل التوبة، وهذا واجب على من يرتكب ما يوجب التوبة من المؤمنين، فإن تاب عن ذنبه تكفيه توبة واحدة، ولا يطالب بسواها عن نفس الذنب، فإن عاد إلى الذنب أو ارتكب ذنبًا آخر وجب أن يتوب عن هذا الأخير توبة جديدة، وحيث إن هذا الخلاف فى التوبة من حيث هى مقام يجتازه المرء إلى ما بعده أو يستمر معه

فالاعتراض هنا أن من تاب لايعود إلى ما تاب عنه مطلقًا ، وبهذا تكون التوبة بالنسبة له مقاماً عابرا يجتازه إلى ما بعده.

أما من عاد إلى الذنب نفسه فهو لم يحكم مقام التوبة من البداية فليس معنى هذا أن مقام التوبة مستمر معه، والآية ليس فيها معنى استصحاب التوبة، ما لم يتحقق ما يوجبها.

ثانيا :

أن الاستشهاد بقوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ بتقسيم العباد إلى تائب وظالم لا ثالث لهما، فهذا صحيح من حيث هو ولكن ليس فيه ما يدل على أن التائب هو كثير التوبة، بل يصدق على المرء اسم تائب ولو تاب مرة واحدة ولم ينقض توبته. ومع هذا فإن كثير التوبة يصح أن تكون توباته هذه من ذنوب متعددة.

أما حديث «فو الله إنى لأتوب فى اليوم أكثر من سبعين مرة» فإن التوبة هنا يحتمل أنها بمعنى الاستغفار، فقد ورد نفس الحديث فى كتاب الزهد لابن حنبل بلفظ «إنى لاستغفر الله عز وجل وأتوب إليه كل يوم مائة مرة» (١)

---

١ -كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل صـ٧.

فيمكن أن يكون معنى التوبة فى الحديث الإستغفار، والإستغفار يجوز تكراره بالنسبة للذنب الواحد قدر المستطاع لأن حاصله طلب المغفرة وصاحبه لايدرى هل غفر له أو لا؟

أما التائب فأول ما يجب عليه فى التوبة الإقلاع عن الذنب ثم الندم وعزم أن لا يعود، فتكرار التوبة عن ذنب واحد معناه أنه لم يقلع عن ذلك الذنب، أى لم تصح توبته الأولى.

وإن قيل إن صاحب التوبة لايعلم قبولها أيضًا، فالجواب أن التائب غاية ما يملكه هو الإقلاع عن الذنب والندم عليه وعزم أن لايعود. فإن حقق ذلك صح له أن يطلب من الله قبول توبته تلك، لا أن يكرر التوبة نفسها.

هذا وبعد أن تبين لنا إمكان الرد على أصحاب هذا الرأى يمكننا أن نجمع بين القولين السابقين من حيث الملحظ الذى لحظه كل فريق فاختار له الحكم المناسب، فإن التوبة كما تقدم تتكون من ثلاثة عناصر، أولها الإقلاع عن الذنب، والثانى الندم عليه، والثالث عزم أن لايعود.

فمن لاحظ العنصر الأول فى التوبة وهو الإقلاع عن الذنب أو العنصر الثالث وهو عزم أن لا يعود، قرر أن التوبة عن الذنب الواحد إن كملت لاتتكرر لما تقدم بيانه فى النقاش السابق.

ولأن العزم يكون مرة واحدة، فإن بقى سلمت له التوبة، وإن انفسخ وقع صاحبه فى ذنب ثان، عليه أن يتوب منه وليس من الذنب الأول، ولادليل على انفساخ العزم إلا وقوعه فى ذنب جديد. أما من لاحظ العنصر الثانى وهو الندم على الذنب السابق فهذا له أن يقول: إن التوبة تصاحب المرء طول حياته إذ قد يستمر مع المرء عنصر الندم فيظهر عليه الإنكسار والذل لله تعالى أكثر من غيره ويستمر ذلك معه طول حياته.

وبهذا يمكن الجمع بين القولين، كما يمكن أن يقال إن استمرار مقام التوبة عند الشخص الواحد يحتمل أمرين. الأول: أن يبقى مستغرقًا فى توبة واحدة عن ذنب واحد. والثانى: أن يتوب دائمًا من كل ذنب له فلا يفتأ تائبًا طول حياته.

والراجح أن مقام التوبة مستمر وإن كانت كل توبة بعينها منفصلة عن الأخرى، وذلك لأن ابن آدم لايخلو من الذنب أو الغفلة أو التقصير فى الواجبات.

ولقد مدح الله تعالى من يكثر من التوبة من عباده، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١)

وليس معنى هذا أن الاستمرار فى مقام التوبة يمنع الانتقال إلى المقامات الأخرى، لأن مقام التوبة هنا معناه الاستعداد للتوبة من أى ذنب يستجد، وليس هو الاستغراق فى توبة واحدة والانشغال بها عن غيرها من العبادات. (٢)

هل التوبة تقتضى نسيان الذنب ؟

للصوفية بحوث فى التوبة امتازوا بها فى مصنفاتهم، منها بحثهم فى التوبة، هل تقتضى من التائب نسيان الذنب؟ أو دوام تذكره؟

قال أبو طالب المكى: «أما نسيان الذنوب وذكرها فقد اختلف قول العارفين فى ذلك، فقال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك» (٣)

وقد عرض لهذا البحث القشيرى فى رسالته فقال : (سمعت الجنيد يقول: دخلت على السرى (*) يوما فرأيته متغيرا فقلت له: مالك؟ فقال: دخل علىّ شاب فسألنى عن التوبة، فقلت له: أن لاتنسى ذنبك، فعارضنى وقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقلت- والكلام للجنيد: إن الأمر عندى ما قال الشاب، قال: لمَ؟ قلت: لأنى إذا كنت فى حالة الجفاء فنقلنى إلى حال الوفاء، فذكر الجفاء فى حال الصفاء جفاء، فسكت)(٤)

ونستنتج من هذه القصة أن «الجنيد» يرى أن العبد بعد أن يتوب من الذنب ويستقيم أمره مع الله، حتى يغدق عليه من النعم والفضائل ويمنحه من درجات القرب

١- سورة البقرة، آية ٢٢٢

٢- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ١٣٥-١٣٨

٣- قوت القلوب لأبى طالب المكى جـ ١ صـ ٣٧١

(*) هو سرى السقطى خال الجنيد بن محمد البغدادى

٤- الرسالة للقشيرى صـ ٧٩

والولاية ما يشاء فلا حاجة له بعد ذلك فى ذكر الذنب لأنه كان عند ارتكاب ذنبه فى حالة جفاء مع ربه، ثم تحول بعد التوبة إلى حالة الوفاء والقرب، فلا حاجة إلى ذكر الحال الأول، لأنها تعكر عليه ما هو فيه من لذة الحالة الثانية.

فذكر الذنب أو عدم ذكره متوقف على درجة قرب المذنب بعد توبته من ربه، فإن كان يحتمل أن يعود إلى الذنب مرة أخرى إذا نسى ذنبه وندمه عليه، فهذا الأوفق فى حقه أن لاينسى ذنبه، حتى يشعر دائمًا بالتقصير فى جانب الله بالخجل من ذنوبه السابقة فلا يعود بمثلها.

وأما الذى انتقل إلى جانب الطاعة والتلذذ بها حتى شعر بالسعادة فيها، فالأوفق له أن لايذكر ذنبه حتى لا يذكر ما يؤلم نفسه بشعوره بما كان منه حال ارتكابه للذنب.

هذا ما أحسب أن «الجنيد» من انتصاره لرأى الغلام فى أن التوبة هى أن ينسى ذنبه، بدليل تعليله السابق ذلك الرأى بقوله ، «لأنى إذا كنت فى حالة الجفاء فنقلنى إلى حال الوفاء، فذكر الجفاء فى حال الصفاء جفاء».

ولاشك أن هذا المعنى الذى يهدف إليه الجنيد صحيح، ولكن ربما كان هناك تفسير آخر لمعنى قول الشاب «بل التوبة هى أن تنسى ذنبك» أدق من هذا الرأى الذى ذهب إليه الجنيد. وذلك أن ذكر الذنب ونسيانه ليس هو المراد هنا.

بل المراد هو الوقوف عند مقام التوبة والندم. وهو ما عبر عنه بذكر الذنب، أو عدم الوقوف عند هذا المقام وتجاوزه إلى مقامات أخرى وهو ما عبر عنه بنسيان الذنب، وقد تقدم بحث هذا الموضوع من هذه الناحية فى أول هذا المقام»[1].

ما يجب التوبة عنه :

لقد جرى خلاف بين الصوفية وغيرهم فى مسألة ما يجب التوبه عنه، فمن ذلك ما قد حدث من اختلاف بعض الصوفية وبين الشيخ ابن تيمية.

فالصوفية يتوسعون فيما يجب التوبة منه، كالتوبة من الغفلة والتوبة من رؤية

١-موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ١٢٩ ، ١٤٠

الحسنات ونحو ذلك، ورد فى الرسالة القشيرية «تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات» [١]

التوبة من الغفلة :

يرى الصوفية أن الغفلة مما يجب أن يتاب عنه، وذلك لما ورد من ذم الغفلة فى مثل قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [٢]

والتحقيق أن الغفلة ليست ذنبًا مطلقاً، بل الغفلة غفلتان :

١- غفلة الكافرين، وهذه هى المذكورة فى الآية السابقة، وهى غفلة عن آيات الله تعالى التى تنادى بالإيمان به، وقد ورد ذكرها فى عدد كبير من الآيات الدالة على أنها مختصة بالكافرين، كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[٥] فهذه كلها غفلة من الإيمان والعقيدة الصحيحة وهى كفر صريح.

٢- غفلة المؤمنين، وهذه تدخل فى عموم ما رفع عن الأمة من الخطأ والنسيان وليس فيها إنكار ولاتكذيب بآيات الله، فالتوبة منها ليست فى درجة التوبة من الذنوب والكبائر.

وقد وردت آيات كثيرة تشير إلى أن الغفلة قد لاتكون ذنبًا فى حد ذاتها، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [٦] ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[٧]

١- الرسالة للقشيرى صـ ٨٠
٢- سورة الأعراف، الآية ١٤٦
٣- سورة يونس، الآية ٧،٨
٤- سورة الروم ، الآية ٧
٥- سورة الأعراف، الآية ١٣٦
٦- سورة الأنعام، الآية ١٣١
٧- سورة النور، الآية ٢٣.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[١] فهـذه الآيات تدل على أن الغفلة ليست ذنبًا فى حد ذاتها الا أن تكون غفلة مقصودة كما هى عند الكافرين، فقول الصوفية بأن من درجات التوبة درجة هى التوبة من الغفلة فيه إشعار بأن الغفلة عند المؤمنين إلا أنها لاتعتبر من الذنوب إذا لم تكن غفلة مقصودة كما أسلفنا ولاشك أن التعبير عن يقظة المؤمن وحرصه على وقته بهذا الأسلوب هو تعبير مبالغ فيه.

الخــلاصة :

وخلاصة ما يقال فى التوبة من الغفلة، أن الصوفية إن أرادوا بذلك اعتبار الغفلة من الذنوب التى يجب التوبة منها كالزنا وشرب الخمر وغير ذلك فهذا غير مسلم به.

وإن أرادوا بذلك التعبير عن شدة حرص المؤمن على وقته وعدم تطرق الغفلة إليه، حتى إنه يعتبر الغفلة كالذنب سواء بسواء، فهذا تعبير جميل على ما فيه من المبالغة»[٢].

التوبة من رؤية الحسنات :

ربما يكون موضوع التوبة من رؤية الحسنات من الموضوعات التى لاتخطر ببال كثير من الناس، ولكن الصوفية لم يفتهم التكلم فى هذا الموضوع، بل لقد وجد فى عهد الشيخ ابن تيمية من قال بالتوبة من الحسنات نفسها وليس من رؤيتها فقط، بدليل أن الشيخ ابن تيمية قال مبينًا رأيه فى هذا الموضوع: «إن التوبة من الحسنات ضلال وجهل، بل قد يصل الأمر إلى حد الكفر، إن كانت الحسنة التي سيتوب عنها مما يعد تركه كفرًا، كالإيمان والعبادات المفروضة»[٣].

فهذا يدل على أنه وجد من يقول بهذا الرأى فى عصر الشيخ، ولقد استطرد الشيخ بشىء من التعمق فى هذا الموضوع، فأجاز التوبة مما كان يظنه الظان من الحسنات وهو ليس كذلك.

١- سورة يوسف، الآية ٣

٢- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٤١و١٤٢

٣- جامع الرسائل «رسالة التوبة» صـ ٢١٩

وذلك على حد قول الشاعر :

إذا محاسنى اللاتى أدل بها كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر [١]

وكذلك يقرر الشيخ ابن تيمية أن مما يتاب عنه فى مجال الحسنات ما يعده المرء حسنات له، وهو مقصر فى فعله أو خائف من تقصيره فى فعله إياها، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [٢]. وقد بين الحديث معنى هذه الآية حين سألت السيدة عائشة أم المؤمنين «رضى الله عنها» النبى «ﷺ» عنها قائلة : أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال: لا يابنت الصديق ولكنه الرجل يصلى، ويصوم، ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه» [٣].

فمثل هذا يتوب مما يتوقعه من تقصير فى تلك الحسنات، أو بعبارة أخرى يتوب من الحسنات التى يرى أنه كان مقصراً فى أدائها على الوجه الأكمل.

وهذا شبيه بما تقدم من قوله بجواز التوبة مما كان يظنه الظان من الحسنات وهو ليس كذلك، إلا أن الفرق بينهما واضح.

رأي الصوفية

سبق أن عرفنا أن الصوفية قالوا بأن من درجات التوبة: درجة عليا هى التوبة من رؤية الحسنات، وهذه عبارة دقيقة وجيدة يمكن أن يفهم منها أن التائب من رؤية الحسنات هو الذى يفعل الحسنات، ولكنه لايرى مع ذلك أنه فعل شيئًا، بجانب ما هو واجب عليه تجاه مولاه من جهة، وبسبب ما يلاحظه من توفيق الله عز وجل له لعمل ذلك على يديه فلا يرى لنفسه حقا فى نسبة تلك الحسنات إليه.

فهذا كله حسن وواضح، إلا أن الصوفية يتمسكون أيضا بعبارة تقول :«ذنوب

١- المصدر نفسه والصفحة .

٢- سورة المؤمنون، الآية ٦٠.

٣- جامع الرسائل لابن تيمية صـ ٢٥٦.

المقربين حسنات الأبرار» (١) وهذه العبارة غير واضحة المعنى، وقد علق الشيخ ابن تيمية على هذه العبارة فى كتبه فنبه أولا إلى أن هذا اللفظ ليس محفوظا عمن قوله حجة، فلا هو مروى عن النبى ﷺ ولا عن أحد من سلف هذه الأمة وأئمتها.

ثم يبين الشيخ أن هذه العبارة قد تحمل معنى صحيحًا، وقد تحمل معنى فاسدًا.

أما المعنى الصحيح فله وجهان، أحدهما : أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات، وهذا الاقتصار سيئة فى طريق المقربين ، ومعنى كونه سيئة هو أنه يخرج صاحبه عن مقام المقربين فيحرمه درجاتهم . (٢)

والثانى : أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسنا منه، إما واجبًا وإما مستحبًا، لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك، بل يؤمر بما هو أعلى منه.

فلو فعل هذا ما فعله الأول لكان ذلك سيئة. ومثل الشيخ ابن تيمية لذلك بمثال فقال: إن العامى يؤمر بمسألة العلماء والمأمورين فى الإسلام بالرجوع إليهم بحسب قوة إدراكه، وإن كان فى ذلك تقليدهم.

أما العلماء القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال بها، فلو تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامى لكانوا مسيئين بذلك . (٣)

ثم حذر الشيخ من المعنى الفاسد لهذه العبارة، وهو أن يظن الظان أن الحسنات التى أمر الله بها أمرًا عامًا يدخل فيه الأبرار ويكون بالنسبة للمقربين من السيئات.

كأن يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل عليه، وإخلاص الدين له ونحوذلك هما فى حق المقربين من السيئات، فهذا قول فاسد غلا فيه قوم من الزنادقة المنافقين المنتسبين للعلماء والعباد» (٤)

١- اللمع لأبى نصر السراج صـ ٦٨
٢- جامع الرسائل لابن تيمية صـ ٢٥١
٣- نفس المصدر صـ ٢٥٥
٤- نفس المصدر والصفحة.

هذا وإن فى كلام الصوفية عبارات توهم أنهم يجيزون التوبة من الحسنات، فمن ذلك قول رويم بن أحمد « عن التوبة أنها هى التوبة من التوبة» [١]

وهذا قول يتوجه إليه اعتراض الشيخ «ابن تيمية» السابق، لأن التوبة فى حد ذاتها حسنة، فالتوبة من التوبة هى توبة من الحسنات.

ولكننا إذا نظرنا بإمعان إلى عبارة «رويم» يمكن أن نفهم منها معنى صحيحًا فلا يكون كلامه من قبيل التوبة من الحسنات.

والمعنى الذى يمكن أن ينصرف إليه كلام رويم هو أن المقصود بالتوبة من التوبة هو التوبة مما يستوجب التوبة، لأن التوبة لابد أن تكون مسبوقة بالذنب الذى استوجبها.

ويقاس هذا على مثل قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [٢] فإن ظاهره النكير عليهم فى الأمر بالبر، والأمر بالبر أمر حسن، بل واجب شرعًا، إلا أنه لما اقترن به نسيان البر من قبلهم توجه النكير إلى أمرهم بالبر المقرون بنسيانهم أنفسهم منه.

فكذلك التوبة من التوبة، المثال منها ترك الذنوب أصلاً حتى لاتكون توبة فهو كنفى الملزوم والمراد نفى لازمه. والمقصود أن لايكون منه ذنب يستوجب التوبة أى طلب الله تعالى أن يعصمه من الذنوب حتى لايضطر إلى التوبة.

هذا ما يمكن أن يفسر به كلام «رويم» إذا صرف إلى المعنى الجائز شرعًا ، ولقد سبقنا الإمام ابن القيم يبحث مسألة التوبة من التوبة المذكورة فى كتابه «مدارج السالكين» ولكنه لم يصل إلى معنى ترتاح إليه نفسه فيما يبدو، وقال عن هذه الجملة السابقة إنها من الجمل التى يراد بها حق وباطل ويكون المراد المتكلم بها حقا فيطلقة من غير تمييز [٣]

وبهذا يكون الإمام ابن القيم قد رجح أن المراد بهذه العبارة هو المعنى الجائز شرعًا

١- اللمع لأبى نصر السراج صـ ٦٨

٢- سورة البقرة، آية ٤٤

٣- الإمام ابن القيم «مدارج السالكين جـ١ صـ ٢٠٣

وإن كان صاحبها قد أطلقها من غير توضيح كاف بحيث ترك فيها مجالاً لتفهم على غير ذلك المعنى، وفى هذا تبرير كاف لما ذهبنا إليه من توضيح للمعنى الجائز شرعًا لهذه العبارة، والذى نرجو أن يكون هو المقصود فعلاً منها، فلا يكون هذا القول من قبيل التوبة من الحسنات» (١)

تذييل :

وقد لاحظ الإمام ابن تيمية فى موضوع التوبة ملاحظات لطيفة منها ما يلى:-

١- أن التوبة مقام يستصحبه المرء من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره ولا بد منه لجميع الخلق، واستشهد على ذلك بقوله تعالى ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣)

وبذلك استدل ابن تيمية على أن التوبة تشمل جميع الخلق من حيث الحاجة إليها ولم يستغن عنها نبى ولا ولى صالح (٤)

٢- إن من تاب عن ذنب غفر له الذنب فقط، ولا يستلزم ذلك غفران مالم يتب عنه من ذنوب غيره» (٥)

٣- أنه قد يكون العبد بعد التوبة من الذنب خيرا منه قبل الذنب، بل لقد استشهد برأى طائفة من السلف، قال إن منهم سعيد بن جبير حيث قالوا: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة» (٦).

ا.هـ (٧)

١- موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ١٤٦

٢- سورة الأحزاب، الآية ٧٣ ٣- سورة التوبة، آية ١١٧

٤- مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١١ صـ ٦٨٨

٥- نفس المصدر جـ١١ صـ٧٠٢، وأيضا جـ ١ صـ ٣٣٠

٦- مجموع الفتاوى جـ ١٠ صـ ٢٩٤

٧- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٤٧.



* المقام الخامس : (الفناء) عند الصوفية

تعريف الفناء لأبي بكر الكلاباذي: من الأمور التى اشتهرت عند الصوفية الفناء ولقد عرفه الإمام أبو بكر الكلاباذى بقوله: «هو أن يفنى الشخص عن الحظوظ فلا يكون له فى شىء حظ، ويسقط عنه التمييز شغلاً بما فنى به» (١)

شــرح التعــريف :

جاء فى التعريف قوله (أن يفنى عن الحظوظ) ومعنى هذا أن يهمل حظوظه الشهوانية وما فيه متعه مادية كما هو المعتاد بين الناس انصرافًا إلى الله تعالى وهو لايقصد من ذلك جر منفعه ولادفع مضرة لذاتها وإن كان عمله لايخلو من حصول ذلك له فالخوف والطمع باقيان معه قائمان فيه غير منفيين عنه غير أنه يرغب فى ثواب الله لموافقة الله تعالى، لأن الله تعالى رغب فيه وأمر أن يسأل ذلك منه، ويخاف عقابه إجلالاً له وموافقه له، لأنه تعالى خوف عباده منه.

فخلاصة القول أن المريد ليترك حظوظه بمعنى أنه يقبل على جناب الله لمجرد الامتثال لأمره ونهيه فهو يفعل، لأن الله أمر، ويترك لأن الله نهى، أما ما وراء ذلك من نجاة من عذاب أو متعه فى ثواب فهو وإن كان حاصلاً ولابد، لكن لا يأخذ ذلك فى اعتباره ابتداء فليس العقاب والثواب هما الدوافع له على الترك والفعل.

وليس هذا عفوًا ولا اعتباطًا، وإنما لأن شعوره بالمتعة واللذة فى إقباله على جانب الله عز وجل وما يستتبع ذلك من نفحات إلهية تربو على شعوره باللذة، بنعيم الثواب والضجر من أليم العقاب. وهذا المعنى الذى ذكره صاحب كتاب «التعرف» معنى جليل استعصى على كثير من الكتاب فلم يستطيعوا توضيحه بمثل ما فعل الكلاباذى رحمه الله، فالفاني هنا باقى على أوصاف المسلمين التى مدح الله تعالى من اتصف بها من الرغبة والرهبة قد زالت عنه لفنائه عن حظوظ نفسه وغاية ما يكون من أمر الفاني عند الكلاباذى هو أنه لايرغب فى المرغوب إلا لأنه قد أمر الله عنه فهو يرهبه لهذا السبب لا لغيره. وهذا فيما أحسب من أسمى المعانى فى الإسلام.

١- التعريف لمذهب أهل التصوف صـ ٢٢.

* أما معنى (زوال التمييز عنه) فيفسره علماء الصوفية أيضا بأن سقوط التميز عنه هو أن تصير تصرفاته كلها موافقه للحق فلا يصرفه الحق إلا فى موافقاته فلا يشهد مخالفه من نفسه إطلاقًا، وبهذا تصير الأشياء كلها شيئاً واحداً موافقا للحق فلا يحتاج للتميز بينهما حينذاك» (١)

أما زوال التمييز بين الأمر والنهى أو بين الطاعة والمعصية فلا يقول به إلا ملحد فاجر أو معتوه لاتمييز له أصلاً، وليس هؤلاء من أصحاب الفناء الحقيقى (٢). وقد علل صاحب التعريف انصراف المريد عن حظوظه والاتجاه بكليته إلى جانب الحق غير ملتفت إلى ثواب ولا عقاب بانشغال المريد بجلال الله وجماله الذى وصل إليه بمقام الفناء. (٣)

فالفناء الحق هو الفناء عن شهود المخالفات والحركات بها قصداً وعزمًا والبقاء فى شهود الموافقات والحركات بها قصداً وفعلاً والفناء عن تعظيم ما سوى الله عز وجل والبقاء فى تعظيم الله تعالى وحده لا شريك له» (٤)

قال أبى حازم : ومن أروع ما قيل فى شأن الفناء.

ما الدنيا؟ أما ما مضى فأحلام، وأما ما بقى فأمانى وغرور..

وما الشيطان حتى يهاب منه؟ ولقد أطيع فما نفع، وعصى فما ضر» (٥)

فقائل هذا الكلام قد فنى عن قلبه تعظيم ما سوى الله، فلا الدنيا عنده عظيمة كما يراها الناس لأنهم ينظرون إليها نظرة التعظيم والتأمل، ولاسلطان للشيطان عليه كما هو عند الناس، لأنه يوقعهم فى المعاصى والآثام من حيث لايرون لأنفسهم قدرة على رد كيده أو دفع إغراءاته، أما هذا المتكلم فلا يقيم لإغراءات الشيطان وزنًا، لأنه يعلم حقيقة أمره إذ لاعظيم إلا الله عز وجل.

١- التعريف للكلاباذى صـ ٩٦

٢- نفس المصدر السابق صـ ١٠٠

٣-نفس المصدر والصفحة.

٤- التعريف لأبى بكر الكلاباذى صـ ٩٤

٥- المصدر السابق نفسه صـ ٩٤

ومن ثم حفظه الله عن وسوسة الشيطان، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(١)

هذا ولعل فيما كتبناه فى مفهوم الفناء عن الشيخ الكلاباذى ما فيه الكفاية لتوضيح مفهومه وإبانة معناه.

وللصوفية عبارات مختلفة فى هذا المعنى، وكلها ترجع إلى أن ينسى الإنسان فى الفناء كل شىء حتى نفسه، وأدق وأشمل تصوير فى هذا المعنى قول بعضهم: «أخذ منى أنا، فبقيت أنا بلا أنا» (٢)

ولعل صاحب هذا القول يريد أنه نزعت منه النفس الأمارة بالسوء، وبقيت نفسه فى جوهرها الصافى الطاهر التى فطر الله الناس عليها «كل مولود يولد على الفطرة» مجردة عن النفس الأمارة بالسوء التى التبست بها فيما بعد.

شواهد على مقام الفناء:

وليس مقام الفناء أمرا خياليًا، ولا صورة وهمية، بل هو أمر واقع يشهد لذلك شهادة سافرة لايعتريها شك ولامراء. أن الشخص قد يعشق شيئا من الأشياء بحيث يستبد هذا الشىء بجميع مشاعره فلا يشعر بشىء سواه، بل ينسى نفسه ولايشعر بما يجرى فى جسده ونفسه بل يكون غافلاً عن هذا غفلة تامة فهو فى هذه الحالة قد فنى عن كل شيء إلا عن ذلك الشىء الذى عشقه وانجذب إليه.

ويؤيد ذلك تأييداً قويًا ما جاء فى قصة يوسف عليه السلام مع النسوة، قال تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾(٣) ترى فى هذه القصة النسوة حين رأين يوسف عليه السلام ففنين عن كل شىء حتى عن أنفسهن، وعن الإحساس بما يجرى لهن فى غمرة اللذة برؤيا يوسف التى أذهلتهن عن كل ما سواه. ولقد وصل الأمر بهن إلى أن قطعن أيديهن ولم يشعرن بأى ألم فى هذا.

١-سورة الحجر ، الآية ٤٢

٢- الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى للإمام الحجوى جـ٣ صـ ٥١

٣-سورة يوسف ، الآية ٣١ .

فإذا كان هذا يحصل فى عشق الحوادث بعضها مع بعض، فما بالك فى حب الله وهو لا يقاس بشىء أصلاً» (١)

درجات الفناء :

يقول بعض الصوفية : إن الفناء ثلاث درجات، هى كما يلى :

الدرجة الأولى: فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق وهو ما عبر عنه بعضهم باضمحلال ما دون الحق علماً. (٢)

الدرجة الثانية : فناؤه عن صفات الحق بشهود الحق، وهو فناء العيان فى المعاين(٣).

الدرجة الثالثة : فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق» (٤)

فلا يحس فى فنائه بفنائه لعدم التفاته إلى حاله وما هو فيه من فناء أو شهود، وهذه هى أرقى درجات الفناء عندهم.

وهذه الدرجات الثلاث تعتمد على مدى تأثير الفناء على صاحبه. وقد بالغ بعضهم فى ذلك.

* مسألة في آثار الفناء على الفاني:

اختلف الناس فى أن الفاني هل تذهب بشريته وآدميته بالفناء فيصير حقيقه أخرى كالملكية مثلا أو أن البشرية مازالت باقية وآدميته مازالت ثابتة. وكل مازال بالفناء إنما هو الصفات البشرية كحب المال وغيره على ما جاء فى قول الله تعالى عن ذلك ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾(٥) .....الآية .

فالفناء إنما يذهب بتلك الصفات البشرية، وإنما يبقى الإنسان بالفضائل الإنسانية.

ذهب إلى الرأى الأول فريق وذهب إلى الرأى الثانى آخرون.

١- موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٥٧ و١٥٨.

٢- الرسالة للقشيرى صـ ٦٣

٣- المصدر السابق، والتمكين فى شرح منازل السائرين ص ٢٥

٤- نفس المصدر ونفس الصفحة

٥- سورة آل عمران، الآية ١٤

والحق هو المذهب الثانى، أما المذهب الأول فبطلانه واضح لايحتاج إلى دليل. فالأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وهم أوفر الناس حظًا فى جميع المقامات العليا لم ينسلخ واحد منهم من آدميته وبشريته.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾[1] وقال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[2] .....الآية .

أما القوم الذين غلطوا فى فناء البشرية وسمعوا كلام المحققين فى الفناء، فظنوا أنه فناء البشرية فوقعوا فى الوسوسة، فمنهم من ترك الطعام والشراب، وتوهم أن البشرية، هى القالب والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها، فيجوز أن يكون موصوفها بصفات الإلهية، ولم تحسن هذه الفرقة العمل ولا التفكير حتى نسبها كبار الصوفية إلى الجهل والضلال فهذه ألفرقة الجاهلية الضالة-كما يقول عنهم أبو نصر السراج-لم تفرق بين البشرية وبين أخلاق البشرية، لأن البشرية لاتزول عن البشر، كما أن لون السواد لايزول عن الأسود» [3]

فالفناء إذا هو فناء الصفات البشرية لا البشرية ذاتها وكل من ظن أن البشرية تفنى، أو أن الموجودات الكونية تفنى فهو خاطئ إذ الوجود باق على ما هو عليه، والفانى فى المرء هو صفة العلم والملاحظة لهذا الوجود. [4]

الفناء في نظر ابن تيمية :

لقد نظر ابن تيمية إلى الفناء عند الصوفية بنظرة خاصة متأملة واستطاع أن يميز العارف المصيب فى كل ما يقوله عن الفناء من الضال المضل الذى يناقض فى كل ما يقوله أو ينقله من الضلال مما يضل به غيره. فالباحثون فى مقام الفناء من الصوفية ينقسمون عند ابن تيمية إلى ثلاثة أقسام.

١- سورة يوسف، الآية ١٠٩

٢- سورة فصلت، الآية ٦

٣- اللمع للسراج صـ ٥٤٣.

٤- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية

القسم الأول : هم الذين يمتدحون الجنون والوله، ويمتدحون أصحاب هذه الآفات من الناس، بل يرونهم أصحاب الفناء الحق، ويعتقدون فيهم المعتقدات الباطلة ويصدقونهم فى أمور يعلم العقل بطلانها قطعًا» [١]

وهؤلاء لايعرفون ما هو الفناء بل هم أدعياء لايقام لهم وزن عند المحققين.

القسم الثاني : هم الذين قد يحصل لهم صعق أو غشيان عند سماع القرآن ونحوه أو يصدر عنهم من الأقوال ما إذا صحى صاحبه عرف أنه غالط فيه [٢]

وسبب ذلك أنه قد يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره..حتى يفنى من لم يكن (وهى المخلوقات) ويبقى من لم يزل «وهو الرب» فلا يشهد ولا يدرك شيئا من المخلوقات، وإذا قوى هذا الأمر عليه قد يضعف الشخص فى تمييزه حتى يظن أنه هو من يحب. ومثال ذلك عند ابن تيمية أن رجلاً ألقى نفسه فى اليم فألقى محبه نفسه خلفه، فقال المحبوب: أنا وقعت فما أوقعك أنت خلفى؟ قال: غبت بك عنى فظننت أنك أنى» [٣].

فمن صدر عنه فى هذه الأحوال قول غامض جاز تأويله بما يحتمله من المعنى الصحيح مثل قول من قال: «ما أرى غير الله» أو «لا أنظر إلى غير الله» ونحو ذلك، فمرادهم بذلك ما رأى غير الله، ولا خالقاً غيره ولا مدبرًا غيره ولا إلهًا غيره.

ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفا منه أو رجاء له، فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب، فمن أحب شيئًا أو رجاه أو خافه التفت إليه.

وهذا فى نظر الإمام ابن تيمية هو التوحيد الحقيقى الذى لايلتفت فيه لغير الله تعالى. لاحباً له ولاخوفًا منه ولا رجاء له. بل يكون القلب فارغًا من المخلوقات خاليًا منها لاينظر إليها إلا بنور الله. وبذلك يكون قد حقق معنى الحديث القدسى «كنت سمعه الذى

١- مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٠ صـ٢٢١

٢- نفس المصدر والصفحة

٣- مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ١٠ صـ٢١٩

يسمع به وبصره الذى به يبصربه» فبالحق يسمع وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، فيحب من الأمور ما يحبه الله ويبغض منها ما يبغضه الله، ويوالى منها ما والاه ويعادى منها ما عاداه» [١]

القسم الثالث : هم الذين حصل لهم الفناء وهم باقون فى حالتهم الطبيعية العادية لم يغشهم ما غشى القسم الثانى من صرع...الخ، ومثال هؤلاء كثير من الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وكثير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وإنما حصل لهم مقام الفناء هذا دون أن يطرأ على شخصيتهم أى تغيير كما فى القسم الثانى لأن هؤلاء أكمل وأثبت وأقوى فى الأحوال الإيمانية فلم يحصل لهم حال جديد، فليس هناك سبب يستوجب التغير، بخلاف الإنسان العادى، فإن إيمانه ليس فى مستوى إيمان الأنبياء والصحابة، فإذا طرأ عليهم مقام الفناء حدث لهم صور من الإيمان قوية جداً فيصابون بشىء من الصرع........الخ [٢]

* وبعد فهذه مقامات وأحوال الصوفية، وهى أفضل ما عندهم وأحسن ما فى مذهبهم ومع ذلك فلم تخل حتى هذه من شطحات التصوف، وغلو المتصوفة، ويبدو أن الغلو مرض، إذا مرض به إنسان لم يقف عند جزئية واحدة، بل يستشرى فيشمل كل شىء، وهكذا كانت شطحات الصوفية، وعلى مافى المقامات من معانى جميلة، وغايات طيبة وأهداف نبيلة بعيدة عن الشطط والغلو الذى أصابها.

أتساءل : أليس فى الإسلام ما تبلغ به النفس كمالها وسعادتها النضرة، وما تتألق به الروح، وتسمو إلى سماء الإيمان الحق، والنورانية الصافية، وما ينبع به الفكر فيدرك الحق إدراكا لايشوبه ريب وهم، ولا يريبه ظن، وما يصفو به القلب، فيفيض بالخير والرحمة والمحبة؟

أحسبت الإسلام غير مجد فى تزكية الانسان والتسامى به، حتى تفر منحدرا إلى الصوفية؟

١- نفس المصدر والصفحة

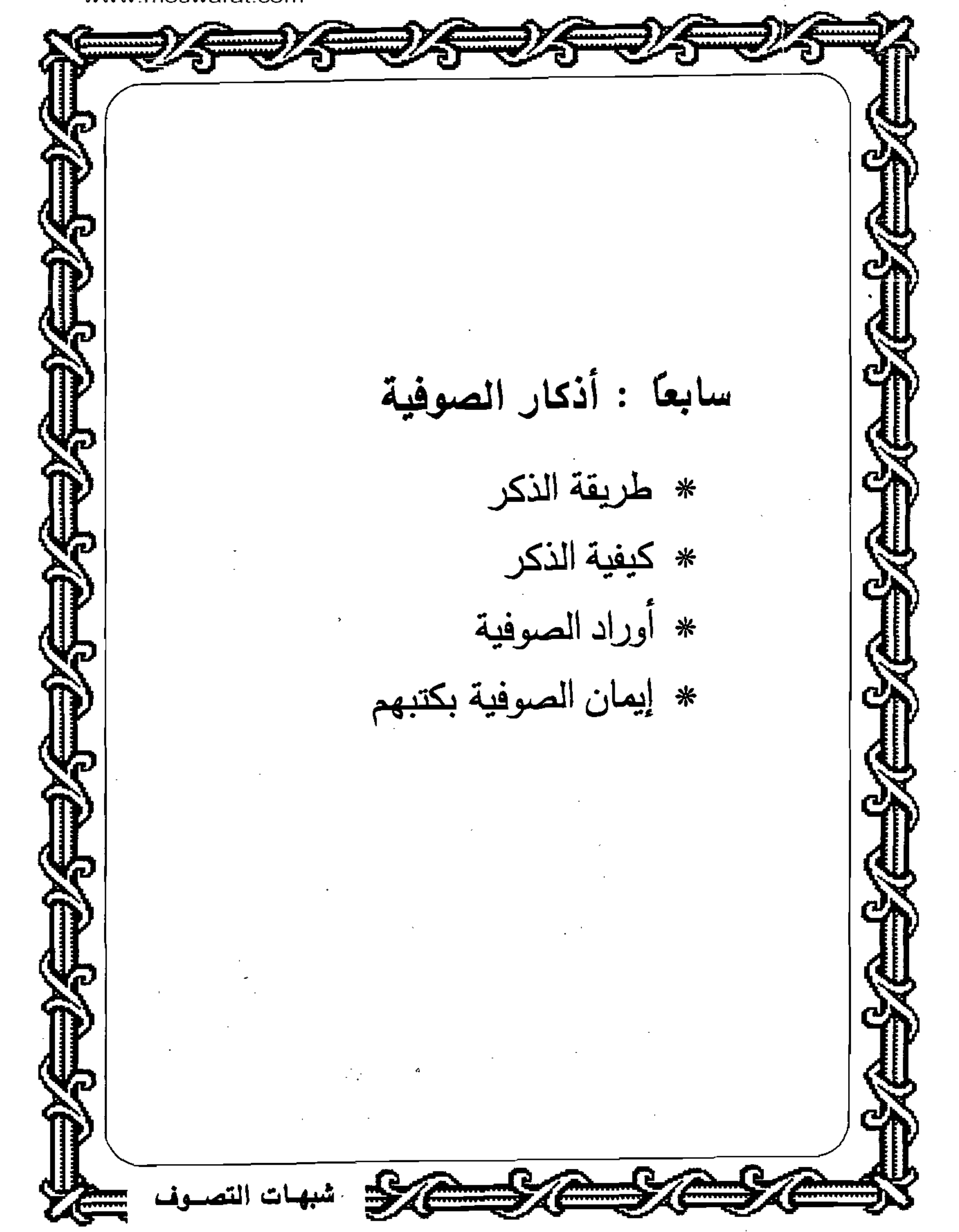
٢-موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ١٦١ و ١٦٢ بتصرف .

إن فى إخلاص التوحيد، وصدق الإيمان، وطيب الإحسان فيما أنعم الله به لواحة وريفة الظل، فناء الخميل، ثرة النبع فى صحراء الحياة، تترعرع من سلسلها العذب ما يجعل الحياة حواليك مجالى خير وسلام وصفاء......ومجانى نعيم روحى وسعادة نفسية، عبادتك الله كأنك تراه، تجريد لك من نوازع الشر ونوازعه، وتزكية لك مما يضل به الفكر، أو تطيش الغريزة، أو تزل العاطفة، أو يخمد الشعور بحق الحياة الطيبة، إنها تطلقك فى رحاب الوجود جهاداً دائبًا فى سبيل الحق وعملاً صالحاً تنشد به رضاء الله وحده. وتحقيق الخير العام للإنسانية، وتسبيحًا وتقديسًا لله وحده، لا امتزاجًا أو اتحادا، كما تزعم الصوفية.

ذلك بعض ما فى الإسلام، فماذا فى الصوفية؟ فيما ذكرت لك قبل الجواب الصادق[1]

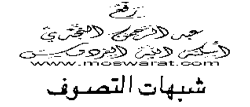
* * *

١- هذه هى الصوفية صـ ١٦٦ و١٦٧



سابعًا : أذكار الصوفية

* طريقة الذكر
* كيفية الذكر
* أوراد الصوفية
* إيمان الصوفية بكتبهم



سابعًا : أذكار الصوفية

* طريقة الذكر

فى أعياد الصوفية التى يسمونها : موالد، وفى معابد الأضرحة إلتى يسمونها: مساجد ، وفى كهوف الدراويش وقد أتخموا بطون الطواغيت بالسحت!! فى تلك الحانات يقيم الصوفية حلقات الرقص، أو ما يسمونه هم بالذكر، فيجلس الشيخ بين صفين من دراويش تعشقهم الرذيلة، ودرويشات نفرت منهن الفضيلة ثم يصفق بيديه اللامعتين من دسم الحرام إيذانًا ببدء الذكر، ثم يخرج من شفتيه ومنخريه اسم الله ملحداً فى حروفه وفى النطق به!! وغضون جبينه تهمز الحياء، وتلمز التقوى.

ومنشد القوم يطربهم بالغزل الداعر فى «ليلى وسعاد» أو بالدفوف يدق عليها الشيطان، وبالنايات تصفر فيها الشهوة، ثم يهب الشيخ ويهب معه المريدون، وثمت يميلون يمنة ويسرة، متأودة أعطافهم تأود الراقصات يلمحن فى أيدى الرواد دنان الخمر وفتنة الذهب، وما هى إلا لحظة حتى تجن هذه الأجساد بما فيها من رغبات مكبوتة، مفصحة عن غليلها المحترق بالتأوه المخنث، والتمايل الخليع وبالأصوات المنكرة المبحوحة من عويل الخطيئة والاستغاثة بزينب، أو نفيسة، لايريدون زينب الطاهرة ولا نفيسة العابدة، وإنما يريدون بهما شيئا آخر !! فكل يغنى على أنثاه.

وهكذا يظلون فى اقتراف هذا الزور الملحد ساعة أو ساعتين، كل يريد أن يثبت للعيون الزانية فى لهفة، والزغاريد المغازلة فى توجع مشوق، أنه حيوان قوى الجسد.

وبعد هذا يزعمون أنها كانت من ساعات التجلى !! ولكم من أم باعت قوت يتيمها، وزوج ستر امرأته، ومدين يهلكه الدين بقية طعامه فى سبيل «شيشة» الشيخ و«حشيش» الشيخ، و«أفيون» الدراويش، وهم يرقصون فى حانات الذكر. !!!

أترانى بالغت؟ أم أنى قصرت؟ أخالك تنزع إلى اتهامى بالتقصير، فكلّ ذى بصر تقع عيناه على الصوفية يعربدون فى حانات ذكرهم، تقع عيناه على مشاعل المجوس، تتوهج كرغبات الفاجر، وعلى الدفوف بأيدى فتية، أسبلوا شعورهم، وقد لمسهم

الشيطان بلهيبه، فراحوا يتكسرون على النغم الشرود، ويهصرون غصونهم على النظرات المتوهجة الرغبات، وشيخ الطريقة سعيد !! لأن شباك فتنته توقع فى حبالها الهائمين، هذا يحدث، وتراه، ونراه، ولا نسمع النكير عليهم من أحد، كأنما رذيلة القوم فضيلة مقدسة» !! (١)

* ما هكذا ذكر الرسول ربه، وما هكذا ذكر الصحابة من بعده ربهم، ما ذكروه باسمه المفرد، ولا ذكروه فى ميل وتأود، ما ذكروه بقيادة واحد منهم ينطق بالاسم مصفقًا، وينطقون به وراءه، ما ذكروه ولهم منشد يغازل ليلى، ما ذكروه وأصواتهم من ضجيجها تفزع الليل، وتصك جنباته، ما ذكروه جزاء مضغة أو نفثة «شيشة»، ما ذكروه بالنايات والطبول والدفوف. ولكنهم ذكروه كما علمهم رسوله. أما من ذكر الله ذكر الصوفية، فهم مشركوا الجاهلية. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾(٢) أو عبدة العجل فى اليهودية . (٣)

وحتى توقن بأن أذكار الصوفية أساسها بدعة يهودية، إقرأ ما جاء فى المزمور التاسع والأربعين بعد المائه: «ليبتهج بنو صهيون بملكهم، ليسبحوا اسمه برقص، بدف، وعود، ليرنموا هللوا يا، سبحوا الله فى قدسه، سبحوه برباب وعود، سبحوه بدف ورقص سبحوه بأوتار ومزمار، سبحوه بصنوج الهتاف» (٤)

وهكذا يذكر الصوفية، وحسبك أن ترى صوفية يذكرون بها، لتشهد الصلة الوثيقة بين الذكر الصوفى، والبدعة الجاهلية إليهودية!!

ولكن الدباغ يزعم «أن الصوفية يهتزون يمينًا وشمالاً، لأن الأقطاب رأوا الملائكة تفعل ذلك» (٥)

١- هذه هى الصوفية ص ١٧٣ و١٧٤ بتصرف
٣- سورة الأنفال، آية ٣٥
٣- هذه هى الصوفية صـ ١٧٤ بتصرف
٤- العهد القديم، المزامير، صـ١ ٦٤
٥- الإبريز للدباغ جـ٢ صـ٧٢

بل هناك من الصوفية من يزعم أن هذا الذكر مأخوذ من القرآن والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى - مبينا كيفية الذكر - ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (١)

وقوله تعالى - مبينا صيغة الذكر - : ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(٢).

ومن السنة، استدلالهم بأن النبى صلى الله عليه وسلم ظل يذكر ربه حتى سقط عنه رداءه.

وأن الصحابة كانوا إذا ذكروا الله عز وجل تمايلوا تمايل الأشجار أو الأغصان (٣)

* وهذا الذى استدل به المتصوفه استدلال فى غير محله، وهذا القرآن الذى استشهدوا به حق أريد به باطل، فهذه الآية ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ يزعمون أنها فى هيئة ذكرهم بتلك الطريقة البهلوانية، وهي - يعلم الله - ليست كذلك البتة، فالآية تحدثنا عن عموم الذكر فى كل وقت وحين، وعلى كل هيئة وكيفية وعلى شمولية الذكر فى حياة المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾(٤)

وقال تعالى : ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٥)

ولا يتحقق هذا بطريقة ذكر المتصوفة وأورادهم فهى كما قال ﷺ -لعمران بن حصين: «صل قائما، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب» (٦) وهى عن الذين لا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم، وهى التى يذكرون الله على كل حالة فى الدخول والخروج وعند النوم واليقظة، وفى العمل والراحة، وفى الصباح والمساء، وعلى كل حال، وهى من يذكر الله بالجهاد، ومن

١- سورة آل عمران، آية ١٩١
٢- سورة الأنعام، آية ٩١
٣- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٥٢ بتصرف
٤- سورة الأحزاب، آية ٣٥
٥- سورة الأحزاب، آية ٤١و٤٢ .
٦-متفق عليه .

يذكره بالصوم، ومن يذكره بالقرآن، ومن يذكره بالدعاء، هي هذا كله.

* والذكر بالاسم المفرد وحده غير مقبول «عند الشيخ ابن تيمية» لسببين:

السبب الأول:

إن اللفظ المفرد لا يفيد علمًا، لأنه لا يفيد إثبات حكم ولا يفيد تنزيهًا ولا تقديسًا ولا تمجيدًا.

أن أفضل الذكر مطلقًا هو «لا إله إلا الله» كما ثبت ذلك من أحاديث كثيرة بين فيها رسول الله ﷺ أن أفضل ما قاله، وقاله النبيون «لا إله إلا الله»[1] وقوله ﷺ «أفضل الذكر لا إله إلا الله» [2]

ويرد الشيخ ابن تيمية حجتهم التي اعتمدوا عليها في القول بالاسم المفرد وهو ما أخذوه من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[3].

ثم بين أن من أبين الغلط اجتراؤهم على هذه الآية الكريمة بتقسيمها، وعدم ذكر الجزء الموضح للمعنى فيها السابق لهذا الجزء من الآية، وهو الاستفهام الذى اقتضى أن يجاب عنه بالجملة المذكورة في هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

فمن قرأ الآية كاملة عرف أن ليس فيها ما يدل على صحة ذكر الله بالاسم المفرد، وأن الحق ما قاله الشيخ ابن تيمية في هذه المسألة.[4]

* وأنكر الشيخ ما رواه بعض الصوفية من أكاذيب، مثل قولهم أن النبي ﷺ تواجد

١- مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ٢صـ ٣٤١

٢- أخرجه البخاري.

٣- سورة الأنعام، آية ٩١

٤- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ٢٠٣

حتى سقطت البردة عن منكبية..الخ فكذب الشيخ هذا الخبر أشد التكذيب، وأمثاله، وما قيل عن الصحابة رضى الله عنهم» (١).

* كيفية الذكر:

يوجب الصوفية على الذاكر «أن يستحضر شيخه، وأن يستمد منه عند الشروع فيه فيقول: مددك يا أستاذى وأن يرى أن استمداده منه، عين استمداده منه صلى الله عليه وسلم، فإنه الواسطة إليه، وأن يستأذن شيخه بقلبه، فيقول: دستور يا أستاذى : وأن يستأذن أصحاب الطريق والقدم، وهم أهل السلسلة، فيقول: دستور يا أصحاب الطريق والقدم» (٢).

وهكذا توجب الصوفية على «الدرويش» أن يتلطخ بهذ الوثنية قبل أن يذكر الله، وأن يستأذن كل هذه الأصنام، ليتقبل الله ذكره، ويغمره برضاه!! حجب صماء تمور حولها الدياجير، وتقصف الأعاصير، تضعها الصوفية فى طريق السالك. حتى لا يرى شعاعة من نور!! (٣)

وأما كيفية الذكر فهى «أن يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه، وأن يبدأ بـ «لا» يمينا، ويرجع بـ «إله» فيتوسط، ويختم «إلا الله» يسارا قبلة القلب، فإن ذكر اسمه مفردا كـ «الله» و«هو» «ضرب بذقنه على صدره، وأن يذكر مع جماعة مع رفع الصوت، وينتع الكلمة من سرته إلى قلبه» (٤).

* هذه البهلوانية الرعناء، هى صورة الذكر الصوفى، ترى هل كان رسول الله وهو يذكر ربه. يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه؟ أو كان يضرب بذقنه صدره؟ أو كان يميل يمنة ويسرة؟ لم يفعل شيئا من ذلك، لأنه نبى، ولأنه رجل أبى الرجولة، أما رفع

١- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ١٥٢ بتصرف.

٢- أنظر رسالة لأحمد عبد المنعم الحلوانى صـ٢٨و٢٩ ورسالة منحة الأصحاب لأحمد بن عبد الرحمن الشهير بالرطبى صـ ٨٦.

٣- هذه هى الصوفية صـ ١٧٥

٤- رسالة منحة الأصحاب صـ٨٦

الصوت، فالله يقول: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[1] وأصله الدعاء، ولكن الصوفية بهدى ربهم يعدلون!![2]

ويقول تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[3]

* **صيغ الذكر الصوفي**: «من آداب المريد مع شيخه أن يذكر ما لقنه له أستاذه فلا يتجاوزه إلى غيره»[4]

ولهذا تعددت صيغ الذكر الصوفي، تبعا لتعدد الطرائق، وتباين الشيوخ، فمنهم من يذكر بالاسم المفرد، ومنهم من يذكر بـ «هوهو» ومنهم من يذكر بـ «أه أه» وكل طاغوت صوفي يحرم على عبدته أن يذكروا بغير ما أذن لهم فيه، أو أن يذكروا بما ترقص به الطرق الأخرى، لاعتقادهم أن بعض أسماء الله قد يضر ذكرها هذا، وينفع ذاك، أو تضر في حال، وتنفع في حالة أخرى، والخبير بما ينفع الذاكر أو يضره إنما هو الشيخ، لهذا لا يستطيع «الدرويش» أن يذكر «لا اله إلا الله» إلا إذا أمره بها شيخه، ولاينادي ربه «بيا لطيف» وإلا أصابه مس أو خبال، أو كما يسمونه «لطف» !![5]

واسمع إلى القديس الصوفي «ابن عطاء الله السكندري» يفتري الإثم الأكبر فيقول.

«اسمه تعالى «العفو» يليق بأذكار العوام، لأنه يصلحهم، وليس من شأن السالكين إلى الله ذكره واسمه تعالى «الباعث» يذكره أهل الغفلة، ولايذكره أهل طلب الفناء، واسمه تعالى «الغافر» يلقن لعوام التلاميذ وهم الخائفون من عقوبة الذنب. وأما من يصلح للحضرة، فذكره مغفرة الذنب عندهم يورث الوحشة، واسمه: تعالى «المتين» يضر أرباب الخلوة، وينفع أهل الاستهزاء بالدين[6].

ويستمر «ابن عطاء» في سرد هذا البهتان حتى يستوفي أكثر أسماء الله، والله تعالى

١- سورة الاسراء آية ١١٠
٢- هذه هي الصوفية صـ ١٠٦.
٣- سورة الأعراف، آية ٢٠٥
٤- من رسالة الحلواني صـ٣
٥- هذه هي الصوفية صـ ١٠٦
٦- مفتاح الفلاح ص ٢٣، ٢٤.

يقول: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[١].

ويقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

اسمه الغافر لا يصلح إلا للعوام!! كأنما أولئك الطواغيت معصومون من الذنب أو هم آلهة!! على حين كان يستغفر الرسول ربه في اليوم مائة مرة!! فهل تجد رحماً بين حق القرآن، وبين باطل الصوفية؟!![٣].

* ذكر رسول الله ﷺ.

ومن عبير السنة المطهرة، يسطع عليك مايشفي روحك، فقارن بينه وبين ذلك اليحموم الصوفي. قال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[٤].

وكان ﷺ يقول دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»[٥].

وقال ﷺ: سيد الاستغفار أن تقول: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ماستطعت، أعوذ بك من شر ماصنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[٦].

وفي الصحيحين، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يقول- إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «اللهم لك الحمد. أنت نور السموات والأرض، ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت

١- سورة الإسراء، الآية ١١٠.
٢- سورة الأعراف، الآية ١٨٠.
٣- هذه هي الصوفية ص ١٧٧.
٤- متفق عليه.
٥- رواه مسلم.
٦- رواه البخاري.

رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، واليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهى، لا إله أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك» (١)

* أرأيت إلى هذا الذكر النبوى الجامع؟ إنها ضراعة النبوة والعبودية الخالصة تفتحت لها أبواب السماء. ما فيه ذكر باسم مفرد، ولاضرب صدر بذقن، ولا هزة الرأس إلى أخمص القدم، ما فيه التناوح بالرأس يمنة ويسرة، ولانتع من سرة إلى قلب، مافيه منشد، ولادف، ولا شبابة (٢). ما فيه دائرة يقف فى مركزها نصب يرقص الذاكرين بتصديته!! إنما فيه قلب مؤمن ضارع. ملأه حب الله خشية ورهبة وتقوى، يتوجه إلى خالقه الأعظم، مالك الملك كله فى إيمان صادق، وتوحيد خالص، فصلوات الله على محمد عبد الله ورسوله (٣). هذا ذكر رسول الله أو نماذج منه فما ذكر الصوفية؟

نماذج من أوراد الصوفية

الأوراد : جمع ورد، وهو فى اللغة: مكان الورود أو زمانه، أو الماء المورود نفسه. وفى عرف الشرع: ما يأتيه المسلم من نوافل العبادات، ويتعاهده طوال حياته.

وفى اصطلاح الصوفية وأصحاب الطرق هو أحد أصول الطريقة المهمة ذات الخطر والشأن فى حياة المريد، وهى عبارة عن أذكار وأدعية يعطيها الشيخ العارف المأذون له أو نائبه عند تعذر لقياه والاتصال به لموته أو بعد داره، يعطيها للمريد ليصفوعليها باطنه، ويصل بها إلى مقام المكاشفة والمشاهدة والفناء، فى ذات الله تعالى، حتى لا يبقى واصل ولا موصول، كما قال قائلهم:

فلم يبق إلا الله فلا شيء غيره فما ثم موصول ولا ثم واصل.

١- متفق عليه. ٢- الشبابة: الربابة.

٣- هذه هي الصوفية ص١٧٨، ١٧٩.

أما الأدعية: فأكثرها ينظمونها فى شكل أحزاب، فيقال حزب الشاذلى، وحزب الحداد، وحزب الدسوقى وصلاة ابن بشيش، والحزب الكبير والحزب الصغير، وحزب كذا وحزب كذا.

ولا تخل بحال من كلمات الشرك والكفر والابتداع كالتوسل بالأموات والاستغاثة بهم ودعاء غير الله تعالى.

وأما الأذكار: فمنها ما هو حق مشروع كالتهليل «لا إله إلا الله» ويسمونه ذكر العامة،

ومنها ما هو غير مشروع كالذكر باللفظ المفرد، نحو: الله، الله، أوحى، حى، ويسمونه بذكر الخاصة، ومنها ما هو باطل وضلال كالذكر بلفظ ضمير الغيبة نحو: هو، هو، هو، ويسمونه بذكر خاصة الخاصة.

* فانظر كيف يصنفون الذاكرين ثلاثة أصناف، خيرهم يسمونهم العامة، وشرهم يسمونهم خاصة الخاصة، نعوذ بالله من هذا الضلال المبين، ونبرأ إلى الله تعالى من هذا الكذب المشين.

هذا، ويأتى الخطأ فى الأذكار الصوفية فى صور هذه منها:

١- تحديد الأوراد فى كمياتها وكيفياتها وأوقاتها، وأعنى بكمياتها أعدادها فإن كان الشارع قد أطلق لفظ الذكر ولم يحدده بكمية وعدد معين فلا يصح تحديده ولا تعيينه، ومن حدد أو عين فقد ابتدع، والبدعة ضلالة وأعنى بالكيفية أن يؤتى الذكر فى جماعة وبصوت واحد، وهى كيفية مخالفة لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حال الذكر، كما أعنى بالأوقات تعيين وقت معين لا يؤتى به إلا فيه.

٢- وضع صيغ وألفاظ لم ترد عن النبى صلى الله عليه وسلم، ومن المعلوم فى الشريعة بالضرورة أن أى ذكر لم يرد عن الشارع فهو باطل، لأنه تشريع زائد.

٣- الاجتماع عليه ورفع الأصوات به، وإحداث حركات منكرة كالتمايل والقفز والرقص والتصفيق.

٤- مصاحبة الذكر بالعزف والتصفيق، وهو ما يسمى بالمدائح والقصائد، فهذه لا تعذب لهم ولا تطيب إلا على أنغام المرد، وأصوات المعازف والدفوف.

٥- وضع أجور معينه ومحدودة على كل نوع من الذكر، بأن يقال من قال كذا، فله أجر كذا، من غير أن يرد عن الشارع، وعلى سبيل المثال، قول الشيخ التيجانى فى صلاة الفاتح، وأنها تعدل كذا ، ولقائلها من الأجر كذا، فى كتابه «الرماح»(١)وأمثال هذا (٢).

* وهذه أمثلة من الأوراد، نوردها فقط بدون تعليق، ويكفى الباطل عرضه ليفتضح أمره، وقد جاء فى أغلب أوراد الطرق هذا، ومنه:

«باسم الإله الخالق الأكبر، وهو حرز مانع مما أخاف وأحذر، لاقدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، يلجمه بلجام قدرته، أحمى حميثا، أطمى طميثا، وكان الله قويًا عزيزًا، حم عسق حمايتنا، كهيعص كفايتنا، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (ثلاثًا) (٣)

«اللهم اجعل أفضل صلواتك أبدًا، وأنمى بركاتك سرمدًا، وأزكى تحياتك فضلاً وعددا على أشرف الخلائق الإنسانية، ومجمع الحقائق الإيمانية، وطور التجليات الإحسانية ومهبط الأسرار الرحمانية، حامل لواء العز الأعلى، ومالك أزمة المجد الأسنى، شاهد أسرار الأزل، ومشاهد أنوار السوابق الأول، وترجمان لسان القدم، ومنبع العلم والحلم والحكم، مظهر سر الجود الجزئى والكلى، وإنسان عين الوجود العلوى والسفلى، روح جسد الكونين، وعين حياة الدارين.،شجرة الأصل النورانية، ولمعه القبضة الرحمانية، وأفضل الخليقة الانسانية، وأشرف الصورة الجسمانية، ومعدن الأسرار الربانية، وخزائن العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية، والبهجة السنية، والرتبة العلية،من اندرجت النبيون تحت لوائه، فهم منه وإليه..اللهم صل على

١- كتاب الرماح جـ٢ صـ ٦٩« أجر صلاة الفاتح »

٢- إلى التصوف ياعباد الله صـ٢١و٢٢ بتصرف يسير.

٣- الحزب الصغير لإبراهيم الدسوقى، من اللالئ السنية فى أوراد الطريقة الخلوتية الدومية صـ١ ، ومجموع أوراد الطريقة البرهانية صـ ٢٣.

من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منها سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت يفيض أنواره متدفقة، ولاشيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط. صلاة تليق بك منك إليه، كما هو أهله، اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك...وزج بى فى بحار الأحدية، وانشلنى من أوحال التوحيد، وأغرقنى فى عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحى وروحه، سر حقيقى وحقيقته، جامع عوالمى، بتحقيق الحق الأول...واجمع بينى وبينك، وحل بينى وبين غيرك.

.......اللهم صل على الذات المحمدية، اللطيفة الأحدية، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار، ومركز مدار الجلال، وقطب فلك الجمال، اللهم بسره لديك وبسيره إليك، آمن خوفى، وأقل عثرتى، وأذهب حزنى وحرصى، وكن لى، وخذنى إليك منى، وارزقنى الفناء عنى، ولاتجعلنى مفتونا بنفسى، محجوبا بحسى، واكشف لى عن كل سر مكتوم يا حى ياقيوم...

اللهم صل على سيدنا محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك، وإمام حضرتك وطراز ملكك، وخزائن رحمتك، وطريق شريعتك، المتلذذ بتوحيدك، إنسان عين الوجود، والسبب فى كل موجود، عين أعيان خلقك، المتقدم من نور ضيائك....النور الذاتى، والسر الساري فى سائر الأسماء والصفات.[1].

* وهذه مجموعة أخرى من أوراد الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية ومنها:

على المريد أن يقول: «يادايم» ٣٠٠ مرة «وهو ليس من الأسماء الحسنى».

«اللهم إنى إسألك بالعرش والكرسى والنور الذى عليه سيدنا محمد ﷺ أن

١- مجموعة أوراد الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية ص ٢٦- ٣١ بتصرف، وصلوات أحمد الدرديري، من اللآليء السنية في أوراد الطريقة الخلوتية ص ١١- ٢٢ بتصرف.

تسخر لى قلب من أحوجتنى إليه..من أراد لى سوءا أخذه الله، همسا همسا، لمسا لمسا، لموسا لموسا، مأمونا مأمونا، أنا الأسد، سهمى نفد، منه المدد، لا أبالي من أحد.

آلم نووا، فلووا عما نووا ثم لووا عما نووا فعموا وصموا عما نووا، فوقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا.

أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا.

يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا- (لا ألاء إلا الاؤك يا الله-ثلاثا)..

اللهم آمنا من كل خوف وهم وغم وكرب، كدٍ كدٍ كردِدٍ كرددٍ كردِهِ كردِه دهٍ دهٍ دهْ دهْ الله رب العزة كتب اسمه على كل شىء أعزه، وخضع كل شىء لعظمته وسلطانه.

اللهم اخضع لى جميع من يرانى من الجن والإنس والطير والوحوش والهوام، اللهم اجعل لى نورا من نورك على وجهى ومن ضياء سلطانك أمامى حتى إذا رأونى ولوا هاربين خاضعين لهيبة الله ولهيبة أسمائه ولهيبتى تدكدكت الجبال بكهيعص كفيت، بحمعسق حميت ، فسيكفيكم الله وهو السميع العليم »

.......بها بها بها بهيا بهيا بهيا بهيات بهيات بهيات القديم الأزلى يخضع لى جميع من يرانى، لمقفنجل يا أرض خذيهم، قل كونوا حجارة أو حديدا، وقفوهم إنهم مسئولون، كأنهم خشب مسنده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، طهور بدعق محببة صورة محببة سقفا طيس «سقاطيم» أحونّ ق أدم حم هاء أمين.

حم (٧ مرات) حَمَّ الأمر وجاء النصر فعلينا لاينصرون...بسم الله بابنا، تبارك حيطاننا، يس سقفنا.

إن أبطأت غارة الأرحام وابتعدت ... فأقرب السير منها غارة الله
يا غارة الله جدى السير مسرعة ... فى حل عقدتنا يا غارة الله

(التوسل) اللهم انصر بفضلك برهاننا..وول أمورنا دسوقنا، لاتول أمورنا شرارنا

يارينا بمحمد وبنته وبعلها.. بابنيهما الحسنين أعلام الهدى.
وبأنبياء الله ثم برسله، وكذا الملائكة الكرام أولى الهدى
وبزينب بنت الإمام المرتقى درج المكارم والهدى مفنى العدا
بالسيد البدوى باب المصطفى بحر الفتوة والمكارم والندى
بالشاذلى وبالدسوقى شيخنا بالقادرى وبالرفاعى أحمدا
وبشيخنا وملاذنا العريان من خفر الحجيج هو المسمى أحمدا..

ثم ماهذه الطلاسم «بطلسم غيب الغيب–اتحفنى بأكمل جذبة– بسر طهور بدعق حاء محببة.. بمحبيبهن فتحا لقفل قوبنا.

ويا سقفا طيس....عظيم سقاطيم.. أحون وقاف مع آدم–بأحمى حميثا، بأطما طميثا، وزج بروحى فى بحار الحقيقة ووال كؤوس الحب فى حانة الصفا..صف زجاجتى وبالأسد الكرار من لاح سره..وبالسادة الأزواج أهل الصيانة...الخ.

ومن ملكوا التصريف..ومفتاح أخفى طلسم.. وداد اموسويا..الخ . هذا الهراء(١)

وخلاصة القول فى هذا أن أوراد الصوفية من أذكار وصلوات وأدعية ومدائح وقصائد شعرية، لاتخلوا أبدا من الكذب وألفاظ الشرك ومعتقداته، لا يفارقها الابتداع فى ألفاظها، وأعدادها، وأوقاتها، وأكثرها ما وضع إلا لضرب أمة الإسلام بتمزيق شملها وتفتيت قوتها، وإدخال الزيغ والضلال فى معتقداتها والبدع فى عباداتها ولا تقوم لها قائمة ولاتزكوا لها نفس ولا يستجاب لها دعوة والعياذ بالله تعالى(٢)

وهذا مع زعمهم، على لسان ابن الحاج :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولابكاؤك إن غنى المغنون

١– مجموعة أوراد الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية صـ ٨–١١٨ بتصرف
٢– إلى التصوف ياعباد الله صـ ٢٣

ولا لهـو ولا رقص ولا طرب ... ولا اختباط كأن صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وإن تتبع الحق والقرآن والدين
وأن ترى خاشعا لله مكتئبا ... على ذنوبك طول الدهر محزونا

* إيمان الصوفية بكتبهم، أو زعمهم أنها أسرار ورموز

* إن الصوفية هنا وهناك، وفى كل مكان يتربصون فيه بالإسلام، يؤمنون بكتبهم إيماناً عنيداً طاغيًا يأسر منهم فى قبضته القاهرة عواطف القلوب ومشاعر النفوس وسبحات الخواطر، وتأملات الفكر، ويدينون بكل حرف فيها يرمز إلى أسطورة، وبكل كلمة تفشى خرافة، فما تناوحت إحساساتهم بالحب إلا لها، وما فتك بالقلوب إخطبوطهم إلا بها، وما قتلت عناكبهم ذباب النفوس إلا بلعابها السام.

بيد أنهم حين يلقون المؤمنين، يقولون رياء ومخادعة «مدسوس» حتى إذا خلوا إلى شياطينهم، قالوا: نغبن المؤمنين. وإلا فإنى أدوى بصيحة الحق، تتحدى الصوفية وطواغيتها أن يجرؤ واحد منهم على القول، أن تلك الكتب مدسوسة، أو يستنكر ما تطفح به من كفر، وليأتنا بآثاره من علم، أو ظن تدل على أنها دعية النسب إلى من افتروها.

نعم أدوى بصيحة الحق، إن تلك الكتب ليست بمدسوسة، ويشهد بذلك التاريخ الحق، وتواتر النقل الصحيح، ولكن هبوها كذلك، فما ينفعكم وأنتم بها تدينون، وتؤمنون إيمان عابد الخمر بالدن والكأس والعربدة !! مدسوسة! إنها الترس الأخير، يلوذ به من ينأد منكم صدمة الحق الصاعقة، وشهادة زور تفترى لينجو بها المجرم من عقاب جريمته.

* وآخرون من أسارى الصوفية يزعمون أن تلك الكتب أسرار ورموز، لا يفقهها إلا أولئك الذين أباح لهم الغيب الخفى مكنونه، وقدس أسراره، أو الذين هتك الله عنهم الحجاب الأعظم، فخروا تحت عرشه سجداً يسمعون وحيه، ويسجلونه رموزًا فى شعرهم ونثرهم !!.

من صفات القرآن – ياهؤلاء – أنه بيان للناس، ومن الناس عالمون وجاهلون، ومنهم أميون وكاتبون قارئون، ولكن الله جعله بيانًا لهم جميعًا، ميسرًا للذكر، ليعبد كل امرئ ربه على بصيرة.

بيد أني سأنحدر إلى فرية أولئك، فأزعم أن كتب الصوفية رموز مقنعة بالخفاء، وأسرار ملثمة بسحر الغيب.

ولكني أسألك، كيف يعبد الله برمز مقنع بالإبهام، وسر مستغرق في الغموض يحمل من الكفر وجهًا ظاهرًا؟ أيحق لامرئ أن يعبد ربه بشيء أطبق عليه الجهل به، وبغير ما شرعه الله في كتابه وأوحاه إلى رسوله؟!!. وأسألك، أتفقهون– معشر الصوفية– دلائل تلك الرموز أم لا تفقهونها؟ فإن تكن الأولى، فأبينوا لأتباعكم، لتطمئن قلوبهم بالمعرفة، ولننصفكم كذلك، وإن تكن الأخرى فإنها دين الببغاء تردد مالاتعي.

أما مع الحق، فأقول: لقد قرأت لابن عربي، ولابن الفارض، وغيرهما، جل ما كتبوا، وما شرح به تلاميذهم تلك الكتب، فلم أجد في كل ما قرأت رمزًا مستورًا، ولا سرًا خفيًا، بل دلائل صريحة تكشف في جلاء صريح عن حقيقة معتقد الصوفية !! فمثلا، ترى أي رمز في قول ابن عربي «العارف من يرى الله في كل شيء، بل يراه عين كل شيء» إن ابن عربي خشي أن يتوهم أتباعه حتى «الظرفية» المجازية في كلمة«في» أو الحلولية الحلاجية وفيها ثنائية تناقض الوحدة، خشي ابن عربي ذلك، فأطاح الوهم بيقينه الجازم، ليؤمن الصوفية بوحدة الوجود إيمانا لاتنال منه شائبة وهم، ليؤمنوا بأن الله هو عين كل شيء، وأن كل شيء هو الله!! أفي ذلك رمز أم بيان صريح؟[1]

***

١– هذه هي الصوفية صـ ٨٧–٩٠ بتصرف.

التصـوف السنى :

لقد قيل: إن هناك تصوفا سنيا، هذه صفته:

«التصوف الإسلامي الخالص إيجابي لا سلبي، فيأخذ طالبه، والسالك فيه بأسباب الدنيا وأسباب الآخرة، ويجعل ممارسته بالعلم والعمل والحال عاملاً نافعًا بجسده في الدنيا وبنيته مستقبلاً للآخرة، وأما قلبه فيكون دائمًا مع الله، ابتغاء مرضاته ورضوانه، وبهذا وذاك يكون التصوف الحق زادا لقلوب الصديقين، وشعارًا لعباد الله الصالحين.

وذلك لأن الصوفي الحق إذا رأيته أو عاشرته أو عاملته أو جاورته أو صاحبته علمت أنه رجل دائب الفكر، كثير الذكر، دائم العبرة، غزير الحكمة، محب للعلم، كاره للجدل، وهو قليل المنازعة في الأمور، سهل المراجعة للصواب، وهمته دائما محصورة في البحث عن الحق، ولو ظهر على لسان غيره من الخلق، وأنه وراء ذلك أوسع الناس صدرًا، وأقبلهم لهم عذرًا، وألينهم للحق قيادًا، وأصعبهم على الباطل مراسًا، وأعزهم نفسًا، وأعفهم شخصًا، وأكثرهم ودًا، وأعمقهم حبًا، وأدومهم مثابرة وصبرًا، وأوفاهم عهدًا، وأكثرهم أدبًا، إن ضحك تبسم، وإذا غضب لا يتجهم، وإن تجهم فهور رؤوف بمن يعاديه ووصول لمن يواليه، ولا يخوض في أمر لا يعنيه، ولا يدعي أبدا ماليس فيه، وهو ورع عن الشبهات ومبغض للمحرمات ، وحافظ للأوقات، ولاسيما مواقيت العبادات وأخصها الصلوات وهو كريم في عطاه وقليل في أذاه، مكرم للغريب، وراحم لليتيم، فهو سلس القياد، سهل العريكة إلا في حق ينشره أو ينصره، وباطل يدفعه، أو شارد عن الصواب يرده أو يزجره. حياؤه ظاهر في وجهه وخوفه من الله تعالى رابض في قلبه، مع الطمع في عفوه، والرجاء لرحمته، ومن طباعه حفظ الأمانات والبعد عن الخيانات، فيرى غير حاسد ولا غادر، ولا عياب ولا مغتاب.

وهو دائم الحركة، عفيف المكسبة، صادق في طريقه، معين لأخيه، وعطوف على رفيقه، راغب في الخيرات ومقيل للعثرات، وممتنع عن الاعتراضات من جهة الخلق أو من جهة أفعال الحق وهو مستعد الوثبات للدعوة الخالصة إلى الله، ولا مطلب له من ذلك سوى وجه مولاه[1].

ذلك سوى وجه مولاه[١].

وتلك الأخلاق كلها في حقيقتها إقتباس من أخلاق رسول الله ﷺ الذي وصفه الله تعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ بعد الرسول ﷺ كانت من أخلاق الصحابة والتابعين وتابعي التابعين رضوان الله عليهم أجمعين[٢].

وإلى هنا نكون قد عرضنا على القارئ الكريم صفات التصوف والصوفي بمالا يخرج عن حدود الشريعة الاسلامية في كمالها مبنى ومعنى[٣].

وقد قيل أيضاً :

التصوف السني هو التزام كل ما ورد عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، ويلتزم بكتاب الله ويتحرج من اقتحام قضايا الايمان ويحترم غيبها لأنها صادرة من الحق جل شأنه.

والتصوف السني لايؤمن بالرقص والطرب ولايأخذ برفع التكلف وانتهاك الحرمات، وتحليل الحرام وتحريم الحلال.

والتصوف السني هو قمة العبودية الحق لله، والأذعان لأوامره واجتناب نواهيه ومحاربة البدع والأهواء والضلالات والوثنيات.

والتصوف السني يتمسك بالتوحيد الخالص النقي الصافي الذي لاتشوبه شائبة ويحترس من كل ما يمس التوحيد الخالص من شبه الشرك والكفر والالحاد ظاهراً أو باطنًا جليًا أو خفيًا [٤].

وقبل ذلك، التصوف إذا ماتطابق مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عنهما عملا وتطبيقًا ، ولم تلوثه أدران البدع ، فهو السنة الصحيحة التي نطمئن إليها، وأهله هم الفرقة الناجية[٥].

١- أين نجد هذا الصوفي في عالم الواقع.

٢- فلماذا لا نسمي الأشياء بأسمائها؟

٣- التصوف الإسلامي الخالص، تأليف السيد محمود أبو الغيض ص ١١- ١٣ ط دار النهضة مصر سنة ١٩٧٧م.

٤- التصوف السني د/ السيد الجميلي : ٦٠.

٥- التصوف السني د/ السيد الجميلي ص ٥.

مأأيسر أن يدعى الانسان بكثير من الدعاوي ، لكن أين هي من الحقيقة؟

وبعد، فإنه- وللأسف الشديد- قد ظهرت الدعوة للتصوف من جديد، وبعد أن ظن المصلحون أنها قد مضت فلا ترجع، وماتت فلا تنشر، وذلك بعد أن أظهروا زيفها، وكشفوا عوارها، وأزاحوا الستار عما تخفيه وراءها من جيوش الخراب والدمار، وتلك الجيوش الكافرة الفاجرة التي ما فتئت تضرب في جسم أمة الإسلام حتى مزقته أشلاء، وطرحته لكلاب الاستعمار أجزاء، فامتصوا دمه، وأكلوا لحمه، وكسروا عظمه، وواروه التراب، وظنوا أنه لايبعث إلى يوم الحساب.

وماأن نشر الله أمة الاسلام بعد موتها، وعادت إلى الحياة من بعد مفارقتها، ورآها العدو الثلوث المركب من اليهود والمجوس والنصاري، ورآها وقد تحررت ديارها، وتخلصت من نير الاستعمار الغربي بلادها وأقطارها، فلم يعد فيها سلطة الكافر، ولاسلطان لكافر، ولاسلطان لكفار، آلمها تحررها، وأكربها وأحزنها خلاصها واستقلالها حتى راح يبحث عن عملائه الأقدمين، وجنوده المخلصين من دعاة التصوف، وأدعياء المتصوفين[1] فأخذ يجمع شتاتهم ويحرك طلائعهم بهم في المعركة لضرب أمة الإسلام مرة أخرى ليوهنوها ويضعفوها ويومها يضعها مرة أخرى تحت كتلته ليمتص دمها ويأكل لحمها وعظمها كما فعل بها في المرة الأولى، والعياذ بالله تعالى.

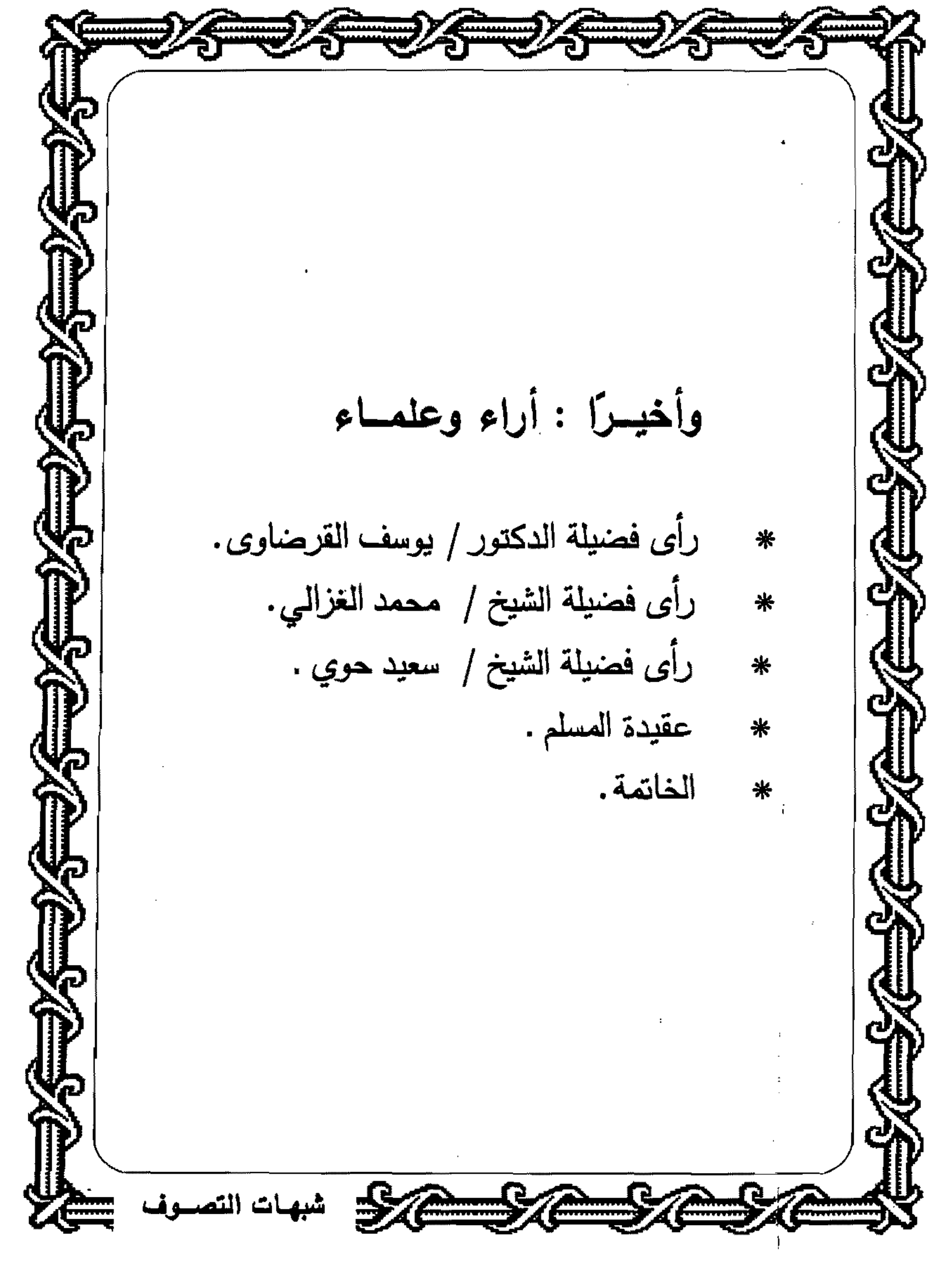
ومن هنا- قد رأينا بأم أعيينا تجرء أدعياء التصوف الزائف، ودعاة المتصوفة المرتزقة نحو أمة الاسلام ليزيدوا في محنتها، وتوسيع هوة الشقاق والخلاف بينهما، فهذا يؤلف كتابًا ويكتب رسالة، وذاك يفتح زاوية ويوزع مناشير، وآخر يعقد مؤتمراً ويقيم احتفالات يشكك في الدعوة الإصلاحية السلفية ويطعن في دعاتها وحماة راياتها قديمًا وحديثًا.

١- وليس غريبا أن تلاحظ اهتمام الغرب والماسونية حيث تسهل لهم الأمور وتعقد لهم الندوات والمؤتمرات وتفتح لهم المراكز الاسلامية أبوابها شأنهم في ذلك شأن الفرق الأخرى مثل البهائية والقاديانية. إذاً لا غرابة عندما تجد أن حكومة مثل الحكومة الهولندية تقوم ببناء أكبر مسجد للطائفة البهائية فى هولندا.

ولقد ساعد على تحرك المتصوفة في هذه الأيام، وإظهار دعوتهم تخوف بعض الحكام في بلاد المسلمين من الدعوة السلفية إذ رأوا فيها مايبعث على الانقلاب الفكري والروحي الذي قد يؤدي أخيرا إلى انقلاب إداري شامل يقضي على مظاهر الفسق والفجور في ديار المسلمين، ويعود بالأمة الاسلامية إلى عهد سلفها الصالح عهد تحكيم الكتاب والسنة والهجرة والجهاد إلى أن تبلغ أمة الاسلام غاياتها في الطهر والصفاء، والعزة والكرامة، وحتى لاتكون فتنة، ويكون الدين كله لله. لهذا التخوف تحالف بعض جهال الحكام مع ضُلال المتصوفة على محاربة دعاة الدعوة السلفية الإسلامية بين المسلمين فترى بعضاً منهم لايؤمنون بالله ولقائه لما أصاب قلوبهم من الالحاد الماركسي يساعدون على نشر التصوف الباطل فيسهمون في إقامة الحفلات الصوفية، ويسهلون أمور القائمين عليها، ويحوطونهم بعناية وحماية في الوقت الذي يضطهدون دعاة الاصلاح، وينكلون بهم ويسكتونهم، ومن هنا- أخي المسلم- وجب التنبيه بسرعة إلى خطر هذه الدعوة الصوفية الجديدة قبل استفحال أمرهم، وانتشار شرها بين المسلمين، والتي يخشى أن تضع أمة المسلمين مرة أخرى تحت وطأة الاستعمار بعد أن أنقذها الله تعالى منه بدعوة الإسلام التي حمل رايتها السلفيون وجاهد المسلمون تحتها حتى تحررت ديار المسلمين وبلادهم من الاستعمار الغربي الغاشم الظلوم[1].

* * *

١- إلى التصوف ياعباد الله- ص٣ و٤ بتصرف.



وأخيـرًا : أراء وعلمـاء

* رأى فضيلة الدكتور / يوسف القرضاوى.
* رأى فضيلة الشيخ / محمد الغزالي.
* رأى فضيلة الشيخ / سعيد حوي .
* عقيدة المسلم .
* الخاتمة.



أراء في التصوف لبعض العلماء:

قال فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى:

التصوف هو العلم الذي يبحث في الجانب الأخلاقي والعاطفي من الثقافة الإسلامية.

ولا ينكر الدارسون أن التصوف قد أثرت فيه– إلى حد ما– عوامل أجنبية: مسيحية أو هندية، أو فارسية أو يونانية، إلى جوار العوامل الإسلامية أيضاً، وأنه قد دخلت فيه على مر الأزمان أفكار غريبة من شتى المصادر المذكورة أو غيرها.

حتى انتهى بعض أنواع التصوف إلى القول بالحلول أو الاتحاد، أو وحدة الوجود(١) وكان لبعضهم كلام عن « قِدَم النور المحمدي» أو مايسمونه « الحقيقة المحمدية». وكان عن الولاية والأولياء، وعن الكشف والمواجيد والأذواق وتحكيمها في النصوص الدينية وتفرقتهم بين الحقيقة والشريعة، وتربية المريد أن يكون بين يدى الشيخ كالميت بين يدي الغاسل، وغلوهم في الزهد ومايتعلق به إلى حد يخرج من وسطية الإسلام إلى رهبانية النصارى، ولهذا ولغيره، وقف كثير من الحريصين على التمسك بالسنة موقف الريبة بل الخصومة، من التصوف وتراثه ورجاله، وأعلن بعضهم حربا علي التصوف كله، قديمه وحديثه، وسنيه وبدعيه وحمله أوزار كل الانحرافات الفكرية والسلوكية التي ابتلى بها المسلمون في القرون الأخيرة، وبالتالى دعا إلى نبذ هذا التراث وهجره خشية ما يتخلله من مفاهيم لا تتلاءم مع الإسلام ، والذي نريد أن نؤكد عليه هنا :

أولاً:–

أن التصوف الفلسفي كله مرفوض من أساسه، وإذا درسناه فإنما ندرسه لنرد عليه ونبين فساده ومنافاته للإسلام، ونريد بالتصوف الفلسفي: القائم على فكرة «الحلول» و « وحدة الوجود».

١– انظر: فصل «التصوف الفلسفي» من كتاب « مدخل إلى التصوف الإسلامي» للأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني ص ٢٧٧ وما بعدها.

ثانياً:

إن الذي يعنينا من التصوف هو الجانب الأخلاقي والتربوي[1] وهو الذي قال فيه «ابن القيم» في «مدارج السالكين»: (اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق ، وعبر عنه الكناني بقوله: (التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف).

ثالثاً:

إننا يجب أن ننتقي من التصوف مايخدم العقيدة الاسلامية والأخلاق الاسلامية، وندع كل مافيه شائبة أو ريبة، وننتفع في ذلك بمن نقد الصوفية، مثل ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» وغيره.

كما أن الانصاف أن نبين أن في التراث الصوفي – على مافيه من مآخذ – فوائد لا تنكر منها:

١ – أنه يجمع كثيراً من أقوال الصالحين، وحِكَم الزُهاد والعُباد، وأهل التقوى والبصيرة.

٢ – أن فيه لفتات روحية مشرقة في فهم الآيات والآحاديث والتعليق عليها لاتوجد عند غيرهم.

٣ – أن الصوفية – حين عنى الفقهاء بأحكام الظاهر المحس، والمتكلمون بالجانب العقلي الجاف – عنوا هم بأحكام الباطن، ودراسة آفات النفوس ومداخل الشيطان إليها، وكيفية وقايتها وعلاجها. ولهم في ذلك من الممارسات والتجارب والمعارف ما ليس لطائفة غيرهم.

٤ – أن في أقوالهم حرارة وحيوية يلمسها قارئها، لعل ذلك نتيجة المجاهدة النفسية والرياضة الروحية التي يعانونها، وليست النائحة كالثكلى.

٥ – أن الصوفية الأوائل الذين وضعوا أسس التصوف ومهدوا طريقه، ورفضوا كل

---

١ – والأهم من الجانب الأخلاقي صحة العقيدة، فهي ملاك الأمر كله وروح الدين كله، وهي التي تقوم العمل والخلق، فأين الصوفية من العقيدة الصحيحة؟

محاولة لإخراجه عن الشرع ، وأبوا إلا تقييده بالقرآن والسنة.

قال سيد الطائفة «الجنيد»: من يقرأ القرآن، ويكتب الحديث، لايقتدي به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة. وقال: مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة. وكذلك جاء عن أبي حفص والداراني وابن أبي الحواري والسري السقطي وغيرهم، كما نقله عنهم القشيرى وغيره[١].

٦- أن من أئمة الدعوة السلفية من تكلم في التصوف وألف فيه، ورد على باطله، وأشاد بما فيه من حق، كما يتضح ذلك في رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، مثل «العبودية» و «التحفة العراقية في الأعمال القلبية» ورسالة «الفقراء» وغيرها من الفتاوي والرسائل والبحوث، والتي ظهرت في مجلدين من مجموع فتاويه، أحدهما تحت عنوان: «التصوف» ، والثاني تحت عنوان: «السلوك » وكذلك مؤلفات تلميذه المحقق العلامة ابن القيم في ذلك وهي كثيرة منها: طريق الهجرتين، وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين والداء والدواء، وأعظمها: «مدارج السالكين شرح منازل السائرين» في ثلاثة مجلدات، وفيه وزن علوم القوم بميزان الكتاب والسنة[٢]؟

وقال فضيلة الشيخ محمد الغزالي «في خطبة جمعة له بمسجد النور بالعباسية».

لقد أحببت أن ألقي نظرة خاطفة على التصوف والتراث الصوفي، وأن أكون منصفا قدر ما أستطيع، فلا أهادن خطأ، ولا أتتبع عورة، ولا استهجن صواباً ولا أغمط لأحد حقه، واجتهدت في هذا، وفي الحقيقة قرأت في التراث الصوفي لكثيرين.. لمنصفين يحبون مذهبهم ويتعصبون له ويدعون إليه.. وقرأت لنقاد يحملون على هذا اللون من الثقافة الإسلامية يضيقون به، ثم يختلفون، فبعضهم ينصف في نقده كما قرأت لابن القيم في كتابه «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» الذي يرد به على كتاب «منازل السائرين» لشيخ الإسلام «أبي إسماعيل الهروي»[٣]

١- انظر «مدارج السالكين ج٢ ص ٤٦٤ وما بعدها ط السنة المحمدية.

٢- انظر ثقافة الداعية للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي ص ٨١- ٨٣ط مكتبة وهبة.

٣- هو عبد الله بن محمد بن علي الهروي الحنبلي الصوفي، المتوفي في ذي الحجة سنة ٤٨١هـ.

الصوفي – وفي الحقيقة أن الجدل بين الرجلين – هنا – كان على مستوى عال من عمق الفقه، وحسن الخلق وتحرى الحق والرغبة في نفع المسلمين وإرضاء رب العالمين.

* أول ماألفت النظر إليه أن مايسمى طرقًا صوفية في البلاد الإسلامية بينها وبين التصوف القديم بماله وما عليه بخطئه وصوابه، بين الطرق المعاصرة وبين هذا التصوف القديم مسافة شاسعة، بل تكاد تكون العلاقة منقطعة.

علاقةالطرق الموجودة الآن بالتصوف القديم شبه علاقة اليونان الذين يبيعون الخبز في الأفران، أو المسكرات في الحانات، أو البقالة في حوانيتها بالنسبة إلى سقراط صاحب نظرية المعرفة، أو أفلاطون صاحب نظرية المثل، أو أرسطو صاحب المنطق.

* الفرق بعيد بين صوفية العصر والحاضر والمتصوفين القدامى.. والمتصوفون القدامى أنواع، فيهم فكر فلسفي انتشر قديمًا وعرف رجاله مثل: محيي الدين بن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين، وهذا اللون من التصوف كان موضع ضيق من جمهرة المسلمين ورفضه أغلبهم، لأنه تصوف فلسفي، وتصوف فلسفي غلبت عليه عناصر مستوردة من فكر رواقي يوناني أو فكر هندي أو فكر بعيد الصلة بالإسلام، وهؤلاء قد يقع الخطأ من أحدهم فيكون خطأ شنيعًا، ومن أخطاء ابن عربي – وهو فيلسوف صوفي – أنه يرى أن فرعون نجا وأنه من أهل الجنة.

الله يقول: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[1] فكيف يقال عن هذا إنه نجا؟

الله يقول: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾[2].

ومن ذلك فقد قرأت رسالة للرجل يقول فيها: إن فرعون آمن ومات طاهرًا لأنه عند الغرق قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3]

فالرجل آمن ومات طاهرًا – طاهرًا؟!!! ماهذا يارجل؟ آمن في وقت لايصلح فيه إيمان، والله قال له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[4].

---

١ – سورة هود، آية ٩٧ و٩٨.

٢ – سورة القصص، الآية ٤٢.

٣ – سورة يونس، الآية ٩٠.

٤ – سورة يونس، الآية ٩١.

فخطأ ابن عربي هنا مع أخطاء أخرى تنتسب إليه ويعرف بها وتجعلنا نؤيد جمهرة المسلمين في رفضهم للفلسفة الصوفية عمومًا، لأنها بعيدة عن الإسلام.. وبعيدة عن المنطق الديني- بعيدة عن الضوابط الفقهية التي لابد منها لإدراك الحقائق.

* لكن المسلمين عموما قبلوا التصوف السلوكي.. أي قبلوا تصوف الأخلاق والآداب، والشمائل والذكر والعبادة، ومن أئمة هذه الطريقة التربوية أو السلوكية: «أبو الحسن الشاذلى»- وشيخ المذهب لون، وأتباع المذهب بعد ذلك قد يخطئون ويصيبون، وأبو الحسن كان رجلاً له فقه، وله مع الله أدب، وله مع الناس توجيه حسن، وهو صاحب التوجيهات اللطاف، كان غنياً، وعندما وضع أحد الدراويش يده على ثوبه فوجده سخيًا، فقال ياإمام أهذا ثوب يعبد الله فيه؟ قال له: ثوبي ينادي عليّ بالغني عن الناس، وثوبك ينادي عليك بالفقر إلى الناس.

وأبي الرجل الكبير إلا أن يكون ثوبه حسنًا مخالفًا حمقى المتصوفة الذين كانوا يلبسون المرقعات، ويرون ذلك من باب التواضع لله أو الزهد في الدنيا.

«ابن عمر» رضي الله عنهما- وهو متشدد في معاملة نفسه- قال لمن استنصحه البس مالا يزدريك فيه السفهاء، وما لايعيبك عليه العقلاء.

ملابس عادية محترمة لاهي مزخرفة ولا هي سيئة.

وأيضاً: «أبو الحسن» هو صاحب الكلمة المشهورة- قال له تلميذ: أنا أترك الماء في الشمس، قال له: لم؟ قال: أحارب نفسي فهي تشتهي شرب البارد، فقال له: انقل الماء من الشمس إلى الظل فإنك إن شربته بارداً فحمدت الله انتزعت الحمد من أعماق قلبك!! كان رجلاً عاقلاً. من هذا المسلك «مسلك الحسن» جاءته حلوى فاخرة، فأخذ يوزعها، فانقبضت يد صوفي حوله وأبي أن يأكل، فقال له الحسن: كل ياأحمق-. في الماء العادي نعمة لاتستطيع أن تقوم بشكرها!! التصوف عاطفة.. والعواطف أحياناً تكون سائحة- غير مضبوطة- فلابد من ضبط العاطفة.

* التصوف السلوكي انتشر بين المسلمين وانتشرت طرقه، وعرفه ابن خلدون بأنه

«علم محدث في الملة يتصل بأعمال القلوب والجوارح»[1] وهو تعريف لابأس به- مامعنى أنه محدث في الملة؟ أكثر العلوم استحدثت عناوينها وإن كانت موضوعاتها قديمة، بمعنى أنه مايتصل بالإيمان وقضاياه والدفاع عنها- خصوصا عقيدة التوحيد ومايحميها- فهذا علم استقل به علم الكلام أو علم التوحيد أو علم العقائد.. ومايتصل بالعبادات من وضوء وصلاة وزكاة وصيام وحج، فهذا علم انفرد به فقه العبادات.. وما يتصل بالبيوع والتجارات والشركات والكفالات والحوالات فهذا علم انفرد به فقه المعاملات.

تفسير القرآن له علم التفسير.. السنة ومايتصل بتقويم السند، ومعرفة الرجال انفرد به علم الحديث دراية.. وما يتصل بالمتون وماروى عن النبي ﷺ انفرد به علم الحديث رواية.. وما يتصل بحب الله والصبر والشكر والخوف والرجاء والورع وغير ذلك من المعاني فانفرد به علم التصوف، وكتبت المؤلفات على هذا الأساس.

* عند التأمل وجدت التراث الصوفي يشبه منجمًا مليئًا بنفائس كثيرة، وبتراب كثير، وغثاء كثير، وإن الذي يدخل هذا المنجم قد يكون غبيًا فلا يخرج إلا بقفف من التراب، وقد يكون ذكيًا فيستطيع أن يستخرج بعض النفائس وينتفع بها!! وأشهد أن ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين»- وابن القيم تلميذ لابن تيمية وكلاهما خصم للصوفية- أشهد أن ابن القيم كان منصفًا لأنه ماوجد خيرًا إلا التقطه ونماه، وما وجد خطأ إلا ورد عليه بالحسنى، واجتهد أن يعتذر لصاحبه- إن كان له عذر- وكان متواضعًا لله، غمط نفسه ومكانته وعندما قال: إذا كنت قد أصبت بعض الحقائق التي لم يرها شيخ الإسلام، فأنا مع شيخ الاسلام كالهدهد مع سليمان عندما قال له ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾[2] والهدهد هو الهدهد، وسليمان هو سليمان.

في الحقيقة هذا اللون من البحث عن الحقيقة والأدب مع الخصوم يحتاج إليه

١- انظر مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٢ المطبعة الأزهرية.

٢- سورة النمل، الآية ٢٢.

الكثيرون في مصرنا، فإن أمتنا فقدت كثيراً من أدب البحث ومن حق القول ومن تزيينه للآخرين حتى يكون حبيبًا إليهم، وكثير من الذين عرفوا بعض الحقائق لم يحسنوا عرضها، وربما كانوا فتانين يصدون الناس عنها.

* لقد قرأت- كما قلت- في الثقافة الصوفية شيئاً كثيراً، فوجدت أن هناك أمورا ينبغي أن نأخذها من هذا التراث، وقد تكون موجودة ضمن علوم إسلامية أخرى- لا بأس، لكن التوسع فيها والحديث عنها كثر في التصوف وتناوله أولئك العلماء بعاطفة حارة ونفس ملتاعة، وأحيانا أشعر والكلمة تخرج من مربٍ كبيرٍ في ميدان التصوف أو من محبٍ لله ، أشعر كأن الكلمة فيها لذ ع الأشواق ونور الحب والرغبة في مرضاة الله.. عليها من قلب صاحبها رواء يجعلها تصل إلى القلوب. والتصوف من هذه الناحية يقبل يقينا، لماذا؟ لأنه تدريب على مقام الإحسان.. الإحسان تعريفه: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] هذا كلام نظري، لكن عند التطبيق كيف يتحول الإدراك النظري إلى حس حقيقي تشارك فيه المشاعر، ويكاد الانسان يلمس بيده مايريد أن يوضحه للناس، لأضرب لكم مثلاً: المدرس عندما يشرح للطلاب في الفصل حقيقة من الحقائق، إذا لم يكن هذا المدرس في دماغه من الوضوح والعمق، وفي لسانه من القدرة على الأداء ماينقل هذا الوضوح إلى القلوب والعقول فإنه سيكون مدرسًا فاشلاً.. وكذلك جعل الناس يحسون بعظمة الله، وينبعثون إلى طاعته بعزائم صلبه وشوق ملحاح، إن غرس هذه العقائد في النفوس لايقدر عليه عالم نظري، ولا عالم مرتزق ولاعالم من طلاب الدنيا، إنما على لسانه ووصل إلى القلوب، ومن هنا استطاع أولئك الصوفية الأقدمون أن يؤثروا في الجماهير حتى دخلوا أدب اللغة العربية العادي، ونقلوا منه مالا يصلح أن يكون إلا لله.

أبو فراس الحمداني- شاعر- مدح سيف الدولة بأبيات... رفض الصوفية أن تكون هذه الأبيات في سيف الدولة ونقلوها في مدح الله.

فليتك تحلو والحياة مـــريرة   وليتك ترضى والأنـــام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامــر   وبيني وبين العالمين خــــراب

١- جزء من حديث طويل، ورواه مسلم عن عمر بن خطاب رضي الله عنه، في كتاب الإيمان جـ٢/ ٢٩.

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب[1]

نقلوها في معاملة الله، والله أولى بها في الحقيقة، والله أولى بهذه المناجاة وهذا المدح... لهم في هذا أشياء جديرة بالتأمل.. ولقد قرأت في هذا كتاب« حِكَم ابن عطاء الله السكندري» رفضت الشروح التي حوى هذا الكتاب، لكن وجدت حِكَم الرجل من أنضر ماقرأت في حياتي..

في أدب السلوك ومعاملة الناس يقول:

«تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذُلك يمدك بعزة، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته « وهذا كلام صحيح.. لأن الله لايقبل إنساناً يجيء إليه شامخًا.. أنت عبد مقبل على سيدك، فلماذا هذا الشموخ؟!

ويقول في هذا : «معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً و استكباراً» وهذا كلام صحيح، ثم يعيب على الناس ماهم فيه، فيقول: «اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة بك» كفل الله لك شيئاً وكلفك شيئاً، ماكفله لك تنشغل به، وما كلفك به تكسل عنه؟ انطماس بصيرة، وهذا كلام صحيح، لأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ حتى يتعلم العباد منه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2].

تأمل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ياأخي لو أن رئيس الدولة– ومـا رئيس الدولة ؟ قـال لك: سأعطيك كذا، فإنك تصدقه فوراً، فكيف بملك الملوك؟ لماذا ترتاب؟ ماوجه الريبة؟ لكن يقول لك ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ترتاب. في التربية نجد أموراً تحتاج إلى دقة، ولذلك لايستطيع، أولا ينبغي أن يدخل في هذا الميدان من لايحسنه.. من أوائل ماكتبه «ابن

١– ديوانه: صـ ٦٨ط مكتبة الحياة– بيروت.

٢– سورة طه: آية ١٣٠– ١٣٢.

عطاء الله»: «ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لايتم نتاجه» كلمة غريبة، وربما قرأها أحد الناس الآن فقال: هذا هو الجنون الديني.. رجل يقول لتلميذه: ادفن نفسك في أرض الخمول طبعا معنى الكلمة ليس كما يتصور قصار الفكر والنظر، معنى الكلمة: لا تتقدم الصفوف حتى تنضج، لا تحاول أن تكون إمامًا قبل أن تستكمل مسوغات الإمامة... بعض الناس لأنه صنع قصيدة يريد أن يكون شاعر الغبراء.. بعض الناس لأنه كتب مقالاً يريد أن يكون أديب الأدباء، لا.. كما تختفي الحبة في التراب فلا تظهر مدة من الزمن حتي تستكمل قدرتها على الإنبات والاخصاب والإثمار، ثم تبدأ تشق طريقها لترى الشمس والهواء، كذلك على كثير من المتعلمين ألا يستعجلوا الشهرة وأن يعيشوا جنودا مجهولين يستكثرون من المذاكرة والتحصيل ومن أمور كثيرة حتي يمكن أن يكونوا نافعين.. أما الحبة التي توضع فوق ظهر الأرض فلا ثمرة لها ولا نتاج، ومادام حريصا أن يرى من أول يوم فلا خير فيه: «ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لايتم نتاجه».

ويقول: «ما بسقت أغصان ذل إلا علي بذور طمع» وهي كلمة جليلة، كلمة عظيمة، وكما قال الشاعر:

ملكت نفسي مذ هجرت طبعي اليأس حــر والــرجاء عـــبد

مادمت ترجو غنيا أو حاكما فأنت ذليل.. اليأس حر والرجاء عبد- ما دمت ترجو فأنت ذليل. عندما تيأس من الخلق وتعاملهم على أن لا أمل فيهم إطلاقًا فأنت ملك.

* هذا فيما يتصل بالناحية الطيبة في التصوف.. وهناك نواحٍ مخيفة.. ماهذه النواحي؟

النواحي كثيرة، اكتفى منها بثلاثة أمور.. **الأمر الأول**: كثرة المبتدعات مع جماح العاطفة، بمعنى أن ناساً كثيرين اخترعوا من عندهم أمورا كلفوا الناس بها، وعندما أنظر إلى العبادات أجد أن الشارع هو الذي استقل بتكليف الناس بها، معنى الحكم الشرعي. خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين.. ولذلك لايمكن أن يضع حكمًا شرعياً بشر، لأن رب البشر هو الذي يكلف، نشأ عن سوء التكليف عندنا- عندما أخذ بعضنا

يكلف البعض الآخر- نشأت مفارقات كانت من بين أسباب ضعف الأمة الإسلامية الفكري والفقهي يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾(١).

هذا نص قرآني، على رأسي ، مامعنى أن ادعو الله باسمه الحسن؟ واحد يقول لك: قل يالطيف، مائة ألف مرة بالليل، هذا تكليف من عند واحد من الناس.. المعنى الحقيقي للآية، أضرب له مثلين لتدرك ماالمقصود شرعًا بهذا.. عندما تأمل يوسف الصديق أيامه التي مضت.. لما كان طفلاً في أحضان أبويه، لما اختطف وبيع عبداً رقيقًا بثمن بخس دراهم معدودة، لما تعرض لفتن النساء في القصور، لما أصبح واليًا على شئون المال، لما تربع على عرش مصر، استعرض هذا كله ثم أعجبه القدر وتصرف الله معه، فقال كما بين لنا القرآن: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢)

ملاحظة اللطف الإلهي في تاريخ البشر، في حياة الناس، في المسالك العادية اعبد الله بهذا، بملاحظة اللطف الإلهي.. هذا في تاريخ البشرية.

- أما في الأحوال العادية فعندما ترى التراب الميت تنزل عليه المياه من السماء، فاذا الحبة المدفونة تخرج حاملة السكر والزلال والدهون والفيتامينات والأملاح . . من صنَعَ هذا ؟ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٣)

لطيف – لطافة : ينبغى أن تُدرس، علم يُدرس، الأسماء الحسنى لها معان كثيرة، ممكن أن ألحظ معنى «المنان» كيف مَنَّ على أبى، كيف مَنَّ علىَّ، كيف منَّ على غيرى، ألاحظ المن الإلهى فى كل شىء . . ولأبى حامد الغزالى كتاب اسمه «المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» وهو كتاب لطيف . .

ينبغى أن يعرف الدعاة إلى الله الفرق بين أنواع التفكير البشرى . .

«ابن حزم» فيلسوف، لكنه رجل مساح لظاهر الحياة والتواريخ مع ذكاء غير عادى.

«ابن تيمية» فقيه لا نظير له فى حرية الفكر والأخذ من المنابع الأصلية للإسلام،

١- سورة الأعراف، الآية ١٨٠. ٢- سورة يوسف ،الآية ١٠٠. ٣- سورة الحج، آية ٦٣

ولكنه يحمل دماغ فقيه فقط، بينما «أبو حامد الغزالى» يحمل دماغ فيلسوف، ولذلك فإن كلامه فى التربية يكاد يكون المصدر الأول أو الأوحد فى الثقافة الإسلامية وهذه طبائع الخلق . .

من هنا أحب أن أقول للناس: من أعجبه من التصوف ما ذكرناه فليضبط نفسه بضوابط الشريعة، فالبدع كلها مرفوضة، هذه واحدة.

* الأمر الثاني :

ما يتصل بقانون السببية . . من الظلم أن أقول : إن المتصوفة من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية لأنها وهَّنت قانون السببية، لأن هذا التوهين اشترك فيه علماء الكلام وخصوصًا الأشاعرة، واشترك فيه عدد من علماء الحديث – الحقيقة أن قانون السببية قانون ملزم، وأن ما يقع لهذا القانون من خوارق هو شذوذ، والشذوذ كما قيل: يؤكد القاعدة ولا يهدمها، فإذا كانت النار تحرق فالنار تحرق، كون النار لم تحرق إبراهيم فليس معنى أن النار تخلف حريقها أو انهدم قانونها، لا . . إبراهيم وحده له معجزة خاصة، وبقى القانون على امتداده يطبق على الكل، فلو رميت أحدًا فى النار فينبغى أن يُقبض علىَّ، على أننى قاتل، وما يغنى عنى أن يقال : النار كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم، لا . . هذا كلام لا يقال، فالقاعدة قاعدة.

من أسباب انهيار الثقافة الإسلامية أن قانون السببية دعم من المتصوفين، فإن كل رجل طيب فيهم جعلوا خوارق العادات تحشو حياته، فهو يفتح الباب بغير مفتاح، ويطير فى الجو بغير جناح، كل شىء سهل ! !، ووجد هذا فى كتب الفقه، قرأت فى الفقه المالكى وفى الفقه الحنفى – مع أن أبا حنيفة ومالكًا من أئمة الرأى وليسا من أئمة الأثر – ومع ذلك قرأت كلامًا لابد من رفضه، وما ينبغى أن يقال أبدًا، ولا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، من ذلك قول المالكية – فى كتاب من حوالى ألف صفحة أعطتنيه حكومة قطر العام الماضى، وكما تعلمون الذى يصلى الظهر فى مكة يصليه قبل الذين يصلونه فى القاهرة بحوالى خمس وعشرين دقيقة، لأن خطوط الطول التى تنظم الوقت لها دخل فى هذا، فبين مصر، وجرنيتش ساعتان، فيجئ سائل فى الفقه

المالكى، ويقول : لو صلى الظهر فى مكة ثم طار - كيف طار ؟ وهذا الكلام من قرون - ووصل إلى المغرب، فهل يصلى الظهر مرة أخرى لأنه وصل قبل وجوبه على أهل المغرب ؟ هذا كلام سخيف، عيب.[1] أسقط العقل الإسلامى فى ميدان الاختراع والفيزياء والكيمياء وما إلى ذلك - كلام لا يليق.

الطامة التى يقولها الأحناف أن رجلاً فى المشرق تزوج امرأة فى المغرب وولدت دون أن يتصل بها، كيف هذا ؟ يقولون : هو ابنه، فقد يكون من أهل الخطوة ! ! هذا الكلام عيب أن يقال، قانون السببية طحنه المتصوفون بكثير من خوارق العادات . . . ويجئ رجل ببلاهة فيقول لك : تنكر خوارق العادات ؟ هل تنكر كرامات الأولياء ؟ وفرضنا جدلاً أن رجلاً أنكر هذا، «ابن حزم» أنكر هذا ودينه محفوظ، وغيره أقر بها إذا كانت مروية بسند صحيح ورفضها إذا كانت بغير سند صحيح، فالمسألة فرعية لا دخل لها فى العقائد ولا دخل لها فى الكفر والإيمان، هذا أمر ثان يؤخذ على التصوف.

الأمر الثالث :

هو ما يتصل بالدنيا، الدنيا سلاح خطير، يستطيع بها الإنسان بمالها وجاهها وسلطانها أن يخدم عقيدته وأن يرفع شأنها إذا كان مؤمنًا، وإذا عبدها الانسان أودت به وإذا سخرها فى خدمة الحق رفعت مستواه، وأعلت درجته، وذهبت به إلى عليين، أنظر إلى رجل «كعثمان بن عفان رضى الله عنه» أنفق على جيش واستطاع أن يجعل المسلمين يكسبون معركة . . والآن نجد العجائب، لأن المسلمين فقراء فى السنغال، فى بنجلاديش، فى الصومال، فى أندونيسيا، نجد نشاط التبشير المسيحى يعرض اللقمة بسرقة العقيدة، كيف نستهين بالدنيا ؟

«نعما بالمال الصالح للرجل الصالح»[2]

١- إلا أنه محتمل عن طريق خوارق العادات، وعمن يستخدمون الجن، وغيرهم، وقد ذكر ذلك ابن تيمية والجنيد وغيرهم، فليراجع.

٢- رواه البخاري في الأدب المفرد، باب المال الصالح، وغيره.

هكذا علمنا رسول الله ﷺ، ويقول الله : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[١] التمكين فى الدنيا . . ولاية منصب كبير. هذا شيء عظيم، يقول الله فى يوسف الصديق، لما ولاه شئون التموين والأموال وأصبح على خزائن الارض - تعليق القرآن على هذا :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٢] سمى التمكين فى الأرض رحمة، هذا فى الدنيا، لأنه بعد ذلك يقول : ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٣]

فلما جاء من قَبَّحْ وجه الدنيا للناس على كل حال خسر المسلمون دنياهم، فلما خسروا دنياهم وتمكن منها أعداؤهم ساوموهم على عقائدهم وشرائعهم وشمائلهم، فكانت النتيجة ما نحن فيه، الأمر يحتاج إلى إدراك الحقائق، ولذلك فإن التراث الصوفى كله كالفقه، ككثير من أبواب الثقافة الإسلامية المختلفة . . كل هذا يحتاج إلى غربلة وحسن نظر، والعصمة لكتاب الله، ولما صح من سنة رسول الله ﷺ . . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم[٤]

* وقال فضيلة الشيخ سعيد حوي :

أولاً: إن للتصوف فيما آل إليه جانبين : جانبًا عمليًا، وجانبًا نظريًا، والجانب العملى منه ما هو متفق مع السنة ومنه ما يخالفها، والجانب النظرى فيه منه ما هو من باب الكشوفات والإلهامات، ومنه ما كان شرحًا لطريقة التحقق بالعقائد وأخلاق النفس، والمعركة القائمة حول التصوف إنما تدور بسبب بدع الأعمال، وبسبب الكشوفات والإلهامات.

ثانياً : إن علينا فى أمر التصوف واجبين : **الأول** : أن ندل الإنسان على السير

١- سورة النساء، آية ٥ ٢- سورة يوسف، آية ٥٦ ٣- سورة يوسف، آية ٥٧

- انظر كتاب خطب الشيخ «محمد الغزالى» فى شئون الدين والحياة، إعداد قطب عبد الحميد جـ ٢، ص ١٣٥-١٤٥ تحت عنوان «التصوف ما له وما عليه» بتصرف يسير.

الصحيح إلى الله عز وجل.

والثانى : أن نحرر التصوف من دخنه ليصل المسلم بذلك إلى أن يكون عنده مناعة ضد الوقوع فى أسر جاهل أو جهل، وكل ذلك من أجل الوصول إلى تربية صوفية رفيعة وواقعية، وهذا الذى حاولنا فعله، ولكن هذا كما قلت سيدخلنى فى صراعات مع جهات متعددة بعضها صوفى وبعضها ذو حساسية خاصة أمام هذه الأمور[1]

كما قال أيضا، إن الله عز وجل يقول : ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2]

فنحن مهمتنا التبصير، والله عز وجل يقول : ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾[3]

إننى حريص على أن يوجد نوع من التصوف السلفى له شيوخه وحلقاته، حلقات العلم والذكر، وليس أمامى غير هذا الطريق.

وأخيراً فإن عصرنا عصر الشهوة وعصر الذرة وعصر المادية، لابد أن نقابل هذه الأشياء فيه بما يكافئها ويقابلها، وبجزم أقول : إن التربية الصوفية وحدها هى التى تقابل ذلك، فالشهوة لا يحل مشكلتها المقال وحده، بل لابد من الحال ولابد من البيئة والتربية، والمادية لا يكافئها الكلمة وحدها بل لابد من الشعور والذوق والإحساسات الإيمانية مع المقال، والتمرد لا يعالج بالكلمة وحدها بل يعالج بالإحسان لله والتقوى والورع والأدب، وهذا طريقه العملى هو التصوف، إننى أريد أن أضع قدم المسلم فى طريق السير إلى الله ليذوق حقيقة الإيمان، وبنفس الوقت أريد أن يتعرف المسلم على معنى الحقيقة الصوفية.

وذلك لأن التصوف نزعة أصيلة فى النفس البشرية فلابد أن تكون جزءا من دعوتنا، لابد أن تكون لنا مدرستنا الخاصة فيها، لأنه ليس أمامنا خيار فى الرفض المطلق للإرث الصوفى ولا فى القبول المطلق فكان لابد من وجود ميزان للأخذ وميزان للرفض.

١- تربيتنا الروحية للأستاذ سعيد حوى، ص ١١- ٥٢ بتصرف ط مكتبة وهبة.

٢- سورة الكهف، آية ٢٩.   ٣- سورة الإسراء، آية ١٥.

إنه بدون الإستفادة من التجربة الصوفية قد لا نستطيع أن نعالج الكثير من أمراض النفس البشرية التى عقدتها مسيرة الحياة وطبيعة العصر[١]

وقال الشيخ أيضا تحت عنوان : فصل فى ما يسمى «شطحات الصوفية» من أعظم المآسى، ومن أفظع الانحرافات فى تاريخ الإسلام والمسلمين ما أدخله الناس تحت عنوان «شطحات الصوفية» فإنه من الطامات الكبرى والدخن العظيم والبلاء الأعظم نتبرأ إلى الله ممن لا يبرأ من ذلك، سئلت عائشة رضى الله عنها كما ورد فى حديث صحيح : هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل ؟ قالت : سبحان الله، لقد وقف شعرى لما قلت . .

مع أن هذه القضية خلافية ومع ذلك أقشعر من ذكرها جلد أُمنا رضى الله عنها، فبالله عليكم لو أن عائشة رضى الله عنها سمعت من يقول : إن محمدا ﷺ هو الله فكيف يكون موقفها ؟.

فبالله لو أن أحداً من الصحابة سمع إنسانًا يقول عن نفسه : «أنا الله» فماذا يكون الموقف ؟ فوالله لا يكون الموقف معه إلا السيف يقطع رقبته، ولقد كان موقف المسلمين من هذا الموضوع هو هذا فى كل العصور المشهود لها بالخيرية، عصر الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين بل حتى فيما بعد ذلك حتى قتلوا الحلاج، ذكر السيوطى في «تاريخ الخلفاء» وفيها - أى فى سنة (٣٠١ هـ) أدخل الحسين الحلاج مشدوداً على جمل إلى بغداد فصلب حيًا ونودى عليه : «هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه، ثم حبس إلى أن قتل فى سنة تسع» ويقول كذلك السيوطى فى نفس الكتاب : «وفى سنة تسع أى بعد الثلاثمائة قتل الحلاج بافتاء القاضى أبى عمرو، والفقهاء والعلماء أنه حلال الدم. وفى أحواله السيئة أخبار أفردها الناس بالتصنيف والملاحظ أن ما بين سجنه وقتله كان حوالى تسع سنين مما يدل على أنه لم يتسرع فى قتله فإذا كان الأمر كذلك حتى مقتل الحلاج، وقد أجمعت الأمة على وجوب قتله، أليس ذلك دليلاً على أن صدر هذه الأمة مجمع على لعنة من يتجرأ على الله بمثل ذلك، وللأسف الكبير فإن هذا

١- نفس المصدر ص ١٣- ١٦ بتصرف.

الذى قاله الحلاج فأجمعت الأمة على قتله به أصبح فلسفة تقرر وعلما يدرس حتى وجد من يذكر أنه متى يجوز للإنسان أن يقول : «أنا الله» ومتى لا يجوز، ألا لعنة الله على من لا يتبرأون ممن لا يتبرأ من مثل هذا، أن يشاهد الإنسان أن كل شىء فعل الله، ومن جملة ذلك أفعال الانسان نفسه هذا شىء وأن يقول الانسان عن نفسه: أنه الله، فهذا شىء آخر.

أن يشهد الانسان أن كل شىء قائم بالله هذا شىء وأن يقول إنسان عن نفسه، «أنه الله» هذا شىء آخر، إنه لمن عمى القلب والبصر والبصيرة أن تستمر مثل هذه الطامات فى الأمة أياً كانت التبريرات والتأويلات : ألا يخجل هؤلاء من الله ومن عباد الله وهم يتشدقون بمثل هذا الكلام.

لقد قال ربنا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[1] وهؤلاء يريدون أن نسلم للواحد حاله وهو يقول : «أنا الله» فأى جهل هذا، وأى كفر هذا وأى دخن وأى دغل ؟!!

وكيف يستريح قلب لسماع مثل هذا الدنس النجس ويعتبر هذا علماً، تالله ما هو إلا تلبيسات الشيطان ووساوسه، ومع أننى فى سيرى لله أذاقنى الله من فضله من معانى اسمه «الصمد» جل جلاله وهو المقام الذى زل به، وتالله لا أرى لهؤلاء إلا القتل إن أصرواعلى هذه التشدقات والدعاوى، وليس بشىء ما يتمسك به هؤلاء الضالون : يقولون : إن الحديث القدسى الصحيح، يقول: «من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره، الذى يبصر به ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها. ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه»[2].

أقول : هل هذا مما يتمسك به كدليل على أنه يجوز للإنسان أن يقول عن نفسه إنه الله، والحديث نفسه يقول : «وما يزال عبدى يتقرب إلى . . » أيعمون عن كلمة العبد،

١- سورة المائدة، آية ١٧ و ٧٢.

٢- رواه البخارى

ويتمسكون بقضية مجازية ليقولوا كلمة هى الكفر بعنيه؟ ويقولون: إن الحديث القدسى يقول: «يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى، قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده..»الحديث[١].

أقول : هل هذا مما يتمسك به كدليل على مثل هذا، والحديث نفسه يقول : مرض عبدى فلان، أيعمون عن كلمة عبدى ويتجرأون على الله هذه الجرأة، لقد قال الله عز وجل مبينًا أن خلافته عليه الصلاة والسلام عن الله كاملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[٢]

وقال جل شأنه : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٣] فهل قائل يقول بأن محمدا هو الله، أو قال محمد ﷺ عن نفسه ذلك يا ويلاه يا ويلاه!! كيف يقر لمسلم قرار وهو يسمع مثل هذا الكفر ؟ وكيف يستروح قلبه لسماع مثل هذا ؟ فهذا رسول الله ﷺ من أنزله الله عز وجل هذه المنزلة يأمره أن يقول : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٤] وهؤلاء يقولون : «أنا الله» فمتى تثور فى قلوب المسلمين عقيدة الحق الصافية التى كانت عليها الأجيال الأولى فيقتلون من تجرأ على مثل هذا الكلام لينقطع دابر هذا الكفر اللعين، إن إجماع الأمة منعقد حتى مقتل الحلاج على أن قائل مثل هذا الكلام كافر ومع ذلك وكأنه اللغة العادية فى كثير من الدوائر، إنه لشىء مؤسف وإنه لشىء يجب أن تطهر منه هذه الأمة وذلك بإقامة حلقات التصوف المحرر من الزيغ والدغل. قال حجة الاسلام الغزالى فى «إحيائه» : وأما الشطح : فنعنى به صنفين من الكلام أحدثهما بعض الصوفية : أحدهما : الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب فيقولون : قيل لنا كذا، وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج، الذى صلب لأجل اطلاقه كلمات من

١- رواه مسلم.
٢- سورة الفتح، آية ١٠
٣-سورة النساء، آية ٨٠
٤- سورة الكهف، آية ١١٠، وفصلت : ٦

هذا الجنس، ويستشهدون بقوله : «أنا الحق» وبما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال: «سبحانى سبحانى» وهذا فن من الكلام عظيم ضرره على العوام حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوى، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل، والعلم حجاب والجدل عمل النفس، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق.

فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره وعظم فى العوام ضرره حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء شره، وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله، فلا يصح عنه ما يحكى، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل يردده فى نفسه كما لو سمع وهو يقول : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾[1] فإن ما كان ينبغى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية.

الصنف الثاني من الشطح :

كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائعة. و فيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل، وتلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط فى عقله وتشويش فى خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أن يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معان ما أريدت ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه. ثم بعد كلام يقول الشيخ الغزالى : وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه فى الشطح، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة كدأب الباطنية فى التأويلات فهذا أيضاً حرام، وضرره عظيم، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها من غير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة

١- سورة طه، آية ١٤

تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فإنه ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى وهذا أيضًا من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذه له وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم فى كتاب المستظهرى المصنف فى الرد على الباطنية وهناك تأويل أهل الطامات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى : ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[١] إنه اشارة إلى قلبه، وقال : هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان، وفى قوله تعالى : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾[٢] أى كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغى أن يلقيه. وفى قوله ﷺ: «تسحروا فإن فى السحور بركه» أراد به الاستغفار فى الأسحار وأمثال ذلك حتى ليحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعًا كتنزيل فرعون على القلب، فإن فرعون شيء محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده؛ ودعوة موسى له، كأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه وكذلك حمل السحور على الإستغفار فإنه كان ﷺ يتناول الطعام، ويقول: «تسحروا وهلموا إلى الغذاء المبارك»[٣] فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلاً وبعضها يعلم بغالب الظن وذلك فى أمور لا يتعلق بها الإحساس فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد الدين على الخلق ولم ينقل شىء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم فلا يظهر لقوله ﷺ :«من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» الرواية المعروفة لهذا الحديث : من قال فى القرآن بغير علم، وفى رواية : فليتبوأ مقعده من النار»[٤].اهـ [٥].

١- سورة طه، آية ٤٣ ٢- سورة القصص، آية ٣١

٣- رواه أبو داود والنسائى.

٤- رواه الترمذى وغيره، وقد صححه الترمذى وضعفه غيره.

٥- تربيتنا الروحية للأستاذ سعيد حوى ص ٢٧٧- ٢٨٢.

عقيدة المسلم

إن كان تابع أحمد متوهبا	فأنا المقر بأنني وهابي
أنفي الشريك عن الاله فليس لي	رب سوى المتفرد الوهاب
لاقبة ترجى ولا وثن ولا	قبر له سبب من الأسباب
كلا ولا حجر، لا شجر ولا	عين، ولا نصب من الأنصاب
أيضا ولست معلقا لتميمة	أو حلقة، أو ودعة أو ناب
لرجاء نفع، أو لدفع بلية	الله ينفعني ويدفع ما بي
والابتداع وكل أمر محدث	في الدين ينكره أولو الألباب
أرجو بأني لا أقاربه ولا	أرضاه دينًا، وهو غير صواب
وأعوذ من جهمية عنها عنت	بخلاف كل مؤول مرتاب
والاستواء فان حسبي قدرة	فيه مقال السادة الأنجاب
الشافعي ومالك وأبي حنيفة	وابن حنبل التقي الأواب
وبعصرنا من جاء معتقداً به	صاحوا عليه مجسم وهابي
جاء الحديث بغربة الاسلام	فلبيك المحب لغربة الأحباب
فالله يحمينا، ويحفظ ديننا	من شر كل معاند سباب
ويؤيد الدين الحنيف بعصبة	متمسكين بسنة وكتاب
لا يأخذون برأيهم وقياسهم	ولهم إلى الوحيين خير مآب
قد أخبر المختار عنهم أنهم	غرباء بين الأهل والأصحاب
سلكوا طريق السالكين إلى الهدى	ومشوا على منهاجهم بصواب

مـــن أجـــل ذا أهـــل الغلـو تنافـروا عنهـــم فـقلنا لـــيس ذا بعـجـــاب
نفـر الدين دعـاهم خـير الـــــورى إذ لقـبـــوه بسـاحـــر كـــــذاب
مـــع علمهم بأمـانة وديانة فيـــه ومـــكرمة وصـدق جـــواب
صـلى عليـه الله مـا هب الـصبـا وعلى جـميع الآل والأصـحـاب[1]

١- قصيدة الشيخ «ملا عمران» نقلا عن كتاب حقيقة الصوفية فى ضوء الكتاب والسنة» ص ٤٣ و ٤٤

الخـــاتمة

وبعد .. فلقد كثر الكلام فى التصوف وفى الصوفية وتشعبت الآراء فيهم، فمن مادح لهم مثنى عليهم حتى ليكاد يحكم بكفر كل من لم يكن ينتمى إليهم، ويعترف بفضلهم ويركع خاضعا أمامهم.

ومن منكر عليهم مُكَفِرٍ لهم حتى ليكاد يجزم بعدم انتماء أحد منهم فى الحقيقة إلى الإسلام.

والعجيب فى الأمر أن كل فريق من المادحين والقادحين فى التصوف قد وجد فى الصوفية، وفيما هو مدون على أنه من التصوف من الحجج والبراهين على صدق مدعاة ما يوهمه بصحة ما ذهب إليه مطلقًا دون قيد أو شرط.

لذلك كان موضوع البحث الذى بين أيدينا من الموضوعات الشاقة فعلاً، والتى يصعب على الباحث البت فيها بسهولة إلا إذا استقرت الآراء والمذاهب. ونوقشت الموضوعات نقاشًا علميًا نزيهًا بعيدًا عن التعصب المقيت، وهذا ما حاولت أن أنهجه من منهج فى كتابة هذا البحث كما بينت فى المقدمة ومع الذى ذكرته فإننى لا أدعى أننى قد أحطت بالموضوع كله من جميع جوانبه، ذلك أن الموضوع واسع جدًا، وحساس جدًا، واسع لأن التصوف بحر لا ساحل له، فمن خاض فى موضوعاته وحاول استقراء شيء من آراء أصحابه، فكأنما يطلب مستحيلاً.

وحساس لأنه ربما يفهم من مناصرة قول فى التصوف ومعارضته أحد أمرين : كل منهما أخطر من الآخر، ففى الحالة الأولى قد يفهم منها أن الكاتب يناصر التصوف مطلقًا، وينادى به على علاته، أو هو من الصوفية فعلاً، وهذا ما لا صحة له إطلاقًا، وإلا فإن طرد هذا يعنى أن ابن تيمية وغيره من الأئمة الذين فندوا القول فى موضوعات التصوف فصححوا بعضها وأظهروا خطأ البعض الآخر، أن كل هؤلاء صوفية أو مروجون لها.

وفى الحالة الثانية قد يفهم أن سبب معارضة أقوال الصوفية ناتج عن عداء مستحكم فى نفوس أتباع ابن تيمية وتلاميذه للتصوف والصوفية مطلقًا، بل ربما ذهبوا إلى أن العداء لجميع أولياء الله الصالحين، متمثلا فى صورة عداء للصوفية.

وهذا أيضا لا صحة له إطلاقًا، لأن كل رجل يؤخذ منه ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ، فليست معارضة رأى لأحد الأولياء دليلاً على عداء مستحكم له، وإلا كان الفقهاء كلهم وهم من خيرة أولياء الله - أعداء لأولياء الله لما كان بينهم من معارضات ومناقشات.

وبعد هذا فإننا نوضح أولاً أن كل ما صدر منا من أحكام على الصوفية إنما أساسه الأول صحة نسبة هذه النصوص والتصريحات التى نقلناها إليهم.

فحكمنا وموافقتنا للإمام ابن تيمية مبنى على هذا الأساس، فإن ثبت أن هذا أساس غير صحيح فلا حكم عليهم إلا بما يصح عنهم فعلاً، وهذا هو منهج الإمام ابن تيمية رحمه الله، وذلك مضبوط بقولة الشافعى :

كلامى صحيح يحتمل الخطأ، وكلام غيرى خطأ يحتمل الصواب (والله أعلم).

كتبـه

أبو حفص

عمـر بن عبد العـزيز

فى المحـرم ١٤١٢هـ

يونيـو١٩٩٢م



المراجـــع

١ ابن تيمية : مجموع الفتاوى

٢ مجموع الرسائل الكبرى

٣ جامع الرسائل

٤ الصوفية والفقراء

٥ النبوات

٦ حقيقة مذهب الاتحاديين

٧ الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

٨ ابن القيم : مدارج السالكين

٩ ابن خلدون : المقدمة

١٠ ابن الجوزى : تلبيس إبليس

١١ ابن عربى : مواقع النجوم

١٢ الفتوحات المكية

١٣ فصوص الحكم

١٤ ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق

١٥ أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين

١٦ مشكاة الأنوار

١٧ أبو بكر الجزائرى : عقيدة المؤمن

١٨ منهاج المسلم

١٩ إلى التصوف يا عباد الله

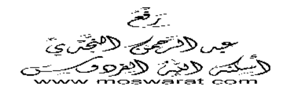
٢٠ محمد الغزالى : عقيدة المسلم

٢١ الجانب العاطفى فى الإسلام

٢٢ خطب الشيخ محمد الغزالى جـ ٢
٢٣ الشعرانى : الكبريت الأحمر
٢٤ الطبقات الكبرى
٢٥ المناوى : الكواكب الدرية
٢٦ فيض القدير
٢٧ القشيرى : الرسالة
٢٨ البقاعى : مصرع التصوف
٢٩ الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف
٣٠ السلمى : طبقات الصوفية
٣١ على بن حرازم : جواهر المعانى
٣٢ مصطفى غلوش : التصوف فى الميزان
٣٣ محمد عثمان : الهبات المقتبسة
٣٤ الرطبى : منحة الأصحاب
٣٥ البكرى : بلغة المريد
٣٦ عبد الحليم محمود : المنقذ من الضلال
٣٧ عبد القادر الجيلانى : الغنية
٣٨ الزمخشرى : تفسير الكشاف
٣٩ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم
٤٠ أحمد بن حنبل : الزهد
٤١ أبو الحسن الندوى : ربانية لا رهبانية
٤٢ سعيد حوى : تربيتنا الروحية
٤٣ لين : المصريون المحدثون
٤٤ جوتييه : المدخل
٤٥ نيلسون : الصوفية فى الإسلام

٤٦ نيكلسون : فى التصوف الإسلامى
٤٧ الجرجانى : التعريفات
٤٨ السهروردى : عوارف المعارف
٤٩ صديق خان : فتح البيان
٥٠ ابن منظور : لسان العرب
٥١ طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة
٥٢ محمد رشيد رضا : تفسير المنار
٥٣ الدباغ : الإبريز
٥٤ البيطار : النفحات القدسية
٥٥ الكمشخانلى : جامع الأُصول
٥٦ يوسف القرضاوى : ثقافة الداعية
٥٧ جولدزيهر : العقيدة والشريعة
٥٨ أحمد بن محمد بناني : موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية
٥٩ طه الدسوقى : فى ظلال التصوف الإسلامى
٦٠ السراج : اللمع
٦١ عبد الرحمن الوكيل : هذه هى الصوفية

* * *



الفهرس

الموضــــوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٥
مقدمات حول معنى التصوف	٧
متى ظهر التصوف ؟	١٨
وأين ظهر التصوف	٢٤
أقسام المتصوفة	٢٥
فرق الصوفية	٣٣
عقيدة المتصوفة	٣٧
وحدة الوجود	٣٧
وحدة الأديان	٥٨
آثار عقيدة الاتحاد والحلول	٦٢
الفارق بين وحدة الوجود ووحدة المشاهدة	٦٤
بطلان نظرية وحدة الوجود	٦٥
بطلان نظرية الإتحاد والحلول (عقليا)	٦٧
بطلان نظرية الإتحاد والحلول (شرعيًا)	٧١
النبى محمد صلى الله عليه وسلم عند الصوفية	٧٥
نورانية النبى محمد ﷺ	٨٠
زعم الصوفية بأن النبى يعلم الغيب	٩٢
زعمهم بأن النبى محمد ﷺ يعلم القرآن قبل نزوله	٩٤
الأولياء عند الصوفية	١٠٠
معنى الولى، ومن هم الأولياء؟	١٠٠

خاتم الأولياء ١٠٣
الرد عليهم فى بيان المعنى الصحيح ١٠٨
مراتب الأولياء الوصول إلى الولاية ١١١
معنى الكرامة ١١٧
الفرق بين الكرامة وغيرها ١٢٠
نماذج من الكرامات عند أهل الحق ١٢٢
الأحوال الشيطانية بخلاف الكرامة ١٣١
الفرق بين الولى الصادق والدعى الكاذب ١٣٤
نماذج وأنواع من الكرامات عند الصوفية ١٣٧
خزى صوفى ١٤٤
أقطاب الصوفية ١٤٦
الديوان الصوفى ١٥١
الشريعة والحقيقة عند الصوفية ١٥٧
قصة موسى مع الخضر ١٦٢
شيوخ الصوفية وتقديسهم ١٦٨
حدود الطاعة المشروعة من المريد للشيخ ١٧٣
مقامات الصوفية وأحوالهم ١٧٩
مقام الفقر ١٨٢
مقام الزهد ١٨٥
مقام التوكل ١٩٣
مقام التوبة ١٩٩
مقام الفناء ٢١٠
أذكار الصوفية ٢٢٠
كيفية الذكر ٢٢٤
ذكر رسول الله ﷺ ٢٢٦

نماذج من أوراد الصوفية ٢٢٧
إيمان الصوفية بكتبهم وزعمهم بأنها أسرار ٢٣٣
هل هناك تصوف سنى ؟ ٢٣٥
ظهور الدعوة للتصوف من جديد ٢٣٧
آراء وعلماء «حول التصوف» ٢٣٩
رأى فضيلة الشيخ / يوسف القرضاوى ٢٤٠
رأى فضيلة الشيخ / محمد الغزالى ٢٤٢
رأى فضيلة الشيخ / سعيد حوى ٢٥٢
قصيدة من الشعر «عقيدة المسلم» ٢٥٩
الخاتمة ٢٦١
المراجع ٢٦٣
الفهرس ٢٦٧

تم بحمد الله

* * *

التصميم الداخلى : إسلامية لخدمات الطباعة
٦ ش على الغاياتى ـ عابدين ـ ت : ٣٩١٣١٦٥

يصدر قريباً إن شاء الله

حقيقة الإيمان

الجزء الثانى

تأليف

أبي حفص

عمر بن عبد العزيز قريشي

مدرس بكلية الدعوة الإسلامية

جامعة الأزهر



رقم الإيداع ٧٠٤٨ / ٩٢


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com